جائزة نوبل للآداب

كنوت هامسون

رجلٌ وضيع للغاية

ترجمة
جوهر عبد المولى

مكتبة

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

رجل وضيع للغاية!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكتاب: رجل وضيع للغاية

المؤلف: كنوت هامسون

ترجمة: جوهر عبد المولى

تصميم الغلاف: عبدالفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 372

الترقيم الدولي: 9 - 20-998800 - 1 - 978

الطبعة الأولى: 2024

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الإلكتروني:
hayatbookstore.com

كنوت هامسون

رجل وضيع للغاية!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة

جوهر عبد المولى

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة

اشتُهر "كنوت هامسون" (1859 - 1952) بكونه روائيًّا، فقد ألّف روايات "الجوع" Hunger و"أسرار" Mysteries و"بان" Pan و"فيكتوريا" Victoria، إضافةً إلى "واخضرّت الأرض" Growth of the Soil التي نال بعدها جائزة نوبل للآداب في عام 1920. لكنّه جرّب خلال السنوات الأولى من حياته المهنية كتابة مجموعة متنوعة من الأشكال الأدبية الأخرى. بين عامي 1895 و 1905، بالإضافة إلى تأليف روايتين وكتابٍ عن رحلاته السفرية، كتب أربع مسرحيات، ومسرحية شعرية، ونشر مجموعة من القصائد وثلاثة مجلّدات من القصص القصيرة.

عُرضتْ جميع مسرحيّاته ونالت أصداء إيجابية بين الجماهير المعاصرة. يكرس "ستانيسلافسكي" Stanislavski فصلًا من سيرته الذاتيّة لواحدة من هذه المسرحيّات، ألا وهي "لعبة الحياة" The Game of Life، واصفًا إنتاجه للمسرحية في عام 1905 بأنه "نقطة تحوّلٍ في مسيرتي الفنيّة". لكنّ بريق مسرحيات "هامسون" تضاءل في العقود اللاحقة وكان مصيرها النسيان، عدا عن بعض محاولات إحيائها في النرويج بين الحين والآخر، حتّى أنّ "هامسون" نفسه رأى أنّها أعمال فاشلة، وبعد محاولة أخيرة لإتقان فنّ المسرحية في عام 1910، تخلّى عنه كليًّا. أمّا بالنسبة للشعر، فقد نشر عام 1904 ديوان "الجوقة البرية" The Wild Choir

الذي يحتوي على قصائد رائعة ألهمت جيلًا كاملًا من الشعراء النرويجيين الشباب، ولا سيما "هيرمان ويلدنڤي" Herman Wildenevey، لكنّ "هامسون" تخلّى أيضًا عن كتابة الشعر بعد ذلك. إنّ أكثر الأعمال إثارةً للاهتمام التي نتجت عن رحلته التجريبيّة المكثّفة هذه - في تسعينيات القرن التاسع عشر- هي 34 قصّة قصيرة وضعها في مجموعات تحت العناوين التالية: "قيلولة" Siesta، و"الأغصان الخشبية" Brushwood، و"حياة الكفاح" Striving Life، ويوجد 20 قصة منها في هذا الكتاب.

تتمثّل أهمية القصص هذه في ناحيتين: أوّلًا، تتميّز العديد منها بالمزج الغامض بين السيرة الذاتية والخيال، الذي يعدّ أحد الجوانب الجذابة والساحرة في فنّ "هامسون". ثانيًا، غالبًا تلعب هذه القصص دور الحواشي التفسيرية لرواياته، حيث يظهر الراوي في رواية "الجوع" Hunger في قصص "حزنٌ دفين" Secret Sorrow و"جون ترو" Jon Tro و"نداء الحياة" The Call of Life، في حين يتضح للقارئ أنّ الشخصية المركزيّة في "ملكة سبأ" The Queen of Sheba هي ابنة عمّ مقربة من شخصية "ناجِل" Nagel في رواية أسرار. وعلى الرغْم من أنّ الشخصية الرئيسة -"مارسيليوس"- في قصة "جزيرة الرجل الأزرق" On Blue Man's Island أكثر إبداعًا وواقعيّةً من الملازم "غلان" Glahn في رواية "بان"، إلا أنّ هذه القصة تعكسُ -على غرار الرواية- هوس "هامسون" بالحبّ المحكوم عليه بالفشل. أمّا القصص الأخرى، مثل "ريرسن قبطان نجمة الجنوب" Reiersen

و"الحياةُ في بلدةٍ صغيرة" Life in a Small Town of the Southern Star، فهي بمثابة حجر الأساس الذي بنى عليه "هامسون" رواياته عندما أصبح في الخمسينيات من عمره. ترتبط قصة "ليلةُ عيد الميلاد على التل" برواية و"اخضرّت الأرض" و"الحياةُ في بلدةٍ صغيرة"، التي نُشرت في "الأغصان الخشبية" في عام 1903، وتمثّل تمهيدًا بالغ الأهميّة لرواية "نساءُ المضخّة" The Women at the Pump، وهي رواية نشرت بعد "الأغصان الخشبية" بـ17 عامًا، سنة 1920.

إذًا، تُقدّم لنا هذه القصص القصيرة لمحةً رائعةً عن مؤلّفٍ ينتقل من نمط أدبيّ إلى نمط آخرَ مختلفٍ تمامًا، حيث تفسح الرومانسيّة اليافعة الوحيدة والعاطفيّة في "بان" و"فيكتوريا" المجال للروائيّ الأكبر سنًّا والأقلّ تفرّدًا والأكثر انعزالًا والأكثر سخرية، الذي ألّف الروايات المكتظة بالشخصيّات مثل "أطفال العصر" Children of the Age، و"بلدة سيغِلفوس" Segelfoss Town والثلاثية التي تتناول شخصية "أغسطس" August المتجول. في قصة مثل "جزيرة الرجل الأزرق"، يستطيع القارئ أن يشعر بعملية التغيير عند نهاية كلّ صفحة.

من ناحية أخرى، تتميز بعض القصص في هذه المجموعة بغياب الأسلوب والمحتوى الذي نجده عادةً في روايات "هامسون". من بين القصص الثلاث التي تدور أحداثها في أمريكا، فإنّ قصة "زاكيوس" Zachæus هي قصة غير نموذجية بامتياز، حيث أنّ الراوي لا يلعب أيّ دور في التطور الغريب الذي يطرأ على العداوة

بين الشخصيتين الرئيسيتين. ومع ذلك، فإنّه يستمد سلطة قوية من حقيقة أنّ "هامسون" نفسه كان قد عمل في مزرعة مثل المزرعة التي يصفها في هذه القصة عندما عاش في أمريكا في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وعلى نحوٍ مماثل، يمكننا تصديق تسلسل الأحداث المروعة في قصة "انتصار امرأة" A Woman's Triumph إذا ما علمنا أنّ "هامسون" قد عمل كمحصّلٍ للتذاكر في عربات الترام في شيكاغو. أما قصة "في سهوب القمح" On the Prairie، فهي عبارة عن توصيف عامّ وانطباعيّ لحياة العامل المهاجر في السهوب في الغرب الأوسط للّولايات الّمتحدة، فيها التفاصيل الدقيقة والتصوير المتين للشخصيات، لكنها تتجنب الحبكة التقليدية. العنصر الذي يوحّد القصص الثلاث هذه هو تقبّلها العفوي لجميع أنواع الناس وجميع أنواع السلوك البشري، حتى أكثرها تطرّفًا. الشخصية الأكثر تميّزًا في قصة "في سهوب القمح" هي المقامر "إيڤانز" Evans، بقمصانه الحريرية وعدم اكتراثه بالمال الأشبه باللامبالاة الرواقية.

تتعامل قصة "أبٌ وابنه: قصة مقامر" Father and Son: A Gambling Story - التي تدور أحداثها في بلدة لا يُذكر اسمها - مع إدمان المقامرين الشديد على لعب القمار، ونجد في قصة "حزنٌ دفين" مشهدًا عابرًا يتناول لعبة "الروليت". هنا أيضًا، يتيح لنا خيال "هامسون" رؤية جانبٍ من جوانب حياته الشخصية: فقد تزوج من امرأةٍ ثرية في عام 1898، وبعد ذلك بوقت قصير راح يقامر بأموالها وخسر الكثير منها في الكازينوهات في "نامور" Namur و"أوستند" Ostend. على ما يبدو، سعى "هامسون" من خلال نشر العديد

من الكتب -عشرة على وجه التحديد- خلال سبع سنوات (ابتداءً بمجموعة "قيلولة" في عام 1897 وانتهاءً برواية "حياة الكفاح" في عام 1905) إلى كسب ما يكفي من المال لكي يعيد إلى زوجته "بيرغليوت بيك" Bergljot Bech المبالغ التي اقترضها منها.

رائعة هي الأساليب والموضوعات التي تحتويها هذه المجموعة، خصوصًا في تلك القصص التي تركّز على فن السرد بعينه، الأمر الذي يذكرنا مرة أخرى بحقيقة إحدى مقولات "إسحاق باشيفيس زنغر" Isaac Bashevis Singer: "إنّ "هامسون" هو المنبع الرئيس الذي نهلت منه مدرسة الأدب الحديث في القرن العشرين"، وهي حقيقةٌ غالبًا ما يتم طمسها بسبب ميول "هامسون" السياسية في سنواته الأخيرة حين دعم النازيين علنًا. سيجد القارئ الفكاهة في العديد من هذه القصص، مما يكذّب الاعتقاد السائد بأنّ شعبَ النرويج شعبٌ صارم لا يتمتع بروح الدعابة، وهو اعتقاد انتشر بسبب مسرحيات "هنريك إبسن" Ibsen Henrik ووطّد نفسه مُستندًا إلى لوحات "إدوارد مونش" Edvard Munch. في قصة "رجلٌ وضيعٌ بمعنى الكلمة "A Real Rascal، تظهر العلاقة بين الراوي والقارئ بطريقة ذكية جدًّا، أما "ثورةٌ في الشوارع" A Revolution in the Streets -وهي توثيق شبه دقيق للأحداث التاريخية من باريس- فتمثل دفاعًا نادرًا وذكيًّا عن حق الفرد في اعتبار الشغف السياسي أمرًا مملًّا؛ لكنّ "هامسون" لم يتمسك بلامبالاته البراغماتية حتى نهاية القصة.

بالنسبة لقصة "محاضرة مهمة" A Lecture Tour، فهي ذات أهمية خاصة. كتبها "هامسون" في مطلع عام 1886، قبل شروعه بكتابة رواية الجوع بعامين، وثم نقّحها لكي يضمّنها لاحقًا في مجموعة "الأغصان الخشبية". في هذه القصة، يحاول "هامسون" السخرية من نفسه ومن ادّعاءاته وطموحاته الأدبية، كما فعل على نطاق أوسع في رواية "الجوع" سنة 1890 في "ملكة سبأ" يقدم لنا "هامسون" راويًا مثل الراوي "ناجِل" في رواية "أسرار"، مهرّجٌ وجوديٌّ يحب اللهو ويختلق القصص من العدم ويعيد اختراع عالم قديم مضجر بسبب شعوره بالملل. لكن في حين أنّ نهايةَ "ناجِل" تعتبر نهايةً سيئة، يمكن القول بأنّ نهاية "ملكة سبأ" هي بمثابة انتصار للراوي. في قصة "نداء الحياة" وقصة "حدائق تيـﭭـولي والشابة" The Lady from the Tivoli نتعرف على "هامسون" الذي يحب المشي والتسكع في الشوارع، بسبب ملله من الحياة اليومية، على أمل حدوث شيء ما ينتشله من هذا الملل.

بالإضافة إلى استخدامه شكل القصة القصيرة كحقل تجارب يختبر من خلاله مواضيع جديدة، استخدم "هامسون" القصة لتجربة أنماط مختلفة من الكتابة سعيًا وراء أسلوب فوريّ في "التحدث" إلى القارئ، ونجد أنّه يتنقل بين الأزمنة فجأةً في منتصف الجمل، وينغمس في استخدام الفاصلة بدلًا من النقطة، مما يجعل نثره متدفّقًا في بعض الأحيان.

بعض هذه القصص مجزأة إلى عدة أقسام، وبعضها قصص انطباعيّة. لكن يبدو لي أن جميعها مثيرة للاهتمام، وتُظْهِر موهبةً كان من الممكن أن يتقنها "هامسون" لو أنّه رغب في ذلك. لكن بعد صدور "حياة الكفاح" في عام 1905، انتهت تلك الفترة الاستثنائية التي استخدم فيها "هامسون" شكل القصة القصيرة كأداة تجريبية، وبصرف النظر عن مسرحيته الأخيرة، "قبضة الحياة" In the Grip of Life، في عام 1910، التي كتبها كهدية لزوجته الثانية -التي كانت ممثلة- لم يكتب أيّ شيء سوى الروايات بعد ذلك.

Robert Ferguson روبرت فيرغسون

حدائق "تيڤولي" والشابة

جرت أحداث هذه القصة خلال الصيف الجاري، في حفلٍ موسيقيّ لـ"جوقة باريس" Paris Choir في حدائق "تيڤولي". كنت أتَمشى في محيط "قلعة هِل" Castle Hill، وحين وصلتُ إلى القمة استدرت وتوجّهت إلى تلك الحدائق.

عندما وصلت، وجدت تجمّعًا حاشدًا من الناس في الخارج، جاؤوا لكي يستمعوا إلى غناء "جوقة باريس"، فانضممت إليهم، وقابلتُ صديقًا لي هناك وتبادلنا أطراف الحديث.

بدأ الغناء في الداخل وكان يصلنا الصوت على شكل موجاتٍ خافتة متذبذبة. فجأةً انتابني شعورٌ بعدم الارتياح، واستحوذت عليّ بعض الأحاسيس البشعة والمضطربة. بشكل لا إرادي، ابتعدت قليلًا عن صديقي وصرت أتفاعل مع حديثه بشكل عشوائيّ ولم تحمل ردودي أيّ معنى. لمدّة دقيقة أو دقيقتين، شعرت بسَكِينَةٍ تامّة، قبل أن تغلب عليّ مجدّدًا مشاعر عدم الارتياح التي لم أستطع تفسيرها. في هذه اللحظة قال لي صديقي:

"من هي تلك السيدة التي تنظر إليك؟".

أدرت رأسي إلى الوراء، ورأيت سيدة شابة تقف خلفي مباشرة: عيونها ساحرة زرقاء، وجفناها مثقلان بالتعب، لكنها لم ترمش ولا مرة واحدة.

"لا أعرفها"، أجبته وأشحت بنظري بعيدًا عنها.

كانت نفسي مضطربة جدًّا، واستمرت تلك العيون في مراقبتي عن كثب لدرجةِ أنّها كانت تلسع رقبتي بلهبها؛ شعرت وكأنّ لعيونها قضبانًا فولاذية باردة تطبق عليّ من الخلف.

ازداد توتّري كثيرًا ولم أعد قادرًا على تحمّل تحديقها. استدرت مرة أخرى لكي أتأكد قطعًا أنّني لم أكن أعرف تلك السيدة، ثم غادرتُ الحدائق وعدت أدراجي.

بعد بضعة أيام، كنت جالسًا مع أحد معارفي - وهو ملازمٌ شاب- على أحد المقاعد مقابل برج ساعة الجامعة. كانت الوقت مناسبًا للتنزّه والترويح عن النفس. رحنا نشاهد الناس يسيرون ذهابًا وإيابًا. ثم رأيت بين حشود المارّة عينين باردتين، بجفون مثقلة، تنظران نحونا. تعرّفت على صاحبة تلك العيون فورًا: إنّها الشابة من حدائق "تيڤولي". استمرّت بالتحديق بنا بكل إصرارٍ وهي تمشي، فشعر الملازم بالفضول وسألني عمّا إذا كنت أعرفها.

قلت له: "ليس لدي أدنى فكرة".

فقال: "لا بدّ أنّها تعرف أحدنا"، ثم نهض وتابع: "أُرجّح أنّها كانت تنظر إليّ أنا".

جلست السيدة على المقعد المجاور لنا. عندما بدأ الملازم يمشي نحوها، قمت بشدّ طرف معطفه باتجاهي لكي يفهم أنّني لا أريد أن نتفاعل معها.

فقال لي: "كفاك عبثًا! سوف نلقي عليها التحية من دون أدنى شك".

"حسنًا. كما تريد"، ومشيتُ برفقته.

ألقى عليها التحيّة فعلًا وأخبرها باسمه ثمّ قال: "هل لي أن أجلس بصحبتك على هذا المقعد؟".

وراح يتحدّث إليها. كانت تجيبه بطريقة ودية، لكنّها بدت مشتتة الذهن بعض الشيء. بعد بضع دقائق أمسك بمظلّتها وأخذ يلهو بها. طوال ذلك الوقت، كنت واقفًا أشاهدهما، وشعرت بالإحراج قليلًا، إذ لم أكن أعرف كيف يجب أن أتصرّف. مرّ صبي صغيرٌ أمامنا يحمل سلّة من الزهور، فنادى عليه الملازم -الذي يحسن التصرف دائمًا في هذه المناسبات- واشترى 12 وردة منه. "اسمحي لي أن أضع هذه الوردة على مقدمة ثوبك". وأَذِنتْ له بذلك بعد أن رفضت أوّل مرة. كان الملازم رجلًا وسيمًا، لذلك من الطبيعي أنّها منحته تلك الحرية المطلقة.

لكنّها فجأة قالت له: "انظر! إنّها وردة تالفة!"، ثمّ أخرجتها من العروة وحدّقت بها بعيون خائفة، قبل أن تلقي بها بعيدًا وهي تقول بصوت منخفض: "وكأنّها جثّة طفل".

لم أُعرْ تلك الكلمات اهتمامًا كبيرًا. كان تركيزي منصبًّا على مراقبة كلّ تحركاتها عن كثب.

اقترح الملازم أن نمشي إلى متنزّه القلعة، وهذا ما فعلناه. في الطريق إلى المتنزّه، راحت السيدة من دون أيّ سبب واضح تتحدّث عن طفل كانت تعرفه، لكنّه أصبح في عداد الموتى الآن. لم يعلّق أحدٌ منّا على كلامها ذلك.

بعد ذلك بوقت قصير بدأت تتحدّث عن مستشفى "غاوستاد" Gaustad. "كم هو فظيعٌ أن يُحتجزَ المرء هناك حين لا يكون مجنونًا".

فقال الملازم: "نعم، لكنّ مثل هذه الأمور لم تعد تحدث في أيّامنا هذه".

"أوه، بلى! هذا ما حدث لأم ذلك الطفل"، أجابته السيدة.

فضحك الملازم وقال: "اللعنة!"،

كان صوت السيدة بهيجًا، وكانت لغتها تدلّ على أنّها امرأةٌ مثقفة. لكنّي رأيت أنّها سريعة الانفعال للغاية؛ ربما كانت مصابةً بالهستيريا أيضًا، وقد ازداد إحساسي هذا بسبب الضوء الشاحب الذي انبعث من عينيها. بصرف النظر عن ذلك، كانت خاليةً من العيوب على حدِّ علمي، إلّا أنّني واجهت صعوبةً كبيرةً في التركيز على شتّى المواضيع التي كانت تتنقّل بينها بشكل فجائي. لقد أربكتني وشعرت بالملل منها، فتوقّفت وقلتُ وداعًا لهما. عندما مشيت بعيدًا رأيت الاثنين يواصلان السير إلى الحديقة. لا أعرف ما حدث بعد ذلك، ولم أنظر إلى الوراء أيضًا.

***

بعد أسبوع، بينما كنت أمشي ذات مساء باتجاه شارع "كارل يوهان" Karl Johan، قابلت تلك السيدة مجدّدًا. عندما اقتربنا من بعضنا بعض، بدأ كلانا يخفف من وتيرة مشيه بشكل عفويّ، وقبل أن أغيّر رأيي وأبتعد عنها، وجدت نفسي أسير بجانبها.

لم نتحدّث عن أيّ شيء مهمّ حين تجوّلنا ببطء على الرصيف. أخبرتني باسمها -كانت تنحدرُ من عائلة شهيرة- ثمّ سألتني عن اسمي، لكن قبل أن أتمكّن من الإجابة، وضعتْ يدها على ذراعي وقالت:

"لا عليك. أعرف اسمك مسبقًا".

فقلت لها: "نعم. إنّ صديقي الملازم دائمًا ما يساعدني في هذه المناسبات. لكن هلّا أخبرتِني بماذا دعاني أمامك؟".

إلّا أنّ أفكارها تشتّت مجدّدًا. أشارت نحو حدائق "تيـڤولي" وقالت: "انظر!".

كانت تشير إلى رجلٍ يقود درّاجةً هوائيّةً جيئة وذهابًا على حبلٍ لولبيّ فوق مجموعة من المشاعل الملتهبة.

سألتها: "هل ترغبين بالذهاب إلى هناك؟".

فأجابتني: "نعم. دعنا نجد مقعدًا مناسبًا".

مشت أمامي عبر شارع "درامينسڤين" Drammensveien الذي يقود إلى الحديقة، حيث اختارت الجلوس في المكان الأكثر ظلمةً في المتنزّه بأكمله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حاولتُ من فور جلوسنا بدء محادثة جديدة معها، لكن من دون جدوى، إذ أنّها أومأت لي ملتمسةً السكوت مني، وكأنّها أرادت أن تقول: "أرجوك. فلنلزم الصمت كلّيًا لبضع لحظات". طبعًا، كان ذلك من دواعي سروري، ولم أقلْ شيئًا بعدها. انقضت نصفُ ساعةٍ على هذا الحال: صمتٌ مطبق، وجلست الشابة بلا حراك. هناك، في الظلام، رأيت بياض عينيها، وطوال ذلك الوقت كانت تنظر إليّ من حين لآخر. بعد مضيّ قليلٍ من الوقت، دب فيّ شيءٌ من الرعب بسبب نظراتها الثاقبة المجنونة وكنت على وشك المغادرة. لكنّني أجبرت نفسي على البقاء. وضعت يدي في جيب سترتي بحثًا عن ساعتي.

ثم قلت: "إنها الساعة العاشرة".

لم ألقَ أيّ ردّ منها، وظلّت عيناها تحدّقان بي. ثم قالت فجأةً:

"هل لديك الشجاعة الكافية لانتشال جثة طفل من قبره؟".

في هذه اللحظة بالذات، شعرت بعدم ارتياح مطلق: من الواضح أنّ هذه المرأة مجنونة، لكن في الوقت ذاته شعرتُ بالفضول العميق، ولم أرغب في الرحيل. نظرتُ إليها وقلت:

"جثّة طفل؟ نعم. بالتأكيد. لمَ لا؟ سأمدّ لك يد المساعدة بكل تأكيد".

ردّت: "لقد دُفِنَ حيًا، ويجب أن أراه مرة أخرى".

"نعم. بالطبع. يجب أن نخرج طفلك من القبر"، ثم راقبتُها عن كثب. فجأةً صارت نبرتها دفاعيّة:

"ما الذي جعلك تعتقد أنّه طفلي أنا؟ هل سمعتني أقول لك ذلك؟ كلّ ما قلتُه هو أنّني أعرف أمه. والآن، دعني أخبرك بالقصة كاملة".

ثم شرعت تلك السيدة -التي كانت تعجز عن طرح موضوع واحد بشكل مفهوم- في سرد قصّة طويلة عن ذلك الطفل (يا لها من قصّة غريبة تركت فيَّ انطباعًا عميقًا للغاية). تحدّثتْ بعفويّةٍ وصراحةٍ وعلى عجلٍ من أمرها. لم تكن هناك أيّ فجوات في قصتها، ولا أخطاء قواعدية في لغتها. لم أعد أشعر بأنّها تعاني من مرض نفسيّ. قالت لي إنّ سيّدةً شابة -مشيرةً إليها بضمير الغائب- تعرّفت ذات يوم على شابّ وأصبحت مغرمة به، لينتهي الأمر بخطبتها منه. كانا يلتقّيان كلّ يوم، ويمشيان علنًا في الشارع، ويتواعدان سرًّا أيضًا: كانت تذهب إلى منزله أو يذهب هو إلى غرفتها، أو يلتقيان في الظلام، خلف هذا المقعد الذي كنا نجلس عليه الآن بالذات. لكنّ كلّ شيء انتهى في يوم من الأيام، حين علما أنّهما قد أخطآ، وتم استدعاء طبيب أسرتها إلى المنزل -ذكرتْ لي اسمه. كان أحد أشهر الأطباء في المدينة- وبناء على نصيحته سافرت الفتاة إلى بلدة ريفية برفقة قابلةٍ محلّية.

بعد مرور تسعة أشهر، ولد الطفل. وعلمتْ أنّ طبيب أسرتها في "كريستيانيا" كان أيضًا في تلك القرية عندما أنجبت طفلها. لزمتْ الأم الشابة السرير بعد الولادة وقد نال منها التعب والضعف، لتتلقّى فجأةً نبأ وفاة الطفل.

تسألهم: "هل وُلِدَ مليصًا*؟".

فيقولون: "كلّا. لقد عاش لبضعة أيام".

لكن، في الواقع، لم يكن الطفل ميّتًا. طوال ذلك الوقت، لم يسمح أحدٌ للأم أن ترى طفلها. وأخيرًا، عندما حان موعد الدفن، أحضروه لها مستلقيًا في كفنه. "صدّقني، لم يكن الطفل ميتًا في ذلك الوقت. كان حيًّا وجرى الدم في خديه، وتحرّكت أصابع يده اليسرى مرة أو مرتين". على الرغم من صرخات الأم واحتجاجاتها، أخذوا الطفل منها وقاموا بدفنه. تمّت حياكة هذه المكيدة برمّتها على يد الطبيب والقابلة.

مضت الأسابيع، واستطاعت الأم أنّ تمشي مرّة أخرى -على الرغم من آلامها- وعادت إلى منزلها في العاصمة، حيث أقرّتْ لبعض أصدقائها بسبب زيارتها لتلك البلدة الريفية، ولأنّ طفلها كان شغلها الشاغل، لم تحاول إخفاء مخاوفها من أنّه قد دفن حيًّا. تملّك الحزن تلك الفتاة وغرقت في معاناتها، حيث تبرّأت منها عائلتها، وهرب خطيبها ولم يعد.

في أحد الأيّام، وقفت عربةٌ خارج منزل والديها، فقالا لها إنّها جاءت لكي تأخذها في رحلة حول المدينة. فصعدت إلى العربة، وإذ بالسائق يذهب بها إلى مصحّة "غاوستاد" للأمراض العقلية. حضر طبيب الأسرة إلى منزل أهلها مرة أخرى وسأل عن سبب نقلها

---

* الإملاص هو ولادة الطفل ميّتًا بعد فترة تتراوح بين 20 حتى 28 أسبوعًا من الحمل. (المترجم).

إلى مستشفى المجانين: هل أصيبت بالجنون حقا؟ أم أنّهما أصبحا يخشيان أن تبدأ في التحدّث عن طفلها في كلّ مكان؟.

مضى الكثير من الوقت على تواجدها في "غاوستاد"، حيث كانت مهمّتها العزف على البيانو للمجانين. لكنّ القائمين على المصحّة، في غضون ذلك، وجدوا أنّها لا تعاني من أيّ مرض نفسي، باستثناء شعورها المفرط بالعجز وضعف عزيمتها، فحثّوها على شحذ همّتها وقوة إرادتها، كان ذلك مضحكًا... حاولوا أن يزوّدوها بالعزيمة والقوة، بحيث تكون في يوم من الأيام صلبةً بما يكفي لكي تفضح الجريمة التي ارتُكبت ضدّ طفلها! ثمّ أطلقوا سراحها لاحقًا، لكنّ الأحزان والمعاناة لم تفارقها، ولم تستطع العثور على شخص واحد مستعدٍّ لمساعدتها في إنقاذ طفلها. "إلا إذا كنت ترغب أنتَ في ذلك..." قالت لي ختامًا.

لقد أدهشتني القصة التي سردتها عليّ هذه السيدة؛ شعرت وكأنّها من نسج الخيال، كما يفعل الكُتّاب في الروايات. ومع ذلك، بدا لي أنّها كانت تصدّق روايتها هذه حقًّا. لكنّها سردَتْها بحماس شديدٍ، لذلك قد تكون أكثر من مجرّد قصة ابتدعتْها بنفسها؛ قد يكون هناك شيء من الحقيقة في روايتها. على سبيل المثال، ربّما أنجبت ذلك الطفل فعلًا، ومن ثمّ مات، لكنّ مرضها وضعفها منعاها من أن تتقبّل موت الطفل الطبيعي، فتصوّرت بسبب حالتها النفسية المحمومة أنّه تعرّض للقتل. قلتُ لها:

"هل دفن الطفل هنا؟".

فأجابت: "كلا. بل في القرية التي مرضتُ فيها".

"آه! إنّه طفلك إذن؟" قلت لها بسرعة.

لكنّها لم تجبني. اكتفت بالنظر إليّ بطرف عينها، وقد علا محيّاها الحذر والريبة فجأةً.

"سوف أساعدك بقدر المستطاع. لا تقلقي". قلت لها بهدوء ثم أضفت: "متى سنبدأ؟".

"غدًا، أيها الرجل العزيز، غدًا!" أجابتني بصوت مشرق.

"حسنًا!" قلتُ لها.

اتّفقنا أن نلتقي في السابعة من مساء اليوم التالي، عندما يحين موعد رحيل القطار.

وانتظرتها في المحطة، مصمّمًا على الوفاء بوعدي. أصبحت الساعة السابعة لكنّها لم تأتِ. غادر القطار وانتظرتها حتّى الساعة الثامنة. أخيرًا، عندما هممت بالعودة إلى المنزل، رأيتها تمشي بسرعة كبيرة متّجهة نحوي. ثمّ قالت لي بصوت عالٍ، على مسامع جميع المشاة في الشارع، من غير أن تلقي عليّ التحية، وبلا أيّ مقدمات: "كنت أكذب عليك بالأمس. أعتقد أنّك تعي ذلك. لقد كان الأمر برمّته مجرّد مزحة".

شعرت بالحرج نيابة عنها. "بالطبع، أدرك ذلك".

"نعم، بالطبع. لكنّك أخذت الأمر على محمل الجد قليلًا، كان الله في عوني!".

"لماذا تقولين كان الله في عونك؟".

"من فضلك!" قالت لي وأمسكت بذراعي. "من فضلك، لننسَ ما حصل كليًّا".

"حسنًا. كما تريدين".

مشينا في شارع "روسينكرانتز" Rosenkrantz باتجاه الحديقة، عبر شارع "درامينسڤين". كانت السيدة الشابة تمشي أمامي طوال الوقت. جلسنا على المقعد ذاته، وكما جرى في المرة السابقة، لم نتحدّث عن أيّ شيء ذي أهمّية. كانت أفكارها مشتَتة بشكل يدعو للدهشة، مع أنّها أثارت اهتمامي كثيرًا. حتى أنها ضحكت عدة مرات ودندنت بعض الألحان بين الحين والآخر.

في الساعة العاشرة، وقفتْ وطلبت مني مرافقتها، فعرضت عليها أن تمسك بذراعي، من باب المزاح فحسب. نظرتْ إليّ وقالت بنبرة جادة:

"أوه! أنا لا أجرؤ على ذلك!".

مشينا على طول متنزّه "تيـڤولي" ثم وقفنا نستمع إلى ضوضاء الشارع والناس. كان ذلك الرجل البهلواني قد بدأ بتقديم عرضه الجويّ مجدّدًا. أبدت السيدة في البداية قلقها بشأنه، وأمسكتْ بذراعي بإحكام كما لو كانت هي نفسها معرّضة للسقوط، لكنّها بدأت تستمتع بالعرض شيئًا فشيئًا. ثم راحت تقول: ماذا لو انزلق؟ ماذا لو سقط ذلك الدرّاج المسكين وحطّ بركبتيه على قدح البيرة الذي يشربه ذلك الرجل على تلك الطاولة؟ ضحكتْ وهي تتصوّر ذلك المشهد، ثم راحت تبكي.

عندما عدنا أدراجنا، كلٌّ إلى منزله، كنا لا نزال في مزاج عالٍ جدًّا، وهمهمتْ السيّدة تلك الألحان ذاتها. لكنّها توقّفت فجأةً عندما مررنا في شارع مظلم، بجوار منزل له درج حديدي أسود صغير، وأخذت تحدّق بالمنزل بعيونٍ خائفة. توقّفت أنا أيضًا. ثم أشارت إلى الدرجة السفلية وقالت بصوت أجش:

"هكذا كان حجم التابوت الصغير بالضبط".

في هذه اللحظة بالذات سئمت منها حقًّا. هززتُ كتفيّ وقلت لها:

"يا إلهي! ها هي ذا تعيد الكرّة!".

فحدّقت بي مجدّدًا. ثمّ، ببطء شديد، امتلأت عيناها بالدموع. رأيت شفتيها ترتجفان تحت أضواء نوافذ المنزل الأرضية. بعد بضع لحظات، وضعت يدها اليمنى فوق يدها اليسرى وكأنّها في عُزلة موحشة، ثمّ تقدمت خطوة إلى الأمام وقالت:

"يا عزيزي، أيها الشخص اللطيف، كن صبورًا من فضلك!".

فأجبتها: "حسنًا".

وتابعنا المشي. عندما وقفنا على باب منزلها أمسكتْ بيدي بعنفوان وقالت: "ليلة سعيدة".

مرت عدة أسابيع على آخر لقاءٍ بيننا. لم أرَ تلك السيدة الغريبة مذْ ذاك اليوم. شعرت أنّني كنت ساذجًا للغاية، وازدادت قناعتي أكثر فأكثر بأنّها جعلت مني أضحوكة وسلّت نفسها بالعبث بي. حسنًا! فلتذهب إلى الجحيم من الآن فصاعدًا.

ذات مساء، كنت جالسًا في المسرح أشاهد مسرحية "اتّحاد الشباب" The League of Youth. عندما بدأ الفصل الثاني، شعرت فجأة بقلق غريب، وكأنّ هناك قوّة خارجيّة تؤثّر على أعصابي، تمامًا كما حصل معي سابقًا حين كنت واقفًا خارج متنزّه "تيـڤـولي" خلال الحفل الموسيقي لـ"جوقة باريس". فأدرت رأسي بسرعة، وإذ بها جالسة ورائي تحدّق بي بعيونها الحارقة.

أخفضت رأسي وجسدي وتلوّيت في مقعدي، وحاولت أن أصبّ كلّ تركيزي على تمثيل "دانييل هايرا" Daniel Heire. لكن، طوال ذلك المساء، شعرتُ بأنّ عيونها المعدنية التي لا ترمش كانت تحفر ظهري ورأسي من الخلف. نهضتُ وغادرتُ قبل نهاية المسرحية.

***

لاحقًا، سافرت خارج المدينة لبضعة أشهر، وعندما عدت، كنت قد نسيت تلك السيدة تمامًا، ولم أفكر بها مرّة واحدة. اختفت من ذهني كما ظهرت أول مرة.

في إحدى الليالي، حين كان الضباب جاثمًا على المدينة، كنت أمشي ذهابًا وإيابًا بين مطعم الفقراء والصيدلية، وألاحظ كيف يصطدم الناس ببعضهم بعضًا بسبب الضباب. بعد أن مشيت لمدّة ربع ساعة تقريبًا، قلت لنفسي: سأمشي مرة أخيرةً باتجاه الصيدلية، ثم سأعود إلى المنزل. كانت الساعة الحادية عشرة، لذلك مشيت مرة أخرى إلى الصيدلية. هناك، تحت ضوء المصباح في الشارع، رأيت شخصًا يمشي نحوي، فغيّرتُ اتجاهي قليلًا، وإذ بذلك الشخص

الآخر يفعل الشيء ذاته. فقفزت إلى الجانب الآخر، أي إلى اليسار، لئلّا نصطدم ببعضنا بعضًا. ثمّ رأيت عينين تحدّقان في وجهي وسط الضباب.

"إنّها السيدة التي التقيت بها في متنزه "تيڤولي""، همست مذهولًا.

كانت تمشي باتجاهي مباشرة وهي تحدّق بي بجمود تام. لاحظتُ أنّ وجهها مشوّه بشكل مريب، وكانت تحمل فطيرةً بيدٍ واحدة. نظرتْ إليّ قليلًا.

"لقد كان طفلي أنا!" قالت لي بسرعة، ثم استدارت واختفت في الضباب...

محاضرة مهمة

كنت في طريقي لإلقاء محاضرة عن الأدب الحديث في "درامن" Drammen. لم يكن بحوزتي ما يكفي من المال، وبدا لي أنّه يمكنني الحصول على القليل منه بإلقاء المحاضرات، كما اعتقدت أنّ الأمر لن يكون صعبًا للغاية. لذا، في أحد الأيّام من نهاية صيف 1886، ركبت قطارًا متّجهًا نحو تلك المدينة الرائعة.

لم أكن أعرف أحدًا في "درامن"، ولا أحد هناك يعرف من أنا أيضًا، كما أنّني لم أعلن عن محاضرتي في الصحف، على الرغم من أنّني قمت بطباعة 500 بطاقة في وقت سابق من ذلك الصيف، في لحظةٍ شعرت فيها بالنشوة، وكنت أنوي توزيعها في الفنادق والحانات والمتاجر الكبيرة، لكي يعرف الناس ماذا تخبّئه محاضرتي لهم. لكنّي لم أكن راضيًا تمامًا عن البطاقات تلك لأنّها احتوت على خطأ مطبعيّ في تهجئة اسمي. ومع ذلك، كنت مجهولًا كليًّا في "درامن" لدرجة أنّ أحدهم لم ينتبه إلى ذلك الخطأ المطبعي بتاتًا.

عندما جلست في القطار، رحت أفكّر في وضعي الحالي. لم أسمح للوضع السلبي الراهن المحيط بي أن يثبّط عزيمتي. لقد تغلّبت على العديد من الصعاب في حياتي بقليل من المال أو من دونه نهائيًّا، وعلى الرغم من أنّ افتقاري للمال لم يسمح لي بالعيش

على نحوٍ يليق بمقام مهمّتي الجذّابة في هذه المدينة، كنت على يقين بأنّني لن أواجه الكثير من المتاعب إذا تصرّفت بما لديّ من مال كما يجب. لا حاجة للبذخ كالأثرياء! بالنسبة للطعام، فيمكنني دائمًا الذهاب إلى المقاهي في المدينة بعد حلول الظلام وتناول أيّ شيء هناك، وسأنزل في فندق من فنادق المبيت والإفطار bed-and-breakfast المخصّصة لاحتياجات الباعة المتجولين. بصرف النظر عن ذلك، ما هي النفقات الأخرى التي قد تترتّب عليّ؟

جلست في القطار وراجعتُ محاضرتي. كنت أنوي التحدّث عن الروائي "ألكسندر كيلاند" Alexander Kielland. على متن القطار، كانت هناك مجموعة من المزارعين المبتهجين العائدين من رحلة إلى "كريستيانيا" Kristiania، يتناولون الكحول من زجاجة واحدة ويمررونها فيما بينهم، وعرضوا عليّ أن أشاطرهم المشروب، فقلت لهم: "كلّا، شكرًا". في وقتٍ لاحق، تقرّبوا مني أكثر من مرة، كما يفعل جميع السكارى الودودين، لكنّني واصلت تجاهلهم حتّى فهموا أخيرًا من سلوكي والملاحظات التي كنت أدوّنها أنّني رجل مثقّف، وأنّ الكثير من الأشياء المهمّة كانت تشغل ذهني، فتركوني وشأني.

لدى وصولي إلى "درامن"، نزلت من القطار وحملت حقيبتي لأضعها على أحد المقاعد وأستجمع شتات نفسي قبل أن أنطلق إلى المدينة. لم أكن بحاجة لحقيبة السفر هذه على الإطلاق، لكنّي أخذتها معي لأنّني سمعت أنّ الحجز في نُزُلِ المبيت والإفطار والخروج منه يصبح أسهل إذا كان المرء يحمل مثل هذه الحقيبة. لكنّها كانت حقيبةً قماشيّةً صفراء قديمةً رثّةً لا تناسب رجلًا أديبًا

مسافرًا. ولا شكّ في أنّ ثيابي، بما في ذلك السترة الزرقاء الداكنة، كانت تليق بي أكثر بكثير.

توجّه نحوي حمّالُ حقائبٍ من أحد الفنادق، يرتدي قبّعةً عليها بعض الكتابات، وأراد حمل حقيبتي.

رفضتُ عرضه، موضّحًا أنّني لم أقرّر بعدُ في أيّ فندقٍ سأنزل، وأنّني أردتُ أوّلًا مقابلة بعض محرّري الصحف في المدينة، وأنّني أتيت إلى "درامن" لكي ألقي محاضرة عن الأدب.

فكان مفاد ردّه هو أنّني سأحتاج إلى المبيت في فندقٍ ما بغض النظر عمّا قلتُه، أليس كذلك؟ كما أنّ الفندق الذي يعمل فيه هو أفضل فندقٍ على الإطلاق بين الفنادق المجاورة. فهو مزوّدٌ بأجراس كهربائيّة وحمام وغرفة للقراءة. كان قريبًا جدًّا، وما علينا سوى أن نمشي إلى آخر هذا الشارع ونتوجّه إلى اليسار.

أمْسَك بحزام حقيبتي، فأوقفته.

قال لي: "هل تريد حمل الحقيبة إلى الفندق بنفسك؟".

فأجبته قائلًا: "بما أنّ الحقيبة خفيفة، لم لا أحملها بإصبعي ونمشي معًا إلى أن نصل سويًّا إلى هناك؟".

نظر الرجل إليّ مُدركًا أنّني لست سيّدًا ثريًّا، فتوجّه نحو القطار مرّة أخرى بحثًا عن شخص آخر. لكن لم يكن هناك أيّ مسافرين آخرين، لذلك عاد وحاول جذبي مجدّدًا، وأقنعني أخيرًا أنّه في الواقع جاء إلى المحطة لمقابلتي أنا بالتحديد.

تغيّر كلّ شيءٍ هنا. ربّما قامت لجنةٌ من إحدى الجمعيّات - مثل "جمعية العمّال التعليميّة" Workers' Educational Society - بإرسال هذا الرجل عندما علمتْ بوصولي. من الواضح أنّ "درامن" مدينة ثقافية نشيطة يدرك الناس فيها أهميّة المحاضرات الجيدة. في الواقع، بدا لي أنّها تتفوّق إلى حدٍّ ما على العاصمة نفسها، "كريستيانيا"، في هذا الصدد.

قلت للرجل: "بالطبع يمكنك أن تحمل أمتعتي... أوه، بالمناسبة، هل يقدّم الفندق النبيذ مع الوجبات؟".

"النبيذ؟ نعم، لدينا أفضل أنواع النبيذ".

"حسنًا. يمكنك الذهاب الآن. سأعود في وقت لاحق. يجب أن أزور مكاتب الصحف في المدينة".

شعرتُ أنّ هذا الرجل كان يعرف بعض الشيء عن هذه الأمور، فانتهزت الفرصة:

"بأيّ محرّرٍ تنصح؟ لن أتمكّن من زيارتهم جميعا".

""آرنتسن" Arentsen هو الأفضل، ويقصده الجميع".

***

بطبيعة الحال، لم يكن المحرّر "آرنتسن" في مكتبه، لذلك زرته في المنزل. أخبرته عن طبيعة عملي، وأنّني جئت إلى هنا خدمةً للأدب.

"لا نهتّم كثيرًا بمثل هذه الأشياء هنا. جاء إلينا العام الماضي طالب سويدي وتحدّث عن السلام الأبديّ، وقد خسر بعض أمواله لقاء ذلك".

كرّرت ما قلته: "محاضرتي أنا ستكون عن الأدب".

فقال: "نعم، فهمت ذلك. أنا أحذّرك فحسب. من المحتمل أن تتكبّد بعض الخسارات المادّية".

من المحتمل أن أتكبّد بعض الخسارات المادّية؟ يا للعجب! ربّما ظنّ أنّني بائع مسافرٌ لخدمة شركةٍ ما. فقلت له ببساطة:

"ماذا عن قاعة العمال الكبيرة؟ هل يمكنني استئجارها؟".

فأجاب: "كلّا. فقد حجزها غدًا مساءً أحد المناهضين للروحانيّة، ويتضمّن برنامجه بعض القردة والحيوانات المتوحّشة أيضًا. المكان الآخر الوحيد الذي يمكنني اقتراحه هو "بارك باڤيليون" Park Pavilion".

"وهل تنصح به؟".

"إنّه واسع للغاية. أمّا عن التكلفة... حسنًا، لستُ متأكّدًا. لكنّه بالتأكيد لن يكلفك الكثير. سيتعيّن عليك التحدّث إلى اللجنة".

قرّرت اختيار "بارك باڤيليون". بدا لي خيارًا سليمًا، لأنّ قاعات جمعيّة العمال غالبًا ما تكون صغيرة وغير مريحة. لكن من هم أعضاء اللجنة؟

"كارلسن" Carlsen المحامي، وبائع الفراء -الذي لا أذكر اسمه-، وبائع الكتب، وشخص آخر.

توجّهت إلى منزل المحامي "كارلسن" -الذي كان يعيش في الريف- ورحت أمشي وأمشي إلى أن وصلت إلى منزله في نهاية الطريق. أخبرته بسبب قدومي، وأنني أريد استئجار "بارك باڤيليون"، فقد كان المكان المثالي لاحتضان حدثٍ فريدٍ مثل هذه المحاضرة عن الأدب.

فكّر المحامي للحظة، ثم قال إنّه يشك في كلامي.

هل كان المتنزّه حقًّا كبيرًا جدًّا؟ بإمكانه بكلّ تأكيدٍ أن يرى بنفسه كم سيكون من المؤسف أن يُرفض دخول الناس عند الباب لمجرّد عدم وجود مساحة كافية للجميع.

لكنّ ما حصل هو أنّ المحامي راح ينصحني أن أتخلّى عن المشروع برمّته. "لا أحد يهتّم كثيرًا بمواضيع مثل الأدب هنا. في العام الماضي، أتى طالب سويديٌّ...".

"نعم، نعم، لكنّ حديثه كان عن السلام الأبديّ"، قلت مقاطعًا إيّاه.

"أمّا أنا فسأتحدّث عن الأدب؛ الأدب الحقيقي".

تابع قائلًا: "على أيّ حال، لقد أتيتَ في وقتٍ غير مناسب، إذ أنّ مناهضًا للروحانيّة سيقدّم عرضًا في قاعة العمال، ولديه قردةٌ وحيوانات بريّة."

ابتسمتُ في وجهه ابتسامةً مُشفقة. ربّما اعتقدَ أنّ ما قاله سيجعلني أظنّ أنّ النقاش معه ميؤوس منه.

"كم ثمن استئجار "بارك باڤيليون"؟"، قلتُ له باختصار.

فأجابني: "ثمانية كرونات* kroner. كما سأضطر إلى طرح المشروع على اللجنة، لكن أعدك بالرد في غضون يومين. أعتقد شخصيًا أنّه يمكنك استئجار المتنزّه إذا كنت تريد ذلك".

قمتُ بسرعة ببعض الحسابات الذهنية: سيكلّفني الانتظار لمدّة يومين ثلاثة كرونات، واستئجار الجناح ثمانية كرونات، أي 11 كرونة، ويجب ألّا أنسى نفقة بائع التذاكر، أي 12 كرونة. إذا حضر 25 شخصًا وكانت تكلفة الدخول 50 أورة øre، سيغطّي ذلك نفقاتي بالكامل، أمّا المئات غيرهم الذين سيحضرون سيعودون عليّ بربحٍ إضافيّ من دون أدنى شك.

وافقت على الفكرة. سوف أستأجر المتنزّه.

***

عندما عدت إلى الفندق، سألتني الخادمة:

"هل تريد غرفةً في الطابق الأول أم الثاني؟" أجبتها بهدوءٍ وتواضع: "أريد غرفة رخيصة؛ أرخص غرفة لديكم". رمقتني الخادمة بنظراتها من رأسي إلى أسفل قدمي، محاولةً معرفةَ ما إذا كنت سيّدًا ثريًا يتسلّى في استئجار الغرف الرخيصة. ألم أكن أنا الشخص ذاته الذي سأل حمّال الحقائب عمّا إذا كانوا يقدّمون النبيذ مع الوجبات؟ أم أنّني كنت متواضعًا جدًّا وأردت ألّا أُحرج الفندق؟ على أيّ حال، فتحتْ لي باب إحدى الغرف، واستطعتُ التقاط أنفاسي.

* الكرونة هي العملة الرسمية للنرويج، وتقسّم إلى 100 أورة. (المترجم).

قالت الخادمة: "نعم، إنّها شاغرة بكلّ تأكيد. هذه هي غرفتك. لقد وضعت حقيبتك هنا مسبقًا. انظر".

لم يكن أمامي أيّ مهرب، لذلك دخلت إليها. كانت أفضل غرفة في الفندق كلّه.

"أين السرير؟".

"هناك. إنّها أريكة وسريرٌ في الوقت ذاته. فإذا وضعنا سريرًا عاديًّا في غرفة مثل هذه فمن شأنه أن يفسد منظرها. ما عليك سوى أن تحوّلها إلى سرير عندما يحين موعد نومك".

ثمّ غادرت الخادمة.

كان مزاجي معكّرًا. بدت حقيبتي باليةً للغاية مقارنةً بهذه الغرفة، وبعد أن مشيت مطوّلًا في الطرق الريفية أصبح حذائي في حالةٍ يرثى لها. أطلقت شتيمةً بصوتٍ عالٍ.

فجأةً ظهر رأس الخادمة عند الباب:

"هل يمكنني مساعدتك؟".

يا للدهشة. كلّ ما عليّ فعله هو أن أفتح فمي لكي يأتي إليّ حشدٌ من الخدم!.

"كلّا"، أجبتها باختصار. "أريد بعض السندويشات".

نظرت إليّ وقالت:

"ألا ترغب بأيّ مشروبٍ ساخن؟".

"كلّا"

ثم فهمتْ أنّ السبب هو معدتي. كما كنّا في فصل الربيع، الفصل الذي يتسبب لي ببعض المشاكل الجسدية.

عندما حضرتْ حاملةً السندويشات جلبتْ معها قائمةً بأنواع النبيذ أيضًا. لم يدعني وشأني هذا المخلوق المفرط بالاهتمام طوال المساء: "هل ترغب في تدفئة بطانياتك؟؛ الحمام هناك إذا أردت الاستحمام...".

عندما حلّ الصباح، قفزت بتوتّر من السرير وشرعت في ارتداء ملابسي. كنت أشعر ببرد قارس. لم أَنعم بنوم جيّدٍ لأنّ سرير الأريكة اللعين، كما هو الحال دائمًا، كان قصيرًا جدًّا مقارنة بطولي. قمت برنّ الجرس، لكن لم يأتِ أي أحد. لا بدّ أنّني استيقظت في وقت باكرٍ جدًّا، فلم أستطع سماع أيّ صوت من الشارع. عندما صحوت بشكلٍ كامل أدركتُ أنّ ضوء النهار لم يطلع بعد كلّيًا.

رحت أتفحّص الغرفة. لقد كانت أكثر غرفة أنيقةٍ رأيتها في حياتي. رنَنْتُ الجرس مرة أخرى، وانتابني شعورٌ عميق بأنّ شيئًا مشؤومًا سيحدث، ثم انتظرت، واقفًا على السجاد الناعم الذي غطّى كِلا كاحلي. شعرتُ بأنّي سأدفع كلّ فلس أملكه في هذا الفندق، وربّما لن أتمكّن من دفع كامل المبلغ حتّى. سارعتُ مرّةً أخرى في عدِّ أموالي، ثم سمعت خطوات في الخارج، فتوقّفت عن العدّ.

لكنّ أحدًا لم يأتِ. كانت أصوات الخطى من صنع مخيّلتي.

بدأت العدّ مرّة أخرى وقد تملّكني شكٌّ مخيف. أين هي الآن تلك الخادمة التي كانت هنا بالأمس؟ أين هو حرصها على أن تكون في خدمتي رغمًا عن أنفي؟ هل كان المخلوق الكسول لا يزال نائمًا في مكان ما مع أنّ الوقت نهار تقريبًا؟

أخيرًا جاءت. لم تكن قد لبست ثوب عملها بالكامل، مرتديةً شالها فحسب.

"هل رنَنْتَ الجرس؟".

استجمعتُ قواي قدر الإمكان وقلت لها: "هلّا جلبتِ لي الفاتورة؟".

"الفاتورة؟" لن يكون الأمر بتلك السهولة على ما يبدو. فالسيدة لا تزال شبه نائمة، والساعة لم تتجاوز الثالثة صباحًا. حدّقتْ الخادمة في وجهي والحيرة اعتلت محيّاها. كيف لها أن ترمقني بنظرة كهذه؟ هل كان من شأنها أنّني اخترت مغادرة الفندق في الصباح الباكر؟

قلت لها: "ما بيدي حيلة. أريد فاتورتي الآن".

لكنّها غادرت.

طال غيابها كثيرًا، وممّا زاد من حدّة قلقي هو فكرة أن تكون رسوم استئجار الغرفة تُحسب بالساعة، وأنني كنت أهدر المزيد من أموالي وأنا أنتظرها طوال هذا الوقت من غير طائل. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن كيفية عمل الفنادق الفاخرة، وبدا لي أنّ حساب الرسوم بهذه الطريقة أمرٌ مرجّحٌ للغاية. علاوةً على ذلك، كان هناك إشعار على الجدار فوق المغسلة يقول إنّه يجب إخلاء الغرف بحلول

الساعة السادسة مساءً وإلّا سيتمّ فرض رسوم المبيت ليوم آخر. كلّ شيءٍ حولي أغرقني بالقلق وبثّ الارتباك في فكري الأدبيّ الجاد.

أخيرًا، عادت الخادمة وطرقت الباب:

لن أنسى ما حييتُ مزاحِ القدر معي في ذلك الصباح! اثنان كرونة و70 أورة. هذا هو كلّ ما ترتّب عليّ! كان بإمكاني أن أعطي الخادمة بقشيشًا لكي تشتري بعض الدبابيس لشعرها! رميت بضعة الكرونات على الطاولة، ثمّ وضعتُ واحدةً أخرى. "احتفظي بالفكّة، يا صديقتي!".

كان لا بدّ أن أتصرّف بشيءٍ من اللباقة، ناهيك عن حقيقة أنّ الخادمة استحقّت ذلك بجدارة. كانت خادمةً نادرةً ولطيفةً وَضَعَها القَدَرُ في هذا الفندق في "درامن" لكي تلبّي طلبات جميع المسافرين؛ لقد انقرض هذا النوع من النساء كليًّا. ازداد اهتمامها بي بمجرد أنْ شعرت أنّي رجل ثري:

"سأطلب من الحمّال حمل حقيبتك".

"كلّا، كلّا، لا داعي لذلك نهائيًّا!" قلتُ لها وكلّي حرصٍ على توفير العناء عليها. "ليست إلّا حقيبةً قماشيّةً قديمة. يجب أن تكون معي دائمًا عندما أسافر لإلقاء المحاضرات عن الأدب؛ إنّها إحدى عاداتي الغريبة".

لكنّ احتجاجاتي ذهبتْ سدىً، إذ كان الحمّال جاهزًا وينتظرني في الخارج. عندما سرت نحوه حدَّق في حقيبتي كما لو كان مذهولًا منها. يا له من أمرٍ مدهشٍ حقًّا أن ينظر هذا الرجل إلى حقيبتي وكأنّه يتحرّق شوقًا لحملها.

قال لي: "دعني أحملها عنك".

لا شكّ في أنّي كنت بحاجة إلى كلّ فلس بحوزتي الآن، وأنّي لن أحصل على المزيد من المال قبل إلقاء محاضرتي. "شكرًا لك. سأحمل الحقيبة بنفسي".

لكن الحمّال سبقني وأمسك بها. يبدو أنّ هذا الشخص اللطيف لم يجد أيّ مشكلة في حملها على الإطلاق، وأنّ الأجْرَ كان آخر شيء يدور في ذهنه. حمل الحقيبة ببراءةٍ واضحة كما لو كان مستعدًّا للموت من أجل صاحبها.

"انتظر!" ناديت عليه وتوقّفت. "إلى أين أنتَ ذاهبٌ بهذه الحقيبة؟".

ابتسم الحمّال ثمّ أجابني: "أنت من سيقرّر ذلك".

قلت له: "أصبت. أنا من سيقرّر ذلك وليس أنت".

كنّا قد مررنا منذ قليلٍ بفندقٍ مبيتٍ وإفطار بجانب مقهىً في أحد الطوابق السفلية، فقلت له إنّني أرغب بالاستفسار عن رسوم المبيت هناك. أردت التخلّص من الحمّال في أسرع وقت ممكن، حتّى أتمكن من التسلّل إلى القبو من دون علمه.

أعطيته 50 أورة، لكنّه أبقى يده مبسوطةً أمامي.

ثم قال لي: "لقد حملت الحقيبة لك بالأمس أيضًا".

قلت له: "وها أنا أعطيك بقشيشًا مقابل ذلك بالتحديد".

فقال: "لكنّي حملتها اليوم أيضًا". شعرت وكأنّني أتعرَض للسرقة في وضح النهار.

أجبته: "حسنًا، وهذه مقابل أتعابك لهذا اليوم"، واضعًا 50 أورة أخرى في راحة يده. "والآن، من فضلك، اغرب عن وجهي".

ذهب حمّال الحقائب. لكنّه نظر إلى الوراء عدّة مرات وظلّ يراقبني.

شققت طريقي إلى أحد المقاعد وجلست. كان الجوّ باردًا، لكن ارتفعت درجة الحرارة بمجرّد شروق الشمس، ثمّ غلب عليّ النعاس، وأعتقد أنّني نمت لفترة طويلة جدًا، لأنني عندما استيقظت كان الشارع مليئًا بالناس وراح الدخان يتصاعد من المداخن. عدت إلى النُزل في الطابق السفلي واتّفقت مع صاحبته على المبيت والإفطار مقابل 50 أورة في الليلة.

***

بعد انتظارٍ دامَ يومين، ذهبتُ مرّة أخرى إلى منزل المحامي "كارلسن" في الريف.

مرّةً أخرى، نصحني بإلغاء المحاضرة، لكنّني كنت عازمًا على إلقائها مهما قال لي. في غضون ذلك، كنت قد دفعت بعض المال مقابل إدراج إعلان في صحيفة "آرنتسن"، فيه تاريخ ومكان وموضوع محاضرتي.

ثمّ عندما أردت تسديد رسوم استئجار المتنزّه، الأمر الذي كان من شأنه أن يجرّدني من جميع أموالي لفترة وجيزة، قال لي "كارلسن"، وهو رجل رائع:

"لا حاجة للدفع إلّا بعد المحاضرة".

لكنّي أسأت فهمه وشعرت بالإهانة.

"هل تعتقد أنّني لا أملك ثمانية كرونات؟".

"يا إلهي، كلّا! ما قصدتُه أنّه لا يمكننا أن نجزم قطعًا أنّك ستستخدم المتنزّه بالفعل، وإذا حدث ذلك، فأنا واثقٌ من أنّك لن تضطر لأن تدفع أيّ شيء".

قلت له: "لقد أعلنت عن المحاضرة وانتهى الأمر".

أومأ برأسه ثمّ أجاب: "أعلم ذلك".

بعد ذلك بوقت قصير قال:

"إذا حضر أقلّ من خمسينَ شخصًا، هل ستَعْدِلُ عن إلقاء المحاضرة؟".

شعرت بالإهانة من سؤاله هذا، لكن بعد أن فكّرت به قليلًا قلت له إنّ حضور خمسين شخصًا فقط لا يليق بالتطلّعات طبعًا، إلّا أنّني لن أعدل عن قراري.

"وماذا إذا حضر عشرة فقط؟".

انفجرتُ ضاحكًا.

"اعذرني، لكنّ ما قلته أمرٌ لا يحتمل".

لم نتحدّث عن الأمر بعد ذلك، ولم أدفع الرسوم. ثم خضنا في بعض الأحاديث عن الأدب. ازداد احترامي له، فمن الواضح أنّه رجلٌ مثيرٌ للاهتمام، على الرغم من أنّ وجهات نظري وآرائي تفوق آراءه بأشواط.

عندما افترقنا، تمنّى لي "كارلسن" أن يُقْبِل الكثير من الناس إلى محاضرتي.

عدت إلى المبيت في حالة معنوية ممتازة. أصبحت أرض المعركة جاهزةً: كنت قد أعطيت اليوم 50 أورة لبائع التذاكر من أجل أن يجوب الشوارع ويوزع خمسمائة بطاقة دعوة لمحاضرتي، وأصبحتْ المدينة بأكملها على علم بالحدث.

تحسّن مزاجي بشكلٍ غريب، وبينما فكّرت في المهمّة التي كنت مُقدمًا عليها، شعرت بالانزعاج بسبب غرفتي الصغيرة في هذا المبيت، وبسبب سكّانه التافهين أيضًا. أراد الجميع أن يعرف من أنا ولماذا نزلت هنا. فقالت لهم صاحبة المبيت، تلك المرأة التي تقف خلف منضدة الاستقبال، أنّني رجلٌ مثقّفٌ قضى يومه كلّه في الكتابة والدراسة وأنّ على الناس ألّا يزعجوني بطرح الأسئلة. كان وجودها لا يقدّر بثمن بالنسبة لي. الأشخاص الذين ارتادوا مقهى المبيت هم من الرجال العاملين الجائعين، وحمّالي الحقائب الذين يجوبون الشوارع مرتدين القمصان بلا سُتَر. كانوا يدخلون المقهى لشرب فنجان من القهوة الساخنة أو تناول قطعة من السجق الأسود مع الزبدة والجبن. في بعض الأحيان، كانوا يسيئون التصرف ويضايقون صاحبة المبيت إذا لم تكن حلوى "الوافل" طازجة أو كان البيض صغيرًا جدًّا. عندما علموا أنّني سألقي محاضرةً في "بارك باڤيليون" بعينه، أرادوا معرفة قيمة التذاكر. قال بعضهم إنهم مهتمّون بالحضور، إلّا أنّ مبلغ 50 أورة مبالغٌ فيه، ثمّ راحوا يجادلونني في سعر التذكرة. لكنّني قطعت وعدًا على نفسي ألّا أدع أمثال هؤلاء الناس يزعجونني. لقد كانوا قليلي التهذيب إلى أبعد الحدود.

في الغرفة المجاورة لغرفتي، مكث رجلٌ يتحدّث بلهجةٍ كريهةٍ مَزَجت بين السويدية والنرويجية. أطلقت عليه صاحبة المبيت اسم "المُخْرِج". دائمًا ما يحدث الجلبةَ حين يدخل إلى غرفة الطعام، لا سيما لأنّه ينفض الغبار عن كرسيه بمنديله قبل الجلوس. كان رجلًا شديد التأنّق ويتصرّف كالأثرياء. لاحظتُ أنّه كلّما طلب شطيرة كان دائمًا يُشدِّدُ على أن تُقدَّمَ له "بالخبز الطازج مع أفضل أصناف الزبدة".

سألني المخرج: "أنت هو الذي سيلقي المحاضرة؟".

"نعم، هو بعينه"، أجابته صاحبة المبيت.

"تلك مجازفةٌ كبيرة"، قال الرجل مخاطبًا إيّاي من دون أن ينظر إليها. "فأنت لم تعلن عن محاضرتك كما يجب. ألم ترَ كيف أعلن أنا عن عروضي؟".

هنا اتّضح لي أنّني كنت أتحدّث مع المناهض للروحانيّة، ذلك الرجل الذي أحضر معه القردة والحيوانات البريّة.

تابع قائلًا: "ملصقات إعلاناتي هائلة الحجم. لا بدّ أنّك رأيتها، فأنا أضعها في كلّ مكان، كلّما سنحت لي الفرصة، وأجعل الكتابة عليها كبيرة جدًّا. كما أنّ عليها رسومات للحيوانات البريّة أيضًا".

نوّهتُ إلى أنّ موضوع محاضرتي هو الأدب والفن والمسائل الفكرية الحقيقيّة.

"لا فرق بين عرضي ومحاضرتك قطّ!"، قال ساخرًا. ثمّ ازداد وقاحةً عندما قال إنّ الأمر قد يختلف قليلًا إذا عملت لديه. "أحتاج إلى من يستطيع تقديم الحيوانات للجمهور، وأفضّل أن يكون شخصًا غريبًا لا يعرفه الناس هنا. فإذا صعد إلى خشبة المسرح

شخص يعرفونه، سيصرخ جميع من في الحضور قائلين: "انظروا، انظروا، إنّه "بيترسن" Petterson. وهل يعرف "بيترسن" أيّ شيءٍ عن الحيوانات البرية؟".

أشحت بوجهي عنه بصمت لكي يشعر باحتقاري له. لا يمكن أن أردّ على كلامه الوقح أبدًا.

لكنّه تابع: "سأدفع لك خمسة كرونات في الليلة الواحدة. فكّر في الأمر".

نهضت من مكاني وغادرت الغرفة. لم يكن لديّ أيّ خيارٍ آخر. من الواضح أنّ "المخرج" كان خائفًا من منافستي، قلقًا من أن أخطف الأضواء بمحاضرتي. كان يتطلّع إلى عقد صفقة معي، لكي يصرفني بعيدًا بالمال. محالٌ أن أقبل بذلك! لن أسمح للإغراءات الماديّة أن تدفعني لخيانة عالم الإبداع، فأنا أمثّل القيم المثالية.

***

في الساعة السابعة مساءً، قمت بتنظيف ملابسي بعناية ثم توجّهت إلى "بارك باڤيليون". كنت قد درستُ محاضرتي جيّدًا وكان رأسي يعجّ بالعبارات الرفيعة والأنيقة الرنّانة التي سأستخدمها. قال حدسي بأنّ المحاضرة ستسير بشكل جيّد، وتخيّلتُ أنّ أخبار النجاح الذي سأحقّقه سوف تملأ الدنيا وسوف يتناقلها الناس عبر التلغراف.

كان الجو ماطرًا. تمنيّتُ لو أنّ الطقس وقف إلى جانبي في ذلك المساء، لكنّ الجمهور المتعطش للأدب لن يسمح لبضع قطراتٍ من المطر أن تمنعه من الحضور. كانت الشوارع مليئة بالناس، ورأيتُ

الأزواج يسيرون تحت المظلّات متشابكي الأذرع. لكن ما أدهشني هو أنّهم كانوا يمشون في الاتجاه المعاكس لي، أي ليس في اتجاه "بارك باڤيليون". إلى أين كانوا ذاهبين يا ترى؟ لا بدّ أن هؤلاء كانوا من العوام في طريقهم لرؤية القردة في قاعة العمال.

وقف بائع التذاكر في مكانه.

سألته: "هل حضر أيّ أحدٍ حتى الآن؟".

فأجابني: "كلّا، لكنْ لا يزال أمامنا نصف ساعة من الوقت".

ذهبت إلى الداخل وتمشّيت في أرجاء القاعة الضخمة، فتردّد صدى خطواتي كما لو كانت حوافرَ حصانٍ يعدو. آه، يا إلهي، كم أتمنّى لو كانت المقاعد في المدرّج ممتلئةً بالكامل، صفًّا تلو الصفّ، نساءً ورجال يزاحمون بعضهم بعضًا بانتظار قدوم المتحدّث! لكن ما من أحدٍ هنا!

انتظرت نصف الساعة المتبقّية، وشعرت أنّها كانت فترة طويلة. لم يأتِ أحد. مشيت إلى الخارج وسألت بائع التذاكر عن رأيه فيما حصل. فكان في ردِّه شيءٌ من التفاؤل الحذر. قال إنّ هذا الطقس لا يناسب حضور المحاضرات، إذ أنّ الناس لا يحبّذون الخروج عندما تمطر السماء بغزارة؛ لكن، على أيّ حال، من المحتمل أن يأتوا جميعًا في اللحظة الأخيرة.

وانتظرنا.

جاء أخيرًا رجلٌ يمشي بسرعة تحت المطر المنهمر. دفع 50 أورة ودخل إلى القاعة.

"ها قد بدأوا بالقدوم"، قال بائع التذاكر، وأومأ برأسه.

"هذه هي عادة الناس في "درامن". يأتون دائمًا في اللحظة الأخيرة. يا لها من عادةٍ سيئة".

وانتظرنا. لكن لم يأت أيّ أحد آخر. ثمّ انضم إلينا المشاهد الوحيد الذي جاء إلى المحاضرة وقال: "يا له من طقس فظيع".

ثمّ أتى المحامي "كارلسن" وقال لي: "لا أعتقد أنّ أحدًا سيحضر محاضرتك هذا المساء. انظر إلى غزارة المطر!" ثم لاحظ الإحباط على وجهي، وأضاف: مكتبة سُر مَن قرأ

"عرفتُ أنّ حال الطقس سيكون هكذا عندما نظرتُ إلى البارومتر ورأيت أنّ مستوى الزئبق قد انخفض بسرعة كبيرة. لهذا السبب نصحتك بعدم إلقاء محاضرتك".

لكنّ بائع التذاكر ظلّ يساندني وقال:

"يجب أن ننتظر نصف ساعة أخرى. لا بدّ أن يحضروا في اللحظة الأخيرة، بعد 20 أو 30 دقيقة".

"لا أعتقد ذلك"، قال المحامي وهو يزرّر معطفه. وأضاف: "بطبيعة الحال، لن يترتّب عليك دفع أي شيء مقابل استئجار القاعة".

رفع قبّعته مودّعًا إيانا وذهب في طريقه.

انتظرت أنا وبائع التذاكر نصف ساعة أخرى، وناقشنا الوضع خلال هذه الفترة. لقد كان الأمر محرجًا وشعرت بالإذلال التام.

كما أنّ المحامي ذهب في طريقه ولم يطلب مني أن أعيد له أمواله. كنت أريد لحاقه، لكن بائع التذاكر نصحني ألّا أقوم بذلك.

قال لي: "سأحتفظ بها أنا. وهكذا تكون مدينًا لي بـ 50 أورة فقط". لكنّني أعطيته كرونة أخرى، لأنّه لَزِمَ مكانه، كما أردت أن أظهر تقديري له، فشكرني بحرارة. تصافحنا ثم افترقنا.

مشيت نحو المنزل هائمًا على وجهي، مهزومًا مدحورًا، غارقًا في الخجل وخيبة الأمل. سرتُ تائهَ الفكر في الشوارع لا أعرف إلى أين تأخذني قدماي، واشتدّت محنتي عندما أدركتُ أنّه لم يعد بحوزتي ما يكفي من المال للعودة إلى "كريستيانيا" بالقطار.

واستمرّ المطر في الهطول.

مررتُ بجانب مبنىً كبير، ورأيت من بعيد أضواءً صادرة من شبّاك التذاكر في مدخل المبنى. إنّها قاعة العمال. كان بعض الواصلين المتأخّرين لا يزالون يحضرون ويشترون تذاكرهم، ثمّ يمشون إلى الداخل من خلال الأبواب الكبيرة. سألت بائع التذاكر عن عدد الحضور، فقال لي إنّ المقاعد الشاغرة شارفت على الامتلاء.

إنّه "المخرج" اللعين. لقد هزمني ببراعة واضحة.

عدت إلى المبيت وتسلّلت إلى غرفتي. لم يكن لديّ ما آكله أو أشربه، فخلدت بهدوء إلى الفراش.

في منتصف الليل، طرقَ أحدهم باب غرفتي، ثم دخل رجلٌ يحمل بيده شمعة. كان "المخرج".

سألني: "كيف جرت المحاضرة؟".

لو كانت الظروف مختلفةً لطردته على الفور. لكنّي كنت محطّمًا جدًّا، غير مستعدٍ لأيّ مواجهة مباشرة معه، فقلت له أنّني ألغيت المحاضرة فحسب.

فابتسم في وجهي.

"لم يكن الطقس مناسبًا لإلقاء محاضرة جادّةٍ عن الأدب"، أوضحت له. لا بدّ أنّه رأى ذلك بنفسه.

كان لا يزال مبتسمًا.

فقلت له: "لقد انخفض مستوى الزئبق في البارومتر دون سابق إنذار".

فأجابني قائلًا: "لقد امتلأت جميع المقاعد في قاعة العمال، فاضطرّ ما تبقى من الحضور إلى الوقوف". ثم توقّف عن الابتسام واعتذر عن إزعاجي، وشرح لي سبب زيارته لي.

كان سببًا غريبًا للغاية: لقد جاء لكي يعرض عليّ مرة أخرى أن أعمل لديه كمقدّمٍ لحيواناته.

لم أشعر بالإهانة هكذا من قبل، فطلبت منه، بحزمٍ شديد، أن يدعني وشأني في سلام.

لكنّه بدلًا من ذلك جلس على سريري، والشمعة لا تزال في يده.

ثمّ قال: "دعنا نناقش الأمر على الأقل"، وأوضح أنّ الجمهور قد تعرّف بالفعل على الرجل المحليّ الذي وظّفه لكي يقدّم الحيوانات. بالنسبة للمخرج، لقد لقي قبولًا حسنًا جدًّا إزاء كشفه لخداع الروحانيّين. لكنّ جهده ذهب سدىً بسبب المتحدّث، ذلك الرجل المحليّ من "درامن".

"انظروا، إنه "بيورن بيدرسن" Bjørn Pedersen"، صرخ الحضور. "من أين لك بهذا الغُرير، يا "بيورن"؟" فقال "بيورن بيدرسن"، ملتزمًا بالنص، أنّ ذلك لم يكن حيوان الغُرير على الإطلاق، بل ضبعًا من الأدغال الأفريقية التهم ثلاثة مُبشِّرين في السابق. فأطلق الناس صيحات الاستهجان والسخرية لأنّهم اعتقدوا أنّه يحاول خداعهم. "لم أفهم ما جرى"، قال لي المخرج. "فقد طليت وجهه باللون الأسود ووضعت على رأسه باروكة شعر مستعار، لكنّهم عرفوا هويّته".

كلّ كلامه هذا لم يكن من شأني، فأدرت ظهري له لِأصبح مواجهًا الحائط.

"فكّر في الأمر!" قال المخرج قبل مغادرته. "قد أرفع أجرك إلى ستة كرونات في الليلة إذا أبليت بلاءً حسنًا".

لا يمكن أن أكون طرفًا في مثل هذا العمل المبتذل! فأنا رجلٌ نزيه، وأضع كرامتي قبل كلّ شيء.

***

في اليوم التالي، دنا منّي المخرج وطلب أن ألقي نظرةً على خطابه حول الحيوانات البرية، وأن أصوّب الأخطاء القواعدية وأصقل اللغة فيه. عرض عليّ 2 كرونة مقابل ذلك.

قبلت طلبه، على الرغم من كلّ شيء. كانت هذه خدمةٌ سأقدّمها لهذا الرجل. وحين فكّرت في الأمر، كانت خدمةً لقضيّة الأدب، إضافةً إلى أنّني كنت بحاجة إلى المال الذي عرضه عليّ. لكن قبل

أن أبدأ، حذّرته بلهجة شديدة من التحدّث عن مساعدتي له لأيّ شخص.

قضيت اليوم بأكمله في إعادة صياغة الخطاب من البداية إلى النهاية وبَثِّ الحياة والفكاهة في عباراته الوصفية وتزيينه بالتشبيهات. أحببت هذه المهمة شيئًا فشيئًا. لقد كان عملًا فنيًا في حدِّ ذاته أن يتمكّن المرء من الحديث بشكل موسّع عن عددٍ قليل من الحيوانات البائسة. لاحقًا في ذلك المساء، عندما قرأته على مسمع المخرجِ، قال إنّه لم يسمع خطابًا مثله في حياته. لقد ترك انطباعًا ملحوظًا عليه، وتقديرًا لجهودي دفع لي ثلاثة كرونات بدلًا من اثنتين.

لقد أثّر بي هذا وشجعني أيضًا، وأعاد إليّ إيماني بمهمتي الأدبية.

"أتمنّى لو كنت أعرف شخصًا مؤهّلًا بما يكفي لإلقاء مثل هذه المحاضرة"، تنهّد المخرج. "ولكن كيف لي أن أعثر على رجلٍ بهذه المواصفات في "درامن""؟".

بدأت أفكّر في الأمر. ستكون كارثةً حقيقيةً إذا وقع هذا الخطاب المميّز في أيدي أشخاصٍ مثل بيورن بيدرسن أو غيره، فقد يشوهّونه بإلقائهم البغيض. لم أتحمّل تصوّر هذه الفكرة مطلقًا.

"يمكن أن أقبل بإلقاء هذه المحاضرة، لكنّ الأمر يتوقّف على شروطٍ معيّنة".

انتصب المخرج في كرسيّه وقال لي: "ما هي الشروط؟ سأدفع لك سبعة كرونات".

"حسنًا. لكنّ شرطي الرئيسيّ هو أنّ هويّة المتحدّث يجب أن تبقى سرًّا بيني وبينك".

"أعدك بذلك".

قلت له: "لا شكّ في أنّك تدرك أنّه لا يمكن أن يعلم عامّة الناس أنّ رجلًا مثلي قد كرّس حياته لخدمة الأدب صار يتحدّث عن الحيوانات البريّة".

بكلّ تأكيد، كان يدرك ذلك.

"وبالطبع، لو لم يكن الخطاب بأكمله، من البداية إلى النهاية، من صنعي لما فكّرتُ حتّى في إلقائه".

نعم، لقد فهم هذا الأمر أيضًا.

"أنا مستعد لمساعدتك إذن". تشكّرني المخرج.

في السابعة مساءً، ذهبنا معًا إلى قاعة العمال لكي يُريني الحيوانات، ويعطيني بعض التعليمات الأساسية حول كيفية التعامل معها.

كان هناك قردان وسلحفاة ودب وذئبان صغيران وغُريرٌ واحد.

لم يشتمل خطابي على أيّ شيء عن الذئاب والغُرير، لكنّي تحدّثت فيه بإسهابٍ عن نوعٍ معيّن من ضباع الأدغال الأفريقية، ودَلَقُ الصنوبر النادر، والسمّور -يَرِدُ كلاهما في خطابي "وفقًا للكتاب المقدس"- والدبّ الأشْيَب الأمريكي الضخم. كما ألّفتُ نكتة ممتازة عن السلحفاة: إنّها سيدة محترمة لا تأكل سوى حساء السلاحف.

سألته: "أين السمّور والدَلَق؟".

"هنا!" صاح المخرج، مشيرًا إلى أشبال الذئب.

"والضبع؟".

أشار بكلّ حزمٍ إلى الغُرير: "ها هو الضبع"، شعرت بالغضب وقلتُ له:

"هذا مرفوضٌ تمامًا. هذه ادّعاءات كاذبة. لا بدّ أن أؤمن بحقيقة ما أقوله، من كلّ قلبي وجوارحي".

"لا داعي لأن نختلف بشأن هذه الأمور السطحيّة"، قال لي المخرج. ثمّ أخرج زجاجةً من "البراندي" وقدّم لي كأسًا من هذا المشروب. أردت أن أُريه أنّني لا أكنّ ضغينةً له، وأنّ ما أعترض عليه هو أساليبه القذرة. لذا أخذت الكأس منه وشربنا معًا.

ثمّ قال: "أرجوك، لا تخبر أحدًا بحقيقة الأمر. خطابك رائع جدًّا. ولا أعتقد أنّ هذه الحيوانات سيّئةٌ بتاتًا. انظر إلى هذا الدبّ الكبير. ما عليك سوى أن تلقي الخطاب، وكلّ شيء سيكون على ما يرام".

بدأ المتفرّجون يتدفّقون إلى القاعة، ممّا زاد من قلق المخرج أكثر فأكثر. كان مصيره معلّقًا بي، لذا كان حريًّا بي أن أستخدم سلطتي هذه بحذر شديد. علاوةً على ذلك، أدركت أنّه من المستحيل إجراء التعديلات اللازمة على خطابي خلال الوقت القصير المتبقّي قبل بداية العرض، كما لا يمكن لأحدٍ أن يتحدّث عن الغرير بإسهاب وشرحٍ مطوّل كما لو كان يتحدّث عن الضبع الشرس. كان من الواضح أنّ أيّ تعديلات قد أجريها ستؤدّي إلى إضعاف الخطاب إلى درجة لا يمكن تبريرها، وأخبرت المخرج بهذا.

تفهّم الأمر تمامًا، وصبّ لي المزيد من المشروب.

بدأ العرض أمام قاعة مكتظّةٍ بالكامل، ونجح المخرج المناهض للروحانيّة بإذهال الجميع بحيله. سحب مجموعةً من المناديل من أنفه، وأخرج ورقة "السباتي" من جيب امرأة عجوز تجلس في الجزء الخلفي من القاعة، وحرّك طاولةً من أن دون يلمسها. ثمّ، في حيلته الأخيرة، أخفى نفسه من خلال باب سرّي على خشبة المسرح. جنّ جنون الجمهور وراح يصفّق تصفيقًا مدوّيًا. والآن، جاء دور الحيوانات البريّة. أحضرها المخرج على دفعات، وكانت مهمّتي هي وصف كلّ واحدٍ منها على حدة.

أدركتُ على الفور أنّ أدائي لن يرقى إلى نجاح المخرج بتاتًا. لكنّني كنت آمل أن يُقدّر بعض المتفرّجين الأكثر فطنةً قيمة خطابي، وكنتُ محقًّا في ذلك.

بعد أن انتهيت من الحديث عن السلحفاة، لم يتبقّ أمامي سوى وصف الحيوانات التي تعيش على اليابسة، وقمت بربطها جميعها بقصّة نوح الذي احتفظ بزوجين من كلّ نوع من الحيوانات التي لا تستطيع العيش في الماء. لكنّ مدّة العرض استغرقت أكثر من اللازم، وبدا أنّ الجمهور لم يعد في مزاج جيّدٍ. لم يلقَ الدلق والسمّور التقدير الذي يستحقّانه، ولا حتّى عندما ذكرتُ كمّ الفراء الباهظ المُنتزع من ظهور هذه الحيوانات الذي ارتدته ملكة سبأ عندما زارت الملك سليمان. ثم بدأت الأمور تتحسّن تدريجيًا. استوحيتُ الإلهامَ من كأسيْ الـ "البراندي" اللذين شربتهما والمحتوى ذي الطابع الإنجيلي لنصّي، فدبّت الحياة في خطابي وأصبح غنيًّا وعاطفيًّا. رميت النص

جانبًا، ورحت أرتجل. عندما انتهيت، صفق جميع من في الحضور، حتّى أنّ بعضهم صاح قائلًا: "برافو!".

"توجد زجاجة "براندي" خلف الستار!" همس لي المخرج.

أخذت خطوةً إلى الخلف وبحثت عن الكأس؛ كانت بجانب الزجاجة. ثمّ جلست على الكرسي للحظة.

في هذه الأثناء، أحضر المخرج حيوانًا آخرَ إلى خشبة المسرح وكان ينتظرني. شربت كأسًا آخر من "البراندي" وبقيت جالسًا. من الواضح أنّ المخرج لم يتحمّل انتظاري كثيرًا، فقد بدأ بعرضٍ تقديميّ مستخدمًا لغته المريعة، وما أثار رعبي هو أنّه كان يتحدّث عن الضّبع، حتى أنّه أطلق عليه اسم الغُرير في زلّة لسانٍ واضحة. نهضتُ وكلّي استياءٌ منه، واعتليتُ المنصّة. طلبت من المخرج أن يتنحّى جانبًا، وتولّيتُ زمام الأمور. كانت ذروة العرض بأكملها تتمثّل في الضبع، لذا توجّب عليّ أن أتفوّق على نفسي لكي أتمكّن من إنقاذ من ما يمكن إنقاذه. سخرتُ من المخرج، وقلت إنّه لم يرَ ضبعًا في حياته كلّها، ثمّ أسهبتُ في الحديث عن الحياة الماجنة التي يعيشها هذا الحيوان المتوحش. لقد أثّر "البراندي" كثيرًا عليّ، فازداد حماسي بشكل مذهل. سمعت الشغف والحرارة تتدفّق من كلماتي بينما كان الضبع يقف عند قدمي المخرج ويرمش بصبر بعينيه الصغيرتين. "أمسكه بإحكام!"، قلت له بصوت عالٍ. "إنه يستعد للانقضاض على أمعائي! لقّم مسدسك، فقد يفلت من قبضتك!".

لا بد أنّني أخفت المخرج، فقد ضمّ الحيوان إليه بسرعة، لِينقطع الرسن، وينسلّ الوحش من بين ساقيه. تعالى صراخ النساء والأطفال في المقدمة ونهض نصف الحاضرين من مقاعدهم. للحظةٍ كان التوتر لا يُحتمل. هرب الحيوان منّا آخذًا خطواتٍ صغيرة متعثّرة، ركض عبر المسرح وعاد إلى قفصه الصغير، ثمّ أغلق المخرج باب القفص بعنف.

تنفسّنا جميعًا الصعداء، واختتمت العرض. قلت للجمهور إن الحظّ حالفنا هذه المرة، وإنّنا سنقوم بعد العرض، في هذا المساء بالذات، بشراء سلسلة حديدية ثقيلة لكي نسيطر فيها على هذا الوحش. انحنيت أمامهم ثمّ عدت للوراء.

كان صوت تصفيقهم الحارّ مثل صوت الرعد. صاح بعضهم مُثنيًا على المتحدّث، فاعتليتُ المنصّة مرّة أخرى وانحنيت مجدّدًا. حقيقةً، كان أدائي جيّدًا جدًّا، حيث استمرّ الحضور في التصفيق حتى وهم يخرجون من الباب، لكنّ بعضهم كان يقهقه.

شعر المخرج بالسعادة وشكرني بحرارة على دعمي له، وأكّد لي أنّه يتطلع إلى تقديم عروضٍ أخرى أمام الحشود من الجماهير.

كان هناك رجل ينتظرني في الخارج عندما غادرت القاعة. إنّه بائع التذاكر الذي وظّفته سابقًا في "بارك باڤيليون". لقد سمع كلّ شيء وكان متحمّسًا جدًّا وأثنى بشدّة على مهاراتي كمتحدّث عام. لكنّي لن أتخلّى تحت أيّ ظرفٍ عن فكرة إلقاء المحاضرة في "بارك باڤيليون". لقد حان وقت الإعلان عنها، بما أنّ الناس قد سمعوني وعرفوا حجم قدراتي. إذا تحدّثت عن الضبع مجدّدًا، على سبيل

المثال، فقد يلقى ذلك استحسانًا كبيرًا، خاصّةً إذا أحضرت ذلك الحيوان معي.

***

لكن في اليوم التالي رفض ذلك المخرج الوغد أنْ يدفع لي ما لم أقدّم له تعهّدًا كتابيًّا بالمشاركة في برنامجه في المساء التالي، وإذا رفضتُ ذلك فلا مانع لديه أن ألجأ إلى القضاء لكي آخذ حقّي منه. يا له من غشّاشٍ نذل! توصّلنا في النهاية إلى تسويةٍ يدفع لي بموجبها خمسة كرونات، وبذلك أكون قد حصلت على ثمانية كرونات منه بما أنّه أعطاني ثلاثة كرونات سابقًا، وهو مبلغ يكفي لكي أتمكّن من العودة إلى "كريستيانيا". أصرّ على الاحتفاظ بالخطاب الذي كتبته، مع أنّني احتججت طويلًا على هذا الطلب، مدركًا حجم الإساءة التي سيتعرّض لها نصّي على يده. من ناحية أخرى، كان النصّ مُلكًا له بلا شك، فقد دفع ثمنه. لذلك استسلمت في النهاية؛ كان تقديره للنصّ يفوق الوصف.

قال لي: "لم أسمع خطابًا مثله في حياتي. ما زلتُ أتذكّر الأمس: لقد استحوذَ عليّ بشكل كامل، متفوّقًا بذلك على أيّ خطاب سمعته في السابق".

فأجبته: "كنتُ محقًّا إذن. هذه هي القوّة التي يَستثيرُ بها الأدبُ عقول الناس".

كان ذلك آخر لقاءٍ بيننا. عندما حلّ المساء، ركبت القطار وعدت إلى "كريستيانيا".

قصّة شبح

عندما كنت طفلًا، قضيت عدّة سنوات بصحبة عمّي في منزل القساوسة في "نوردلاند" Nordland. أذكر أنّه كان وقتًا عصيبًا بالنسبة لي، فقد كَثر فيه العمل، وتعرّضت فيه للضرب على الدوام. نادرًا ما استطعت أن ألعب أو أرفّه عن نفسي. كان عمّي رجلًا صارمًا جدًّا لدرجة أنّ المتعة الوحيدة التي صرت أحظى بها في نهاية المطاف هي أن أبتعد عنه خلسةً لكي أجلس بمفردي في مكان ما. في بعض المناسبات النادرة التي كنت حرًّا فيها من الواجبات والالتزامات، اعتدت الذهاب إلى الغابة أو المقبرة لِأتجوّل بين الصلبان وشواهد القبور، وأحلم وأتأمّل وأفكّر، وأتحدّث بصوت عالٍ مع نفسي.

كان موقع منزل القساوسة جميلًا جدًّا، مطلًّا على ضفاف نهر "غليما" Glimma الذي يشتهر بالمدّ والجزر، وهو نهر صخريٌّ واسع يهدر بعنفٍ ليلًا ونهارًا، على مدار الساعة. أحيانًا كان يجري جنوبًا، وأحيانًا أخرى كان يجري شمالًا، وفقًا لارتفاع المدّ أو انحساره؛ في جميع أحواله، كانت مياهه تغنّي أغنيتها الجامحة الدافقة بلا توقّف، وجرى دائمًا بالسرعة المُلحَّةِ ذاتها في الشتاء والصيف.

كانت الكنيسة والمقبرة تقعان على إحدى التلال. بالنسبة للكنيسة، كانت قديمة صليبيّة الشكل، مصنوعة من الخشب، أمّا المقبرة، فقد افتقرت إلى الأشجار، ولم يكن هناك أيّ أزهار على القبور فيها. لكنّ التوت الأحمر كان ينمو عند الجدار الحجري: حبّات توت كبيرة ناضرة امتصّت العفن المغذي من رفات الموتى. كنت أعرف كلّ قبر ونقشٍ في المقبرة، ورأيت كيف كانت الصلبان المنتصبة تميل إلى هذا الجانب أو ذلك مع مرور الوقت، لِتنهار أخيرًا في الليالي العاصفة.

صحيحٌ أنّه لم يكن هناك أيّ أزهار أو ورودٍ على القبور، لكنّ فصل الصيف دائمًا ما حمل معه العشب الكثيف الذي كان يغطّي المقبرة بأكملها، عشب طويلٌ وخشن جدًّا. أذكر أنّني جلستُ في كثير من الأحيان لأستمع إلى تنهّدات الريح وهي تلفح ذلك العشب الصلب الذي كان يصل إلى منتصف جسدي؛ كنت أسمع صوت دوّارة الرياح على برج الكنيسة يتخلّل تلك الأجواء، حيث انتشر صرير معدنها الصدئ في جميع أنحاء الأبرشيّة، وكأنّ قطعة الحديد تلك كانت تزمجر في وجه قطعة حديديّةٍ أخرى.

من حينٍ لآخر، كنت أتحدّث بكثرة مع حفّار القبور وهو يمارس عمله. نادرًا ما ابتسم ذلك الرجل، لكني ما زلت أذكر ودّه الكبير تجاهي، وأحيانًا كان يطلب منّي الابتعاد قليلًا وهو يقذف بالتراب بعيدًا عن بعض القبور، خصوصًا حين كان يعثر على عظم فخذ كبير أو جمجمة مبتسمة.

غالبًا ما وجدت العظام على القبور وخصلات الشعر من الجثث أيضًا، وكنت أضعها تحت الأرض مجدّدًا كما علّمني حفار القبور. لقد اعتدت على تلك الحوادث لدرجة أنّني لم أكن أشعر بالخوف عندما صادفت الرفات البشرية؛ كان هناك تحت الكنيسة قبو يعجّ بالعظام، حيث جلست أكثر من مرّة أنحت شيئًا ما من الخشب أو أَرسم صورًا على الأرض مستعينًا بالعظام المتداعية.

ثمّ، ذات يوم، وجدت سنًّا في المقبرة.

كان سنًّا أماميًا أبيضَ لامعًا وقويًّا. وضعته في جيبي مباشرة. لم أفكّر في الأمر حتّى. قلت في نفسي إنّني سأصنع منه شيئًا ما، بشكل أو آخر؛ قد أستخدمه في تزيين أحد الأشياء الغريبة التي اعتدت نحتها من الخشب. أخذت ذلك السنّ معي إلى المنزل.

كان الفصل خريفًا، وحلّ الظلام سريعًا. توجّب عليّ أن أنجز بعض الأعمال المنزلية أوّلًا. بعد ساعتين من العمل تقريبًا، استطعت الذهاب إلى مهجع الخدم لكي أصنع شيئًا ما من السن. نظرت إلى الخارج لأرى أنّ القمر كان قد أظهر نصفه للناظرين.

في مهجع الخدم، كانت جميع الأنوار مطفأة وأنا جالس بمفردي تمامًا. لم أجرؤ على إضاءة المصباح قبل وصول المزارعين، لكنّني تذكّرت أنّه بإمكاني رؤية محيطي إذا أضرمت النار في موقد الحطب الذي يبعث بما يكفي من الوهج من خلال فتحة الهواء فيه، لذلك ذهبت إلى السقيفة لكي أجلب الخشب.

كانت السقيفة غارقةً في الظلام الدامس.

بينما تحسّست المكان بحثًا عن الخشب، شعرت بشيء كالأصبع يلمس رأسي برفق.

استدرت إلى الوراء بسرعة لكنّني لم أرَ أحدًا.

تخبّطتُ في مكاني، ملوّحًا بذراعيَّ في اتجاهات مختلفة، لكنّني لم أمسك بأيّ شيء. فقلت: "هل من أحدٍ هنا؟" ولم ألقَ ردًّا.

كنت حاسر الرأس، وعندما لمست أعلى رأسي شعرت بشيء شديد البرودة، فأبعدت يدي على الفور. كان ذلك غريبًا جدًّا! لمست شعري مرة أخرى، لكنّ البرودة قد اختفت.

فقلت في نفسي:

"لا بدّ أنّ شيئًا باردًا سقط من السقف وأصاب رأسي. ما هو يا ترى؟".

على أيّ حال، جمعت القليل من الخشب وعدت إلى مهجع الخدم. أشعلت الموقد وانتظرت إلى أن خرج الوهج من فتحة الهواء، ثم أمسكت السن والمبرد.

فجأةً سمعت صوت طرقٍ على النافذة؛ نظرت إليها فرأيتُ رجلًا غريبًا يضغط وجهه على الزجاج. لم أرَه في حياتي قط، مع أنّني كنت أعرف جميع الناس في الأبرشية. كانت لحيته حمراء كثيفة، وارتدى وشاحًا معقودًا أحمر حول رقبته وقبّعة بحار على رأسه.

لا أعرف كيف تمكّنت من رؤية رأسه بوضوح تام وسط الظلام، مع أنّني كنت في ذلك الجزء من المنزل الذي لا يصلُه ضوء القمر. خطر في بالي هذا الأمر لاحقًا طبعًا ولم أفكّر به حين رأيته أول مرة.

لكنّ وجهه تجلّى أمامي بشكل مرعب: كان شاحبًا يميل إلى البياض تقريبًا، وحدّق بي مباشرة.

مرّت دقيقة على ذلك الحال.

ثم بدأ الرجل في الضحك.

لم أسمع ضحكاته بوضوح تام، لكنّ فمه كان مفتوحًا على مصراعيه ولم تتوقّف عيناه عن الحملقة بي وهو يضحك.

سقط السنّ والمبرد من يدي وشعرتُ بقشعريرة في جميع أرجاء جسدي، إذ رأيت فجأةً ثقبًا أسود في فمه الفاغر الضاحك البشع عند النافذة: كان لديه سنّ مفقود.

جلست أحدق أمامي مباشرة وقد دبّ فيّ الرعب. انقضت دقيقةٌ أخرى. ثمّ اكتسب وجهه ألوانًا جديدة: أخضر غامق تلاه أحمر قانئ، ولم يكفّ عن الابتسامة في وجهي. حافظت على كامل حضوري الذهني؛ دقّقت النظر في كل شيء من حولي. توهّجت النار في فتحة الهواء، راسمةً بريقًا صغيرًا على الجدار المقابل الذي له بعض الدرجات. كنت أسمع ساعة الحائط تدقّ في الغرفة المجاورة، وأنا متيقَظٌ ومدركٌ جدًّا لمحيطي لدرجة أنّني لاحظت أنّ أعلى قبّعة الرجل كان مطليًّا باللون الأسود الباهت، لكنّ حافّة القبعة كانت خضراء.

شيئًا فشيئًا، بدأ الرجل يخفض رأسه. أخفضه ببطء شديد، حتّى اختفى بأكمله أسفل النافذة. بدا لي وكأنّ الرجل قد انزلق ودُفن تحت التراب.

سيطر عليّ الخوف ورحت أرتجف. بحثت عن السن بيدي، وفي الوقت ذاته لم أتجرّأ على الإشاحة بنظري عن النافذة، خشية أن يظهر الوجه مجدّدًا.

عندما وجدت السن، خطر لي أن أعيده إلى المقبرة على الفور، إلا أنّني لم أتحلَّ بالشجاعة الكافية للقيام بذلك. جلست هناك، وحيدًا، غير قادر على الحركة. سمعت صدى بعض الخطوات يصدر من الفناء، فخيّل لي أنّ إحدى الخادمات كانت تمشي مرتديةً القبقاب، لكنّني لم أجرؤ على المناداة عليها، ثم اختفى صوت الخطوات. شعرت وكأنّ دهرًا قد انقضى. بدأت نار الموقد في التلاشي. على ما يبدو، لن يأتي أحدٌ لإنقاذي.

بعد طول انتظار، استجمعت قواي، وصررت على أسناني، ونهضت. عندما فتحت الباب، مشيت بالعكس وأنا أغادر مهجع الخدم، مثبّتًا نظري على النافذة حيث كان الرجل واقفًا. بمجرّد أن خرجت من الفناء، ركضت إلى الإسطبلات لكي أطلب من أحد الفتية أن يذهب بصحبتي إلى المقبرة.

لكنّي لم أجد أحدًا هناك.

على الرغم من ذلك، شعرت بجسارة كبيرة بعد أن أصبحت في الهواء الطلق، وقررت الذهاب بمفردي إلى المقبرة، حتى لا أضطر إلى إخبار أي شخص بما حدث، وبذلك تفاديت الاصطدام مع عمي بسبب هذه القصة.

وضعت السنّ في منديلٍ وشققت طريقي إلى أعلى التل.

عندما وصلت إلى المقبرة، هجرتني شجاعتي فجأةً وتسمّرت في مكاني وسط صمت مطبق؛ الصوت الوحيد الذي سمعته حينها كان التدفّق الأبديّ لنهر "غليما". لم يكن هناك باب عند مدخل المقبرة. وقفت تحت الممر المقنطر متوتّرًا خائفًا، وألقيت نظرةً سريعةً لأرى ما إذا كنت سأجرؤ على المضي قدمًا، وإذ بي أجثو على ركبتيّ.

هناك، بعد نهاية الممر، بين القبور، كان الرجل ذو قبعة البحار واقفًا بمفرده؛ استدار نحوي بوجهه الأبيض وأشار إليّ لكي أتقدّم إلى الأمام، باتجاه المقبرة.

كان ذلك بمثابة أمرٍ لي، لكنني لم أجرؤ على الانصياع له. بقيت جاثيًا هناك لفترة طويلة، واكتفيت بالنظر إلى الرجل، متوسّلًا إيّاه، وهو أيضًا وقف صامتًا بلا حراك.

فجأةً سمعت أحد المزارعين يصفّر خلال عمله في الإسطبلات، فشعرت بالشجاعة مرّة أخرى. لقد أعانتني علامة الحياة القريبة تلك على الوقوف مجدّدًا. بدأ الرجل في الابتعاد عنّي شيئًا فشيئًا، إذ راح يمشي الهوينى بين القبور، وكان لا يزال يشير بيده إلى الأمام. دخلت عبر الممر، فلوّح لي. مشيت قليلًا ثم توقفت. لم أعد قادرًا على الاستمرار. كانت يدي ترتجف ذعرًا. أخرجت السن الأبيض من المنديل ورميته بكلّ ما أوتيت من قوة نحو المقبرة. في تلك اللحظة بالذات، تأرجحت دوارة الرياح على برج الكنيسة، فسمعت صوت صرير حادٍ يخرج من عظامي. هرعت عائدًا أدراجي، نزلت إلى أسفل التل متجّهًا نحو المنزل. عندما دخلت المطبخ قالوا لي إنّ وجهي كان أبيضَ مثل الثلج.

لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين، لكنّني أتذكّر تفاصيل تلك الحادثة بحذافيرها. ما زلت أرى نفسي راكعًا عند بوابة المقبرة؛ ما زلت أرى ذلك الرجل ذا اللحية الحمراء.

إلّا أنّني لم أستطع تخمين عمره؛ لا أعرف إن كان عشرينيًّا أو أربعينيًّا. على الرغم من أنّني رأيته مجدّدًا بعد أوّل لقاء لنا، وفكّرت في هذا الأمر في وقت لاحق. لكنّني لم أتمكّن من معرفة الجواب بتاتًا.

عاد ليظهر في مختلف الأمسيات والليالي، بفمه الفاغر ذي السنّ المفقود، ثم يختفي مجدّدًا. تساقطت الثلوج وتراكمت ولم يعد بمقدوري الصعود إلى المقبرة لكي أضع السنّ تحت التراب. طوال ذلك الشتاء، أظهر نفسه أكثر من مرّة، لكن بوتيرة متفاوتة، الأمر الذي جعل خوفي منه أقلّ وطأةً، مع أنّه عكّر صفو أيامي كلّها وحرمني من السعادة. في كثير من الأحيان، كنت أجد العزاء في فكرة أنّه بإمكاني وضع حدٍّ لمأساتي بالقفز في نهر "غليما" عندما يرتفع مدّه.

ثم جاء الربيع، واختفى الرجل.

لكن هل اختفى كلّيًا؟ كلا، إلا أنّه لم يظهر طوال فصل الصيف. ثمّ عاد في الشتاء مرة واحدة فقط، ثم اختفى لفترة طويلة جدًّا. بعد ثلاث سنوات من لقائي الأول معه، غادرت "نوردلاند" وبقيت بعيدًا عنها لمدة عام كامل. عندما عدت كنت قد أصبحت رجلًا مكتمل النمو. انتقلت من منزل القساوسة حيث سكنت مع عمّي في السابق إلى منزل أمي وأبي.

في إحدى أمسيات الخريف، بعد أن خلدت إلى الفراش، شعرت بيد باردة على جبهتي. فتحت عينيّ ورأيت الرجل أمامي. كان جالسًا على سريري يراقبني. لم أكن وحدي في الغرفة، إذ كنت أتقاسمها مع اثنين من أشقائي. لذا لم أرد إخافتهما. عندما شعرت بيده الباردة تضغط جبهتي، لوّحت له وقلت:

"كلّا، اذهب بعيدًا!".

فسألني أخويَّ وهما مستلقيان: "مع من تتحدّث؟".

جلس الرجل هناك لفترة طويلة ثم بدأ يهزّ الجزء العلويّ من جسده إلى الأمام وإلى الخلف، وأثناء قيامه بذلك، ازداد طولًا شيئًا فشيئًا، حتّى صار يتمايل بمحاذاة السقف تقريبًا، لكن بما أنه لم يكن قادرًا على اختراق السقف، وقف ومشى بصمتٍ بعيدًا عن سريري، ثم اختفى بجانب الموقد. كنت أنظر إليه طوال هذا الوقت.

لم يسبق له أن اقترب منّي بهذا الشكل: استطعت أن أنظر في عينيه مباشرةً. كان وجهه ميتًا فارغًا؛ مع أنّه كان ينظر إليّ، شعرتُ أنّ نظراته اخترقتني وراحت تحدّق في أعماق عالم آخر. كانت عيناه رماديّتين ووجهه جامدًا تمامًا. لم يضحك هذه المرة. عندما أبعدت يده عن جبهتي وقلت له: "كلّا، اذهب بعيدًا!"، قام بسحب يده ببطء شديد، وخلال الدقائق التي جلس فيها على حافة سريري، لم يرمش مرة واحدة.

بعد بضعة أشهر، حلّ الشتاء مجدّدًا، وكنت قد سافرت بعيدًا عن المنزل لكي أعمل لدى تاجرٍ يسمّى "دبليو" W. قابلت الرجل للمرة الأخيرة في ذلك المكان:

صعدت إلى غرفتي في إحدى الليالي، أشعلت المصباح وخلعت ملابسي، وكما جرت العادة، كنت أترك حذائي في الخارج لكي تنظّفه الخادمة. عندما فتحت الباب، رأيته يقف هناك في الممر، أمامي مباشرة... الرجل ذو اللحية الحمراء.

كنت أعلم أنّ هناك أناسًا في الغرف المجاورة لي لذا لم أشعر بالخوف. قلت له بصوت مسموع: "لقد أتيت مرّة أخرى، أليس كذلك؟".

وإذ به يفتح فمه الواسع ويشرع في الضحك، لكنّ ذلك المشهد لم يعد يرعبني. عندما نظرت عن كثب رأيت أنّ السن المفقود قد عاد إلى مكانه الطبيعي.

ربما قام أحدهم بدفن السن في التراب مجدّدًا؛ أو ربما أصبح غبارًا عبر السنين والتمّ شملُه مع الرّفات التي انفصل عنها. الله وحده يعلم ما جرى.

أغلق الرجل فمه مرة أخرى بينما كنت واقفًا عند الباب، ثمّ استدار ونزل الدرج واختفى كلّيًا.

كانت تلك آخر مرة رأيته فيها. كثيرةٌ هي السنوات التي مرت منذ ذلك الحين.

إنّ ذلك الرجل ذا اللحية الحمراء، ذلك المبعوث من أرض الموتى، كان قد تسبّب لي بضيقٍ لا يوصف في طفولتي. لقد آذاني حقًّا. ومع أنّني رأيت الكثير من الأمور التي لا يمكن تفسيرها في السنوات التي تلت لقاءاتي به، لا شيء يضاهي الأثر العميق الذي تركه فيّ.

لكنّ ما فعله بي تجاوز الأذيّة على ما أعتقد. لطالما تأمّلت في ذلك مدهوشًا. أظنّ أنه كان أحد الأسباب الرئيسة التي دفعتني إلى تحمّل المواقف الصعبة ومواجهة الحياة بقلب جريء، ففي السنوات اللاحقة، وجدت نفسي في بعض الأحيان بحاجة إلى أن أكون شخصًا حازمًا لا يهاب أي شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتصار امرأة

كنت أعمل كمحصّل للتذاكر على عربات الترام في شيكاغو. نفّذت مهمّتي الأولى على خطّ "هالستيد" Halstead الذي يمتدّ من مركز المدينة وصولًا إلى سوق الماشية. لم يشعر بالأمان أيٌّ من محصّلي التذاكر الذين عملوا خلال النوبة الليلية بسبب مختلف الركّاب المريبين الذين كانوا يسافرون على هذا الخط، كما لم يُسمح لنا بإطلاق النار على هؤلاء وقتلهم، كي لا تُحمَّل شركة النقل المسؤولية فتكون مجبرةً على دفع التعويضات. بالنسبة لي، لم أحمل مسدسي معي، ووضعت ثقتي في الحظ وحسب. لكن، رغم ذلك، من النادر جدًّا أن تجد الواحد منّا أعزلَ تمامًا، إذ كانت ذراع الفرامل في متناولنا على الدوام، وكان بإمكاننا استعمالها كسلاح مفيد للغاية في أي لحظة، إلّا أنّني لم أستخدمها إلّا مرّة واحدة حتى وسط تلك الظروف.

في عام 1886 عملت كل ليلة خلال فترة عيد الميلاد من دون أن يحدث أيّ شيء مميز يذكر. صعدتْ ذات ليلةٍ عصابةٌ من الأيرلنديين على متن الترام عند سوق الماشية واكتظّ المكان بهم. كانوا سكارى وحمل كلّ واحدٍ منهم زجاجة بيده، وشرعوا في الغناء بصوت عال. على الرغم من أنّ الترام كان قد انطلق بالفعل، أعرب

أفراد العصابة عن نيّتهم في عدم دفع التعرفة، قائلين إنّهم يدفعون للشركة خمسة سنتات كل صباح ومساء، وبما أنّ عيد الميلاد كان على الأبواب قرّروا ألّا يدفعوا. بدا لي أنّ موقفهم منطقيّ إلى حدٍّ ما، لكنّني لم أجرؤ على السماح لهم بالترجّل من غير أن يدفعوا التعرفة لأنّ جواسيس الشركة كانوا يتواجدون بيننا دائمًا لكي يتحقّقوا من نزاهة محصّلي التذاكر. صعد شرطيٌّ على متن الترام ووقف مكانه لبضع دقائق، ثمّ تحدّث عن عيد الميلاد والطقس قبل أن يترجّل، لأنّه لاحظ أنّ العربة كانت ملأى بالركاب. أعرف تمام المعرفة أنّه كان بإمكاني أن أهمس في أذنه بضع كلمات فقط لكي يُجبر العصابة على دفع التعرفة، لكنّني لم أقل شيئًا. "لماذا لم تبلّغ عنا؟" سألني أحدهم. فأجبته: "لا داعي لذلك. لا شكّ في أنّني أتعامل مع رجال محترمين". انفجر بعضهم ضاحكًا إزاء ما قلته، لكنّ اثنين منهم وقفا إلى جانبي وقاما بدفع التعرفة نيابةً عن جميع أفراد العصابة.

بحلول عيد الميلاد التالي كنت قد بدأت العمل على خط "كوتيج" Cottage. هنا اختلف كلّ شيء اختلافًا جذريًّا. كانت القطارات على هذا الخط مؤلّفةً من عربتين أو ثلاث عربات تعمل بواسطة كابلات كهربائية تحت الأرض. أمّا بالنسبة لعامّة الناس في هذا الجزء من المدينة، فكانت من طبقة النبلاء، لذا تحتّم عليّ أن أرتدي القفّازات أثناء جمع التعرفة من الركاب. لم يحدث أيّ شيء مشوّق على الإطلاق على هذا الخط، وسرعان ما شعرت بالملل من رؤية وسماع هؤلاء الأشخاص الذين ينتمون إلى العائلات المرموقة.

إلّا أنّ شيئًا غريبًا حدث في عيد الميلاد عام 1887.

في صباح عيد الميلاد، وفقًا لجدول النوبة النهارية، كنت على متن الترام المتجه إلى مركز المدينة عندما صعد رجلٌ وبدأ يتحدّث إليّ من فوره. حين توجّهت إلى العربات الأماميّة، انتظرَ حتّى عودتي إلى مكان جلوسي عند المنصّة في مؤخّرة الترام، وتابع حديثه معي. كان رجلًا ثلاثينيًّا في غاية الأناقة، شاحب الوجه، وله شارب، لكنّه لم يرتدِ معطفًا على الرغم من البرد القارس.

قال لي: "لقد خرجت مسرعًا من الشقة بملابسي المنزلية. أريد أن أشتري هدية لزوجتي".

فقلت له: "نعم. هدية عيد الميلاد".

"صحيح!" أجابني مع ابتسامة غريبة فيها شيء من التجهّم والاعْوِجاج في شكل الفم.

ثم سألني: "كم هو مرتّبك الشهري؟".

وهو سؤالٌ عادي جدًّا في أمريكا، فأعطيته الجواب.

عقّب قائلًا: "ما رأيك أن تكسب عشرة دولارات إضافية؟".

"حسنًا".

فأخرج محفظته وأعطاني المال بلا مقدّمات، قائلًا إنّه يؤمن بي.

سألته: "ماذا تريدني أن أفعل؟".

عندها طلب أن يرى جدول نوبتي النهارية. ثم قال: "أنت تعمل ثماني ساعات في اليوم، أليس كذلك؟".

"نعم".

"أريدك أن تسدي لي معروفًا صغيرا خلال إحدى رحلاتك. هناك عند زاوية شارع "مونرو" Monroe، سوف يمرّ الترام بسرداب يؤدّي إلى الكابلات الكهربائية تحت الأرض. أريد أن أرفع غطاء هذا الممر وأذهب إلى داخله".

"هل تريد أن تقتل نفسك؟"

"كلا، بل أريد أن يعتقد الناس أنّني حاولت الإقدام على ذلك".

"آه!"

"كلّ ما عليك فعله هو أن توقف الترام وتحاول إخراجي من مدخل السرداب، علمًا أنّني سوف أقاومك".

"لا بأس في ذلك. سأتدبّر الأمر".

"شكرًا لك. وبالمناسبة، أنا لست مجنونًا. ما أفعله يصبّ في مصلحة زوجتي، أريدها أن تعتقد أنّني أحاول الانتحار".

"إذن ستكون زوجتك على متن الترام في الوقت ذاته؟".

"نعم. ستكون في مقصورة القيادة".

أمرٌ غريب حقًّا: كانت مقصورة القيادة عبارةً عن عربة مفتوحة بلا جوانب، لذلك تشتدّ البرودة فيها خلال فصل الشتاء، أيّ أن قلّةً قليلة من المسافرين اختاروا السفر على متنها.

"ستكون في مقصورة القيادة"، كرّر الرجل ما قاله. "لقد قالت ذلك في رسالة إلى حبيبها، وستومئ له لكي يعرف أنّها قادمةٌ إليه. لقد قرأت الرسالة".

"حسنًا. لكن يجب أن تكون حذرًا، ارفع الغطاء وانزل إلى السرداب بسرعة، وإلّا سيعبر ترامٌ آخر فوقنا. سيكون لدينا ثلاث دقائق فقط".

"أعرف ذلك"، أجاب الرجل. "سيقوم أحدهم بحلحلة الغطاء قبل أن أصل إلى هناك. في الواقع، أعتقد أنّه أنجز ذلك وانتهى الأمر".

"دعني أسألك سؤالًا آخر: كيف ستعرف الترام الذي ستكون زوجتك على متنه؟".

"سيبلغني أحدهم بذلك عبر الهاتف؛ لقد كلّفت بعض الأشخاص بمراقبتها. سوف ترتدي معطفًا جلديًّا بنّيًا، لذا ستتمكّنُ من تمييزها بسهولة، كما أنّها في غاية الجمال. إذا أغمي عليها، خذها إلى الصيدلي عند زاوية شارع "مونرو"".

"هل تحدّثت إلى السائق أيضًا؟".

"نعم"، قال الرجل. "وقد دفعت له بقدر ما دفعت لك. لكنّني أتمنّى ألّا تطلقا النكات حول هذه القصة، لا أريدكما أن تتحدّثا عنها حتى".

"لا تقلق بشأن ذلك".

"تقدّم إلى المقصورة عندما يقترب الترام من شارع "مونرو" وراقب تحرّكاتي عن كثب. عندما ترى رأسي في فتحة السرداب، أخبر السائق بأن يوقف الترام فورًا. سيساعدك السائق في السيطرة عليّ وإخراجي؛ طبعًا، سوف أقاومكما وأحتجّ معربًا عن رغبتي في الموت".

فكرت في الأمر برمته للحظة، ثم قلت له:

"يبدو لي أنه كان بإمكانك توفير أموالك لو لم تطلع أحدًا على خطّتك. بإمكانك أن تنزل إلى السرداب بمفردك".

"يا إلهي!" تعجّب الرجل. "لكن السّائق لن يراني في هذه الحالة! ولن تراني أنت! لن يراني أحدٌ قط!"

"أنت على حق".

دردشنا قليلًا على طول الطريق وصولًا إلى المحطة، وعدنا أدراجنا على متن الترام ذاته في رحلة الإياب.

عندما أصبحتْ زاوية شارع "مونرو" نصب أعيننا قال لي:

"هذه هي الصيدليّة التي أخبرتك عنها؛ خذ زوجتي إليها إذا أغمي عليها".

ثم ترجّل عن الترام.

كان بحوزتي عشرة دولارات! الحمد لله، ما تزال الحياة جيّدة! طوال ذلك الشتاء البارد، كنت أضع الجرائد على صدري وظهري لكي أقي نفسي البرد، وكانت تصدر أصوات طقطقة محرجة كلّما تحرّكت قليلًا، الأمر الذي أصبح مصدر تسليةٍ بالنسبة لزملائي في العمل. لكن صار لديّ المال لكي أشتري صدرية جلدية ضيقة من النوع الممتاز. سوف يحاول زملائي في المرة القادمة أن يدفعوني للتحرّك عمدًا لكي يسمعوا صوت القرقعة، لكنّي سأضع حدًّا لهم حينها.

بعد ثلاث رحلات إلى المدينة، لم يحدث أي شيء. لكن عندما غادرنا محطة "كوتيج" للمرة الرابعة، صعدتْ سيدة شابة وجلست في

المقصورة. كانت ترتدي معطفًا جلديًّا بنّيًا. عندما تقدّمتُ لتحصيل التعرفة منها، نظرتْ إلى وجهي مباشرةً. كانت يافعةً وجميلةً جدًّا، لها عينان بريئتان في غاية الزرقة. يا لك من فتاة مسكينة، قلت لنفسي، أنت على وشك أن تتلقّي صدمة مخيفة اليوم. لقد ارتكبتِ خطيئةً صغيرة والآن سوف تنالين عقابك. لكنّني أتطلع إلى حملك إلى الصيدلية.

توجّه الترام إلى المدينة.

من مكان جلوسي في الخلف، رأيت السائق يتحدّث إلى تلك المرأة. ماذا كان يقول لها، يا ترى؟ أليس من المفترض ألّا يتحدّث إلى الركاب خلال قيادته الترام؟ ثم لدهشتي الكبيرة رأيت السيدة تنتقل إلى مقعدٍ أقرب إليه. وراح يستمع إليها باهتمام كبير.

سار الترام في المدينة، وصعد على متنه المزيد من الركاب، وتوقّف لاحقًا لكي ينزلوا منه حين وصلّ كلٌّ منهم إلى وجهته. عندما اقتربنا من شارع "مونرو"، قلت لنفسي إنّ هذا الشاب غريب الأطوار قد اختار هذا المكان بحكمة كبيرة، إذ أنّ هذه الزاوية هادئةٌ جدًّا ومن غير المحتمل أن يضايقه أحدهم وهو يتسلّل إلى داخل السرداب. أتذكّر كم مرّةً رأيتُ مهندسي الشركة في هذا السرداب يقومون بأعمال الإصلاح عندما يطرأ عطل ما. لكن إذا حاول أيّ شخص الوقوف لحظة قدوم الترام، فلا شكّ في أنّه سيصبح أقصر بعدّة إنشات... إذ أنّ الخطّاف الذي يصل الكابل بمقصورة القيادة سيقتلع رأسه من مكانه.

كانت زاوية "مونرو" محطتنا التالية، فمشيت إلى الأمام باتجاه السائق.

كان الصمت سائدًا بينهما. آخر شيء رأيته هو إيماءةٌ من السائق للسيدة، وكأنّه يوافقها الرأي على شيء ما، ثم نظر إلى الأمام وقاد بأقصى سرعة. كان سائق الترام هذا هو "بيغ بات" Big Pat الأيرلندي.

قلت له: "خفّف السرعة هنا قليلًا!" مضيفًا أنّني رأيت أمامنا على السكة بقعةً داكنةً تبدو مثل رأسٍ بشريّ.

ثمّ نظرتُ إلى السيّدة، وإذ بها تحدّق في المكان ذاته وهي تمسك بمقعدها بإحكام. قلت لنفسي: يبدو أنّها تخشى بالفعل من وقوع حادثٍ ما! كيف ستكون ردّة فعلها عندما ترى أنّ زوجها هو الذي يحاول قتل نفسه!

لكن "بيغ بات" لم يخفّف السرعة نهائيًّا. صرختُ في وجهه قائلًا إنّ هناك شخصًا ما في السرداب، لكنّه رفض التوقّف. لقد أصبح الرأس واضحًا أمامنا الآن؛ كان ذلك الشاب المجنون واقفًا هناك ينظر إلينا. وضعت الصافرة بين شفتي ونفخت فيها بقوّةٍ لكي يتوقّف، إلّا أنّه تابع القيادة بالسرعة ذاتها. بضع ثوان فقط تفصلنا عن وقوع الحادث، فقرعت الجرس وقفزت إلى الأمام وأمسكت بالفرامل. سمعنا صوت صرير عندما سار الترام فوق السرداب، ثمّ توقف، لكن الأوان كان قد فات.

ترجّلتُ من مقصورة القيادة في حيرةٍ من أمري؛ كانت الخطّة التي اتفقنا على تنفيذها هي أن أحاول إخراج ذلك الرجل وأن

يقاومني هو بالمقابل. في حالةٍ من الإرباك، صعدت إلى المقصورة مجدّدًا. كان السائق مشوّشًا أيضًا، وظلَ يسألني ما إذا كان هناك شخصٌ ما في السرداب. صاحت الشابة: "يا له من حادث فظيع! يا له من حادث فظيع!" كان وجهها شاحبًا كجثّة هامدة وهي تمسك بمقعدها بكلّ ما أوتيتْ من قوّة. لكن لم يغمَ عليها، وبعد لحظات قليلة نزلت من المقصورة وتابعت رحلتها مشيًا.

تجمّع حشد من الناس حول السكّة، ووجدنا رأس الضحية أسفل العربة الخلفية، أما جسده فكان في السرداب. لقد أمسك الخطّاف بأسفل ذقنه واقتَلع رأسه. حملناه بعيدًا عن الطريق وسلَمنا جثّته إلى أحد عناصر الشرطة المتواجدين بالقرب منا، الذي قام بدوره بتدوين الكثير من الأسماء، وشَهِدَ العديد من الركاب أنّني أطلقت الصافرة ورنَنتُ الجرس وأمسكت بالفرامل. ثم قمنا بصفتنا موظّفين في شركة النقل بكتابة تقريرنا الخاص عمّا حصل.

"أعطني سكّينك"، قال لي "بيغ بات". فأسأت الفهم، وقلت له إنّه لا داعي للمزيد من الكوارث اليوم. ابتسم لي، ثمّ أراني مسدّسًا كان بحوزته، موضّحًا أنّه لم يكن ينوي ارتكاب أيّ حماقة بالسكين. فأعطيته إياها. قال لي "وداعًا"، ثم أضاف: "لا أستطيع متابعة العمل كسائق بعد ما حدث اليوم. اعذرني أيضًا، لكن عليك أن تقود الترام إلى المحطة بنفسك، وهنالك سوف يصعد سائقٌ آخر إلى مقصورة القيادة لينوب عنّي". ثمّ أعطاني بعض التعليمات حول كيفية قيادة الترام. "اسمح له بالاحتفاظ بالسكين لفترة وجيزة"، قال لي، "أنوي الذهاب إلى مكانٍ هادئ لكي أزيل الأزرار من بدلة العمل".

وذهب في طريقه.

لم يكن بوسعي سوى أن أقود الترام إلى المحطّة، فقد اصطفّت العديد من عربات الترام خلفنا وهي تنتظر متابعة رحلاتها. وصلت إلى المحطّة من دون وقوع المزيد من الحوادث، نظرًا لأنّني تدرّبت قليلًا على قيادة الترام.

***

في إحدى الأمسيات، في يومِ عطلةٍ بين عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة، كنت أتجوّل في شوارِع المدينة. مررت بمحطة القطار، فدخلت إليها. كانت تعج بالنشاط والحركة. شققت طريقي إلى نهاية إحدى المنصات ووقفت أشاهد قطارًا كان على وشك المغادرة. فجأة سمعت أحدًا ينادي اسمي؛ نظرت فرأيت رجلًا يبتسم من إحدى المقصورات وينادي عليّ. كان "بيغ بات". لم أتعرّف عليه فورًا، فقد كان يرتدي ملابس أنيقة وقد حلق لحيته.

بادلته التحيّة، فقال لي:

"أخفض صوتك! والآن قل لي، ماذا حدث في النهاية؟"

"استجوبتنا عناصر الشرطة، وهم يبحثون عنك الآن".

"سوف أسافر إلى غرب البلاد. لا داعي للبقاء هنا، فنحن لا نجني سوى سبعة أو ثمانية دولارات في الأسبوع مع أنّنا نحتاج إلى أربعة دولارات في اليوم لكي نعيش حياةً بسيطة. أريد أن أشتري بعض الأراضي وأصبح مزارعًا. لديّ ما يكفي من المال، كما تعلم. سافر معي إذا أردت، وسنشتري مزرعة فواكه في "سان فرانسيسكو"".

"لا أستطيع أن أفعل ذلك".

"بالمناسبة، ها هي سكينك. شكرًا لك. كما تعلم، إنّ مهنة قيادة الترام طريقها مسدود. لقد عملت كسائق ترام لمدة ثلاث سنوات ولم تتسنَ لي فرصة ترك تلك الوظيفة حتى الآن".

انطلقت صافرة القطار.

فقال لي "بات": "حسنًا، وداعًا. آه، بالمناسبة، كم أعطاك ذلك الرجل الذي دهسه الترام؟".

"عشرة دولارات".

"وأنا أيضًا. لكن زوجته دفعت لي أكثر من ذلك".

"زوجته دفعت لك؟"

"الزوجة الشابة، نعم. لقد أبرمت صفقة معها. لم تمانع دفع ألف أو اثنين مقابل التخلص من زوجها. أموالها هي التي منحتني فرصة الحصول على حياة أفضل".

"جون ترو"

عشية عيد الميلاد، في الساعة الخامسة، أقفلت باب منزلي وتوجّهت إلى منزل "كويسلنغ" Quisling. كان يومًا باردًا، ولدى "كويسلنغ" ما يكفي من الوقود لكي يوقد مدفأته، كما كنتُ آمل أن يكون لديه بعض الطعام أيضًا. أعلم أنّ "كويسلنغ" كان عاطلًا عن العمل، لكنّه تدبّر أمر معيشته رغم ذلك، وواجه كلّ يوم على حدة. لطالما تمكّن من التفكير بحلٍّ ما. على سبيل المثال، حصل في الأسبوع الماضي على حذاءٍ خارجيّ مطاطيّ، مع أنّه كان صغيرًا جدًّا بالنسبة لحجم قدميه.

ذهبت لزيارته. كان جالسًا في الظلام عند الطاولة.

قال لي: "هيا، اجلس. ماذا تنتظر؟" لقد اعتدت على تصرّفه هذا، فمن المحال أن يقول لأي أحد: "اجلس، من فضلك".

قلت له: "عيد ميلاد سعيد. الجوّ لطيف ودافئٌ هنا. لم أكلّف نفسي عناء إشعال المدفأة في بيتي اليوم، لأنّها لا تعمل كما يجب على أي حال. لا فائدة من محاولة إشعالها حتّى".

ظلّ "كويسلنغ" صامتًا. نهض وجلب القليل من لحم الخنزير المدخّن وقطعة خبز متوسطة الحجم. جلست أحدّق في اتجاه آخر بينما كان يتناول الطعام، وعندما دعاني للانضمام إليه، تصنّعت

الدهشة أمامه: يا إلهي، ما هذا؟ طعامٌ في المنزل أيضًا؟ شكرًا جزيلًا، لا يمكن لأحد أن يرفض دعوة كهذه، خاصةً إذا كان الطعام من هذا القبيل.

تناولت لقمةً من لحم الخنزير المدخّن.

فقال لي: "ما بك؟ كفاك عبثًا. كل كما يجب". نفّذتُ ما قاله وبدأت بالأكل.

جلس "كويسلنغ" يفكّر لبعض الوقت، ثم نهض وحكّ رأسه وقال:

"لا بدّ أن تشرب شيئًا ما، لكن لم يتبقّ عندي أيّ مشروب في المنزل... ما رأيك أن نذهب إلى منزل "جون ترو"؟ Jon Tro".

قلت له: "كلّا"، براحةٍ ورضًا خالصِيْن. "لماذا تريد أن تذهب إلى هناك؟ لكن إذا كانت هذه هي رغبتك...".

نعم، بكل تأكيد، أراد "كويسلنغ" الذهاب إلى منزل "جون ترو". نهض وارتدى حذاءه المطاطي.

إنّ "جون ترو" هذا فتىً ريفيٌّ غريبُ الأطوار يدرس علم اللاهوت ويجيد العمل بيديه بشكل واضح، لكنّه بخيلٌ جدًّا لدرجة أنّه كان يجبر نفسه على دفع إيجار منزله لأنّه يكره إنفاق المال. ظروفه المعيشيّة بدائيّة إلى أبعد الحدود، فلا وجود لأيّ كراسٍ مريحة ولا ستائر للنوافذ عنده. لكنّه لم يدع لأحد الفرصة أنْ يقول إنّ حياة "جون" أسوأ من حياة أيّ شخص آخر. فقد كان دائمًا يرتدي ملابس جيدة في رأيي. حتى أنّه يحمل مظلّة عندما تمطر.

"أتمنّى أن يكون في المنزل"، قال "كويسلنغ" وهو يطرق الباب.

نعم، وجدناه في المنزل.

"عيد ميلاد سعيد". تصرّفنا كما لو أنّنا في منزلنا، وبدأنا بالدردشة. نظرت حولي، ولاحظتُ أنَ الأرضيّة تنحدر بشكل حادٍ باتجاه الباب؛ السقف أيضًا مائل، وفيه نافذة. كان "جون ترو" قد علّق على الحائط قبّعةً رسميّة وقبّعة من القش، وكانت هاتان القبّعتان الشيئين الوحيدين على حائط الغرفة. لم يضع أيّ صورةٍ هناك حتّى، ولم أرَ أيّ ملابس تقريبًا على السرير أيضًا.

فجأةً قال "كويسلنغ":

"كلانا يعلم أنّك شخص غريبٌ جدًّا، يا "جون". لكنّي أتساءل، بغض النظر عن ذلك، إن كان بمقدورك أن تقرضني خمس كرونات. ماذا قلت؟".

"لا أستطيع"، أجابه "جون". "فوضعي المادّي لا يسمح لي بذلك نهائيًّا. كنت أتوقّع أن تصلني حوالة ماليةٌ من مسقط رأسي، إلّا أنّها لم تصل بعد".

"وأنا أيضًا سأحصل على بعض المال قريبًا جدًّا"، تابع "كويسلنغ". "اكتشفتُ ذلك مؤخّرًا. لذلك كن على يقين من أنّي سأعيد لك المبلغ".

"نعم، نعم، لا شكّ في هذا. لكن، للأسف، لا يمكنني مساعدتك في الوقت الحالي. لم أستطع حتّى ارتداء ملابسَ نظيفةً اليوم -في عشيّة عيد الميلاد- لأنّني لم أتمكّن من تسديد فاتورة تنظيف

ملابسي للمغسل". ولكي يثبت صحة ما قاله، أرانا أنه ما زال يرتدي ملابسه المتسخة.

ساد الصمت قليلًا.

"حسنًا. يبدو إذن أنّك تمرّ بضائقة مالية أيضًا، أليس كذلك؟" قال "كويسلنغ". "كنّا نأمل أن تمد لنا يد العون".

هز "جون" رأسه وابتسم.

التزمتُ الصمت أيضًا. شعرت بالراحة التامة، ولم أكن بحاجة إلى أيّ شيء. لكنّني ضحكت قليلًا في سرّي عندما سمعت ما قاله "كويسلنغ" حول حصوله على بعض المال قريبًا. بحقّ السماء، من أين له أن يتوقّع ذلك؟.

"يأتي عيد الميلاد مرّة واحدةً فقط في السنة، يا "جون ترو"، لذلك لا بدّ أن تساعدنا قليلًا اليوم، بغضّ النظر عن كلِّ ما قلتَه"، قال "كويسلنغ" بصراحةٍ تامة. "ولن نقبل بأيّ ردٍّ آخر".

"من؟ أنا؟" أجاب "جون" متفاجئًا. "وكيف لي أن أساعدكما؟"

أشار "كويسلنغ" إلى القّبعتين المعلّقتين على الحائط وقال:

"حسنًا، بما أنّ لا مال لديك، فلنرهن القبعة الرسميّة".

"القبعة الرسميّة؟" نهض "جون" من مكانه. "هل تعتقد أنّني غبي؟"

"يا له من لئيم أحمق!" قال لي "كويسلنغ"، وقد سيطرت الدهشة على ملامح وجههِ. "يملك قبّعتين، ويرفض أن يعطينا واحدة منهما لكي نخرج من المأزق الذي نحن فيه!"

"حسنا، يمكنك أن تأخذ قبعة القش".

"قبعة القش؟ لا بدّ أنّك تمازحني. ومن سيدفع المال مقابل قبّعة من القش في هذا الوقت من العام؟"

يسود الصمت قليلًا.

حاول "كويسلنغ" الحصول على القبعة الرسمية مجدّدًا.

"لم أسمع بشيءٍ كهذا من قبل!" صاح "جون ترو". "هل تعتقد أنّني سأسير في الشوارع مرتديًا قبّعة من القش في عيد الميلاد؟".

لم أقل حرفًا واحدًا حتّى الآن. شعرت بالراحة والدفء، كما كنت سعيدًا بالطعام الذي تناولته سابقًا. لكن، فجأةً، تصوّرت أنّه بإمكان "جون" ربط واقٍ للأذنين بقبعة القشّ لكي يستطيع ارتداءها في الشتاء. كانت فكرة غريبة، لكنّي تصوّرت وقاءً أحمر للأذنين مصنوعًا من الفلانيل مُرفقًا بالقبعة، لأنّني كنت أفكّر في قمصان الفلانيل الدافئة منذ قليل.

واصل "جون" و"كويسلنغ" نقاشهما.

قال "جون": "بما أنّنا نتحدّث عن رهن الملابس، ها أنت جالس أمامي مرتديًا حذاءً مطاطيًّا جديدًا كليًّا: لماذا لا ترهنه؟"

خلع "كويسلنغ" فردةً من حذاءه المطاطي وراح يلّوح بقدمه في الهواء. كان حذاؤه مليئًا بالثقوب. لا فائدة منه إطلاقًا، ويمكن للجميع رؤية ذلك.

"وهل تعتقد أنّه بمقدوري العيش بلا حذائي المطاطي؟" سأله "كويسلنغ".

"كلا، كلا. ولكن، بحقّ الله، ما علاقتي أنا بهذا؟".

وقف "كويسلنغ" ومدّ يده لكي يمسك بالقبعة الرسمية. كان سريعًا، لكنّ "جون" تفوّق عليه، فأمسك بالقبعة، وأبعدها عن جسده ليحميها من الضرر.

"تحرّك!"، صاح "كويسلنغ" في وجهي. "هيا! فلنأخذ القبعة منه".

نهضت من مكاني. فصرخ "جون" بنبرة حادّة:

"إيّاكما أن تفسدا هذه القبعة!".

لذلك، قلنا له إنّه عليه أن يتخلّى عنها. لقد كانت مسألة سهلة بالنسبة لنا. على أيّ حال، علم "جون" بفضل غرائزه الريفية أنّه إذا أصيبت القبعة بأي ضرر، فستفقد قيمتها ولن يستفيد منها أيّ أحدٍ منا، وسرعان ما أعطانا إياها طواعيةً.

كان "كويسلنغ" ينوي أن يرهنها لكي يشتري بعض الطعام. "آمل ألّا تكون مكاتب الرهانات قد أغلقت أبوابها!" توجّه نحو الباب وهو لا يزال يتمتم: "يا له من لئيم أحمق. قلتُ له إنّني سأحصل على المال قريبًا. كلّ ما عليّ هو الذهابِ إلى مكتب البريد، لكنّه أصرّ...".

"نعم، نعم، أنا لئيم أحمق!" أجابه "جون" بصوت خشن. ثمّ فتح الباب وصاح من أعلى الدرج: "إيّاك أن تضيع التذكرة. هل فهمت؟".

كان "جون ترو" غاضبًا جدًّا. قال لي إنّه يفضّل أن يذهب ويتركنا وشأننا. لكن، بعد أن فكّر قليلًا، تنبّه إلى أنّه لا بدّ أن يأخذ نصيبه ممّا سيجنيه رهن القبّعة. ثمّ حاول تخمين مقدار المال الذي قد يحصل عليه "كويسلنغ" مقابل ذلك، فهدأ روعه بعض الشيء وتلاشى غضبه. "هل تعتقد أنّ مكتب الرهانات قد يعطي "كويسلنغ" ستّ كرونات؟" سألني "جون". كنت جالسًا على الأرض، مسندًا ظهري إلى الحائط، وكنت على وشك النوم. ازداد قلق "جون" مرّة أخرى. لماذا لم يعد "كويسلنغ" حتّى الآن؟ إلى أين ذهب؟ هل أخذ المال وهرب؟ فتح "جون" النافذة على الرغم من البرد القارس، وأخرج رأسه منها حتّى يتمكّن من مراقبة الشارع. "آمل أن يشتري هذا الأبله بعض النقانق المدخنة!" تمتم "جون".

أخيرًا عاد "كويسلنغ"، لكنّه لم يكن قد اشترى النقانق المدخنة، إذ انّه حصل على 2 كرونة فقط مقابل القبعة، وأنفقها على زجاجة "كونياك". وضعها أمامنا على الطاولة.

"يا لها من قبّعة رديئة!" قال "كويسلنغ" ساخرًا. "2 كرونة فقط!"

"وأين هو الإيصال؟" صاح "جون" بغضب. بمجرد أنْ أعطاه "كويسلنغ" إيّاه، وضعه أمام الشمعة وراح يحدّق به بعيون مرتابة. أراد أن يتأكّد أنّ هذا هو فعلًا كلّ ما حصل عليه مقابل رهن القبعة.

جلسنا عند الطاولة وتناولنا الـ"كونياك". شربت الكثير، وما زلت أرغب بالمزيد. أكثر "جون ترو" من الشرب أيضًا، وكأنّه أراد أن يشرب معظم الزجاجة بنفسه. أمّا "كويسلنغ" فكان حريصًا على ألّا يشرب أكثر من نصف كأس.

قال لنا: "يبدو أنّكما أسرفتما في الشرب، أليس كذلك؟".

لقد أنعشني الـ"كونياك"، ولم أستطع أن ألتزم الصمت أمام تعليقه هذا، فأجبت:

"تشعر بالحسد، أليس كذلك؟ هل سمعت، يا "جون ترو"؟ لا يريدنا أن نشرب كثيرًا!"

نظر "كويسلنغ" إليّ وقال: "ما هو خطبك أنت؟".

تحسّن مزاج "جون" بشكل ملحوظ، وتناول كأسًا آخر لكي يؤكّد لنا على أنّ زجاجة الـ"كونياك" هذه هي ملكه، الأمر الذي جعله أكثر بهجةً. ثم أخذ يغنّي. وبعد بضع لحظات تكلّم عن النقانق المدخنة مجدّدًا. ذهبت لأجلس على الأرض مرّة أخرى. صبّ "كويسلنغ" كأسًا آخرَ وجلبه لي، لكنّني رفضت شربه.

"هل ستقول لي إنّني وجّهت إليكَ إهانةً منذ قليل؟"، قال "كويسلنغ"، وهو ينظر إليّ عن كثب. فقلت له ألّا داعي لأن يقلق بشأني، كما أنّني -بكلّ تأكيد- لن أشرب كامل زجاجة الـ"كونياك" التي جلبها. "من بعد إذنك، دعني أجلس هنا بسلام." ثم قلت له إنّه لا مانع لديّ أن أغادر إذا كان هذا ما يريده.

ساد الصمت قليلًا. واستمر "كويسلنغ" في التحديق في وجهي.

"لو كنتَ بكامل قواك العقلية لضربتك على أذنك، أيها المسكين." قال "كويسلنغ"، ثم ابتعد عنّي.

"هل تعتقد أنّني مخمور؟" صرخت في وجهه.

جلست بعض الوقت أفكر في هذا الأمر بينما تابع "جون" شرب الـ"كونياك". بحلول هذا الساعة كان الخمر قد نال منه، فراح يدندن الألحان ويتحدّث إلى نفسه. "أيّ إهانة؟ ألم تقل أنّ شخصًا ما قد شعر بالإهانة؟" الأمر الوحيد الذي شغل باله هو النقانق المدخّنة. أيّ عيد ميلادٍ هذا من دون نقانق مدخنة؟ فهو لم يسمع بذلك قطّ. ثمّ فجأةً اقترح علينا أن نغنّي أغنية "ابتسامة الغروب" The Sunset Smile، وبدأ هو و"كويسلنغ" في الغناء.

"فلنغنّها مثل الجوقة!" صاح "جون".

ثمّ غنّياها مجدّدًا كما لو كانا في جوقة موسيقيّة.

استمعت لغنائهما، وقبل أن يصلا إلى نهاية المقطع الأول، نهضت من مكاني تحت تأثير المشاعر القوية، وأمسكت بيد "كويسلنغ" ورحت أغمغم كلامًا لم أعد أتذكّره.

"كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام، ليس هناك أيّ مشكلة"، قال "كويسلنغ". بما أنّه قال إن كل شيء على ما يرام، جلست مرة أخرى.

ثمّ غنّى "جون" أغنية جديدة عن فتاة سويدية تدعى "بيانكا". "اذهب واشترِ بعض النقانق المدخّنة"، قال مرة أخرى.

"أعطِنا المال إذن"، أجابه "كويسلنغ". "أعلم أنّ لديك بعض المال ولا أصدّق ما قلتَه سابقًا".

فجأةً تغيّرت ملامح "جون ترو"، وذهب ليجلس على حافّة سريره، محاولًا أن يتخلّص من أثر الكحول قدر المستطاع. مرّةً

أخرى، استيقظ الفتى الريفيّ بداخله، وتحسّس جيب قميصه بحذر، ثمّ قال بنبرةٍ ماكرةٍ مخمورةٍ متثاقلة:

"حقًّا؟ تعلمُ أنّ لديّ بعض المال، أليس كذلك؟ ومن قال لك هذا؟ فتّشني إذا أردت. قلتُ لك إنّني لم أستطع حتّى أن أسدّد الفاتورة للمغسل اليوم لكي أستردّ ملابسي".

"نعم، بالطبع"، قال "كويسلنغ". "كنت أمازحك فحسب. أنت فقيرٌ مثلنا".

"نعم، لقد أصبت".

"لا أحد منّا يتوقّع أن يجد المال عند رجلٍ يعيش في منزل مقرفٍ كهذا"، تابع "كويسلنغ".

"مهلًا، لا أوافقك الرأي تمامًا...".

"كلّا. لنكن صريحين: كيف لرجلٍ مثلك أن يكون لديه المال؟ فالخنزير بذاته يرفض أن يعيش معك. أنتَ فقيرٌ وتعيشُ مثل بقيّتنا. لا داعي للخجل من ارتداء قبّعةٍ ثمنها 2 كرونة إذا كنتَ مضطرًا لذلك".

"إذا كنتُ مضطرًّا لذلك؟" ردّد "جون". "مهلًا، مهلًا ..."

"هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ لا أعتقد أنّك تخفي عنّا أيّ شيء، صحيح؟"

قفز "جون" من كرسيه، متخلّيًا عن كلّ حذره، منفّسًا عن غضبه. ثمّ ضرب الطاولة بقبضته وشرع يقول إنّه "جون ترو"؛ الفتى "جون" من قرية "ترو" بشحمه ولحمه. أخرج محفظته من جيب قميصه، ووضعها بعنفٍ تحت أنف "كويسلنغ" وقال:

"انظر! هل ترى هذه؟ انظر! هل سمعتني؟"

نظر "كويسلنغ" إليها بدهشة كبيرة ثمّ رجع خطوةً إلى الوراء.

قال "جون": "أنا هو الفتى "جون" من قرية "ترو". لقد فاجأتك، صحيح؟ لم تكن تعتقد أنّ "جون" جريءٌ بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟"

"نعم"، أجابه "كويسلنغ"، برأس متدلٍّ وقد بدت عليه ملامح الهزيمة.

استمتع "جون" بعدم الارتياح الذي شعر به "كويسلنغ"، وازداد انفعاله أكثر فأكثر وأحسّ بالمزيد من التفوّق عليه. بدا لي أنّ جسده صار أكبر ممّا كان عليه. وقف على أطراف أصابعه وراح يصيح، حتّى أنّه مشى باتجاهي ولوّح بالمحفظة أمام أنفي.

"لا يمكنك تهديدي بمحفظةٍ فارغة"، قال له "كويسلنغ" بنبرةٍ حذرة.

"تعتقد أنّها فارغة؟ انظر، أيها الأخرق!" ثمّ بدأ "جون" يخرج الأوراق النقديّة من محفظته ويلوّح بقبضته المليئة بالمال في وجه "كويسلنغ". طارده حول الغرفة بيدين مليئتين بالأوراق النقدية وهو يقول: "هل تبدو لك هذه محفظةً فارغة؟ يبدو أنّه يشعر بالأسف. ما كان عليه أن يسألني عن أموالي. كان يعتقد أنّني لست إلّا "جون ترو" البسيط؛ الفتى الفقير "جون" الذي جاء من "ترو" وليس في جيبه فلس واحد. ها ها ها!"

استمرّ "جون" في الصياح والجعجعة، ثمّ جلس، وأفرغ الزجاجة، وتفوّه بالمزيد من العبارات المتبجّحة. قال له "كويسلنغ":

"لطالما قلت لك إنّك شخص غريب الأطوار، يا "جون ترو". لكن ماذا عن الكرونات الخمس هذه؟ لم يتبّق بحوزتنا أيٌّ من المال وما زلنا في ليلة عيد الميلاد".

"ولكن..."، قال "جون"، مواصلًا حديثه كما لو أنّه لم يسمع "كويسلنغ"، "أنا لم أُرِكَ أموالي لكي أُقرضك إيّاها. أنت مخطئٌ تمامًا إذا كنت تعتقد ذلك". لكن سرعان ما عاد "كويسلنغ" لتوجيه أسوأ أنواع الإهانات إلى "جون"، فأدرك هذا الأخير أنّه لا بدّ أن يفعل شيئًا ما لكي يضع "كويسلنغ" عند حدّه، فقاطعه وتابع: "أنتما ضيفان في منزلي، ولذلك لن أقبل بأن تشتريا أيّ شيء. سوف يتكفّل الفتى "جون ترو" بكلّ شيء. سأشتري كلّ ما نحتاجه!"

"برافو!" صاح "كويسلنغ".

ما إن سمع "جون ترو" كلمة "برافو" حتى تنامى شعوره بالفخر أكثر فأكثر. نهض من مكانه وأخرج نصف كرونة من جيب قميصه على عجالةٍ وقذفها بعنف على الطاولة أمام "كويسلنغ" لدرجة أنّها أصدرت صوت أزيزٍ عندما استقرّت.

"هذه ثمن النقانق المدخنة!" صاح "جون".

لم يصدّق "كويسلنغ" ما رآه. لقد بالغ "جون" كثيرًا.

"تريدني أن أشتري نقانق مدخنة بنصف كرونة؟ ماذا دهاك يا رجل!"

تسمّر "جون" في مكانه وقد سيطر الكبرياء عليه كليًّا، وراح يفكّر في مدّ يد العون لنا بشتّى السبل. صار رسميًّا جدًّا، حتّى أنه غيّر طريقة كلامه عندما أمسك "كويسلنغ" من عروة قميصه وقال:

"أفوّضك نيابةً عنّي، بموجب هذه الأموال، بشراء النقانق المدخنة الطويلة. كلّا، انتظر. راوح مكانك. هاك، خذ خمسة كرونات وأعطني النصف كرونة. أفوّضك بموجب الخمس كرونات هذه بشراء أطول نقانق مدخنة إطلاقًا وزجاجة "كونياك" أخرى. إذا لم تكن هذه الكرونات كافية، ما عليك سوى أن تسألني. لديّ المزيد من المال هنا في جيب قميصي".

تمكّن "كويسلنغ" أخيرًا من تخليص نفسه وانطلق إلى الخارج. صاح "جون" قائلًا:

"احرص على جلب الفكّة. يجب أن يكون هناك الكثير من الفكّة".

مرّت عشر دقائق على الأقل على غياب "كويسلنغ". لم يتوقّف "جون" عن الثرثرة؛ مجرّد الاستماع إليه أصابني بالنعاس. جلس بجانبي على الأرض أربع مرّاتٍ وتحدّث إليّ، إذ أنّ النشاط الذي دبّ فيه اضطرّه إلى النهوض مرةً تلو الأخرى. ثم بدأ يغني مجدّدًا.

سمعنا خطوات "كويسلنغ" وهو يصعد الدرج. كانت خطواته بطيئة جدًّا، فابتسم "جون" وقال: "أنصت جيّدًا. يبدو أنّ معه حملًا ثقيلًا". ثمّ كشّر عن أسنانه وراح يهزّ رأس لسانه.

لكنّه كان مخطئًا، لأنّ "كويسلنغ" عاد خالي الوفاض بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، إذ أنّ جميع المتاجر كانت قد أغلقت أبوابها عندما وصل إلى السوق. أخذ "كويسلنغ" يلعن صاحب كلّ متجر في المدينة.

الشخص الوحيد من بيننا الذي ظلّ راضيًا هو "جون" .لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّه شعر بالسعادة الغامرة في سرّه، خصوصًا عندما طالب على الفور بالحصول على أمواله. وهو أيضًا راح يلعن أصحاب المتاجر، لكن الذنب لم يكن ذنبه، أليس كذلك؟ ألم يكن على استعداد تامّ لإحسان ضيافتنا؟ لا بل أنّه كان على وشك اللحاق بـ "كويسلنغ" لكي يعطيه خمسة كرونات أخرى، فالمال لا يعني له الشيء الكثير ...

انطفأت الشمعة وتأخّر الوقت. بدأ "جون" في التثاؤب، ولمّح إلى أنّه يريد الخلود إلى الفراش، بينما جلس "كويسلنغ" بهدوء وأخذ يفكّر. لطالما استطاع التوصّل إلى حلٍّ ما. "حسنًا،" قال لي "كويسلنغ"، "من الأفضل أن نعود أدراجنا، أنا وأنت. لنذهب إلى المنزل ونخلد إلى النوم، ولننسَ أنّها عشيّة عيد الميلاد". ثمّ التفت إلى "جون ترو" وقال له: "ليلة سعيدة". كان يتمنّى "كويسلنغ" أن نقضي نحن الثلاثة هذه الليلة معًا، لا شك في ذلك، لكن هل سيجرؤ "جون ترو" على الذهاب معنا؟

بالتأكيد لن يجرؤ على المشي في الشارع مرتديًا قبعة القش، أليس كذلك؟ لكنّ الفتى "جون"، من قرية "ترو"، قَبِلَ التحدّي، وارتدى قبعة القش تلك ونزل مترنّحًا على الدرج أمامنا.

عندما أصبحنا في الشارع، مشى "كويسلنغ" في المقدّمة، وتوجّهنا نحو المقاهي. كانت قبّعة القش تتلألأ مثل الهالة على رأس "جون" المتمايل. بين الحين والآخر، اضطر إلى أن يمسك بها بإحكام

كلّما هبّت الرياح. مشينا وراء "كويسلنغ" إلى أن وصلنا إلى سرداب الموتى* وتوقّفنا هناك.

قال "كويسلنغ": "يبدو أنّك في وضع حرج، يا "جون ترو"، فالناس يحدّقون بك ويقولون إنّك مهرج يرتدي قبعة قش. يجب ألّا تسكت عن هذه الإهانة".

دبّ الحماس في "جون" مرة أخرى.

"من قال إنّني مهرج؟" صرخ "جون"، وكان مستعدًّا لعراك أيّ شخص. اهتاج مجدّدًا ومشى هائمًا على وجهه باتجاه ضوء الشارع خارج سرداب الموتى حتّى يتمكن الناس من إلقاء نظرة عن كثب على قبعته المصنوعة من القش. ثمّ خلعها وراح يلوّح بها في الهواء، ثم وضعها على رقبته وقال إنه يتصبّب عرقًا، فالجوّ حارٌّ جدًّا. وقف هناك متحدّيًا أيّ أحدٍ لديه الجرأة على النظر إلى الفتى العنيد من قرية "ترو".

طبعًا، بما أنّ "كويسلنغ" تمكّن من استدراج "جون" إلى هذا الحد، لم يجد أيّ صعوبةٍ في إدخاله إلى سرداب الموتى، واستطاع هناك أن يحصل منه على بعض الفكّة من الخمس كرونات تلك.

اتضح لي لاحقًا أنّ "كويسلنغ" لم يأكل أيّ شيء طوال اليوم، مع أنّه قدّم لي وجبة جيدة جدًّا...

---

* على غرار سرداب الموتى في باريس The Catacombs of Paris الذي يضم ملايين العظام ويعتبر معلم سياحي هام. (المترجم).

حزنٌ دفين

يتبعني هذا الرجل أينما ذهبت، وقد التقيت به للمرّة الرابعة منذ بضع دقائق. أشعر بعدم الأمان بسببه، فهو يظهر أمامي فجأةً في الأماكن التي لا أتوقّع أن أراه فيها مطلقًا، حتّى أنّني رأيته مرّة في غرفتي في "كريستيانيا"، حيث كان قد دخل إليها قبلي، ووجدته واقفًا هناك بكلّ بساطة ...

لكن دعوني أسرد عليكم هذه القصة من البداية.

التقيت به أوّل مرّة في "كوبنهاغن"، عشيّة عيد الميلاد من عام 1879. كنت أعيش حينها في "كلارَبوديرنه" Klareboderne.

في أحد الأيام، بينما كنت جالسًا في غرفتي، طرق أحدهم باب منزلي طرقًا خفيفًا هادئًا، فاعتقدت أنّ الطارق كان امرأة. أتذكّر ذلك اليوم بوضوح شديدٍ، حيث توجّب عليّ أن أصنع بعض النسخ من النوتات الموسيقية، الأمر الذي أصابني بالتوتر الشديد لأنّني لا أستطيع قراءة النوتات هذه. صِحتُ قائلًا: "ادخل!" وإذ برجلٍ يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا يدخل من الباب.

كان شاحب الهيئة، عابسًا إلى حدٍ ما، له جذعٌ عُلويٌّ ضيّقٌ جدًا، وكان يرتدي قفّازًا واحدًا فقط.

خلع قبعته فور دخوله، وظلّ يحدّق بي بعينيه الكبيرتين طوال الوقت وهو يقترب منّي بينما كنت جالسًا أكتب. اعتذرَ لي عن التطفّل بهذا الشكل، وقال إنّه رآني أدخل هذا المنزل وأغادره عدّة مرات، فاعتقدَ أنّه يعرفني منذ زمن بعيد. سألني إن كنت قد تذكّرت مقابلته في "هلسنكي" Helsinki، في مركز الشرطة في "هلسنكي"، على وجه التحديد.

لا بدّ أنّه كان مخطئًا، فأنا لم أذهب إلى تلك المدينة من قبلُ قطّ...

فقال إنّنا ربّما تقابلنا في "مالمو" Malmö إذن. وكلّما فكّر في الأمر ازداد يقينه بأنّنا تقابلنا في "مالمو" أوّل مرة.

لكنّني لم أذهب إلى "مالمو" أيضًا.

فَذَكر مكانين آخرين، وكلّما أجبته قال لي فورًا: "مهلًا! أنا متأكّد من أنّني التقيت بك من قبل، لكنّي لا أستطيع أن أتذكّر أين حصل ذلك. أخيرًا جاء على ذكر "كريستيانيا"، فقلت له بنبرة متذمّرة إنّنا ربّما التقينا صدفةً هناك. دبّ الشك فيَّ، حقيقةً، ولم أستطع استبعاد احتمال أن أكون قد قابلته ذات مرة في "كريستيانيا".

ثم قال لي: "لا أحمل لك أيّ أخبار. كلّ ما في الأمر هو أنّني أردت أن ألقي التحية عليك، فأنت من معارفي الريفيّين القدامى".

تحدّثنا لفترة وجيزة عن مسائل لا أهمّية لها؛ لم أعد أتذكّر عن أي شيء تحدّثنا، حقيقةً. كلّ ما أتذكره هو أنّني وجدته غامضًا وغريب الأطوار إلى أبعد الحدود، كما لو أنّ كلامه كان يخفي شيئًا

آخر تمامًا. بشكل عام، شعرتُ بأنّه رجلٌ سرّيٌّ للغاية. عندما همّ بالمغادرة اعتذر مرة أخرى عن إزعاجي، ثمّ قال:

"أشعر بالملل من وقت لآخر ولا أعرف كيف يمكنني ملء أوقات فراغي. أقوم أحيانًا بتدبير بعض المقالب في أعضاء الشرطة لتمضية الوقت فحسب. لكنّ الأمر أصبح سهلًا جدًّا لدرجة أنّه لم يعد ممتعًا".

قال ما قاله بنبرة جدّيّة، لكنّي اخترت تفسير كلامه على أنّه مزاحٌ فحسب.

عندما وصل إلى الباب، التفت إليّ كما لو أنّه تذكّر شيئًا ما فجأةً ودعاني للذهاب في نزهة معه ذلك المساء: "إكرامًا للأيّام الخوالي". في البداية قلت له: "لا أرغب في ذلك" - لا أعرف لماذا حقًّا- لكن بعد أن فكّرت في الأمر قليلًا، قبلت دعوته. آخر ما قاله لي هو إنّه يجب ألّا آخذ معي أيّ أموال، فالاحتياط واجب، واقترح أن أترك أموالي مع صاحب المبنى. لم أفهم قصده، لكنّني وافقت على أيّ حال، ووعدته بأن أكون أمام مقهى "ذا هورس" The Horse في تمام الساعة الخامسة.

بعد أن غادر وأصبحت بمفردي مرّة أخرى، رحت أفكّر في هذا الرجل وفي كلّ ما قاله. كم هو أمرٌ غريبٌ أن يأتي لزيارتي. وماذا قَصَدَ عندما اقترح ألّا آخذ المال معي إلى النزهة؟ بدا لي كلّ شيء غريبًا للغاية، لكنّني سرعان ما نسيت الأمر برمّته، فعندما يسافر المرء، سرعان ما يتعرّف على مختلف الناس، ويمكن للغرباء أن

يصبحوا أصدقاءه في وقت قصير جدًّا. وصلت إلى مكان الموعد في الوقت المحدد.

كان الطقس معتدلًا والشوارع موحلة جدًّا لدرجة أنّنا اضطررنا إلى التنقّل بواسطة العربة. أغلقنا السقف والنوافذ وانطلقنا. توجّهنا غربًا عبر "كوبنهاغن"، متجاوزين "لاديغاردين" Ladegaarden، على طول شارع "رولي إدسفيه" Rolighedsvei ثم تجاوزنا محطّة المياه. لم نتبادل أطراف الحديث طوال هذا الوقت، بينما مشت العربة مصدرةً هديرًا مزعجًا جدًّا. عندما عبرنا جسر "غروندالس" Grøndals واقتربنا من "أوتيرسليف" Utterslev، أخرج الرجل الغريب حبلًا صغيرًا من جيبه وأخذ يلهو به وهو يحدّق بي بلا هوادة. رغمَ أنّ العربة كانت مظلمةً قليلًا، استطعت أن أرى ما كان يفعله بوضوح. كنا نجلس على المقعد ذاته، لكنّنا واجهنا بعضنا بعضًا وراقب كلٌّ منّا الآخر. فجأة قال لي:

"يبدو أنّك لست خائفًا، أليس كذلك؟".

"كلّا، لستُ خائفًا، وهل هناك ما يستدعي الخوف؟".

لكني، في الحقيقة، كنت أرتعد خوفًا، لدرجة أنّني فكّرت في رنّ الجرس على الفور لكي أنبّه السائق. لقد أزعجني كثيرًا ذلك الحبل الصغير الذي كان يعبث به أمامي مباشرة، لذلك نهضت وانتقلت إلى المقعد المقابل.

سارت العربة على هذا النحو لفترة وجيزة، وبعد مرور القليل من الوقت أشاح بنظره بعيدًا عنّي ووضع الحبل ببطء في جيبه، كما لو أنّه قد غيّر رأيه بشأن شيء ما، ثم جلس منتصبًا في مقعده فجأةً،

وراح يشير إلى الخارج من النافذة وكأنّه في حالة من الذعر الشديد، وقال:

"انظر! هناك!"

أدرت رأسي تلقائيًّا نحو الشارع، وإذ بي أشعر بقبضة جليدية تلتفّ حول رقبتي. كان ذلك الوغد قد وقف منتصبًا أمامي ليضع أصابعه الباردة حول حلقي. لم أعد أذكر ما إذا كنتُ قد صرخت حينها؛ لا أعتقد ذلك. ربّما أراد هذا الشخص إخافتي أو مضايقتي فحسب. كنت متأكّدًا من أنّه لم يكن ينوي خنقي، لكنّ فعلته أغضبتني، فدفعته إلى الوراء بكلّ قوّتي، إلّا أنّ قبضته بقيت ممسكةً بعنقي. بحثت ورائي عن الجرس لكي أرنّه، وتخبّطت قليلًا، لكنّي عثرت عليه أخيرًا وقمت برنّه. ما زالت قبضته لم تراوح مكانها. سمع بوضوح أنّ الجرس قد رن، لكنّه لم يدعني وشأني. تعاركنا لبعض الوقت، ولم تعرف صفاقته أيّ حدّ. ضربني أسفل أذني اليمنى مباشرة، متسبّبًا لي بجرح في منطقة الحلق؛ أعتقد أنّه كان يمسك بمسمارٍ أو مفكٍّ للبراغي، وأخذ يبرمه في جلدي. تألّمت كثيرًا. أخيرًا، تمكّنت من التخلّص منه بلكمة واحدة، وبدأت أضربه ضربات قوية وعنيفة في جميع أرجاء جسده. فجأةً فتح السائق باب العربة، وأدركت حينها أنّنا كنّا قد توقّفنا.

"هل نعود أدراجنا؟"، سَأَلَنا السائق.

خرجت من العربة مرتبكًا ارتباكًا شديدًا، إلّا أنّ الرجل الغريب ظلّ جالسًا مكانه بهدوء تام.

ثمّ قال: "نعم، لنعد أدراجنا".

قلت للسائق: "سوف أعود سيرًا على الأقدام. لا يهمّني أمر هذا الشخص مطلقًا؛ خذه إلى الجحيم إن شئت".

"سيرًا على الأقدام؟" كرّر السائق كلامي. "هل أنت متأكّد؟".

لزم الغريب الصمت، لم ينظر إليّ حتّى. في هذه اللحظة بالذات، انفجرت غضباً. عدت إلى العربة مرة أخرى وأغلقت الباب وصِحْتُ بالسائق: "انطلق!" شعرتُ بسبب غضبي الشديد بقوّة هائلة لم أعهدها من قبل.

التصقت به وأخذت أكبر مساحة ممكنة من المقعد، حاشرًا إيّاه في الزاوية، وتعمّدت ضربه عدة مرات بمرفقي. لم يقم الغريب بأيّ ردّة فعل إلّا بعد أن عدنا إلى "كوبنهاغن"، فابتسم وقال:

"حسنًا، أعتقد أنّك ستبلغ الشرطة عن هذه الحادثة، أليس كذلك؟"

لم أجبه.

كنت قد وضعت قبّعتي على المقعد المقابل لي حتّى أتمكّن من الجلوس منتصبًا في العربة، فوضع كلتا قدميه عليها، وضغط بكعبيه بقوّة على أعلى القبّعة حتى صدر منها صوتَ طقطقة. أصبحت مقتنعًا أكثر فأكثر بأنّ هدفه الوحيد كان إخافتي. شعرت بإذلالٍ لا يوصف.

ثمّ أردف: "إذا كنتَ تنوي الإبلاغ عني، فمن الأفضل أن تفعل ذلك على الفور. لن يتمكّن أيّ شخص من اعتقالي لأنّني سأرحل سريعًا. أؤكد لك ذلك. أستطيع أن أصل إلى "سكونِه" Skåne قبل بزوغ فجر الغد. سيكون الأمر مضيعةً للوقت بالنسبة لك!" وتابع الحديث على هذا المنوال، مشدّدًا على قدرته على الرحيل

في وقت قصير جدًّا. ثم فجأة قال: "أو قد لا أستطيع حمل نفسي على فعل ذلك؛ ربّما سأتشرّف بلقائك غدًا في شارع "أوستيرغاده" Østergade . ما رأيك؟"

لم يكن صوته ساخرًا مستفزًّا، بل منخفضًا وكئيبًا بعض الشيء. بحلول هذا الوقت، كانت قبّعتي قد سُحقت تحت قدميه.

أجبته قائلًا بأنّ الشرف الوحيد الذي سيناله هو تجاهلي الكامل له. إذا قابلته مرة أخرى فسوف أمرّ بقربه كما لو كان هواءً عابرًا، وإذا اعترض طريقي فسأمشي فوقه مباشرةً. قلت له إنّني لن أضيع وقتي في الإبلاغ عنه حتى لو كان ذلك أمرًا يودي به إلى حبل المشنقة. "أحتقرك احتقارًا شديدًا لدرجة أنّني لن أرهق نفسي في رميك إلى الخارج من نافذة العربة".

لم يكن بمقدوري فعل ذلك على أي حال، لكنّني قلت ما قلته، فهكذا يتحدّث المرء أحيانًا تحت وطأة الغضب، ولم يعترض على كلامي.

عندما وصلنا إلى باب مقهى "ذا هورس"، خرجنا من العربة. مشيت إلى المنزل -بلا قبّعتي- بينما قام هو بدفع الأجرة للسائق.

كان ذلك أوّل لقاءٍ بيننا. ما يزال أثر الضربة التي وجهها لي في ذلك المساء واضحًا على حلقي.

***

بعد ثلاث أو أربع سنوات تقريبًا، كنت في زيارة قصيرة إلى ألمانيا، متوجّهًا من "هامبورغ" Hamburg إلى "بريمرهافن" Bremerhafen. أَبْلُغُ المحطة قبل موعد انطلاق القطار بعشر دقائق، وأقضي وقتًا ممتعًا هناك. أمشي في القطار بحثًا عن مقعد جيّد وأصل إلى آخره تقريبًا، حيث يكون المحرك، وإذ بي أرى رجلًا يلوّح لي من نافذة مقصورته. يا للعجب! إنّه "صديقي القديم" الذي ذهبت معه في رحلة في "كوبنهاغن"، ذلك الرجل ذو العيون الداكنة. تعرّفت عليه على الفور.

أُجفل فجأةً من دهشتي، وأشعر بعدم ارتياحٍ شديد، فأمشي متجاوزًا مقصورته فورًا. لكنّي عندما فعلت ذلك، خَطر لي أنّني ربّما أعطيته انطباعًا بأنني خائفٌ منه. وبما أنّني صرت الآن أكبر سنًّا، على أيّ حال، لم أرغب بتفويت فرصة لقاءٍ ثانٍ مع هذا الشخص المثير للاهتمام. لذلك استدرت إلى الوراء، متظاهرًا بأنّني ما زلت أبحث عن مقعد في القطار، وتوقّفت خارج مقصورته مدّعيًا اللامبالاة. أفتح الباب وأدخل.

كان جالسًا في المقصورة بمفرده.

مررت أمامه مباشرةً لدى دخولي، فأرجع ركبتيه إلى الوراء لكي يفسح لي المجال، رافعًا نظره إليّ كما لو أنه لم يرني من قبل. لكنّي كنت متأكدًا من أنّه لوّح إليّ قبل بضع دقائق فقط، حتى أنّني لمست أعلى قبّعتي رغمًا عنّي وأومأت إليه، لكنّ تحيّتي لم تلقَ ردًّا.

جلستُ في الزاوية ووبّخت نفسي بسبب تلك الإيماءة، وتأهّبت لكي أتعامل معه بأكبرِ قدر من التجاهل والإهمال. بدا لي أنّه لم

يتقدّم في السنّ مطلقًا منذ لقائنا الأوّل، لكنّ هندامه صار مختلفًا. في السابق، كانت ثيابه أنيقة إلى حدٍّ ما. أمّا الآن فارتدى ثيابًا بسيطة بألوان فاتحة تناسب المسافرين. على المقعد المقابل له تمامًا كانت هناك حقيبةٌ جلديّة.

رن الجرس وانطلق القطار.

استرخيت ووضعت قدميَّ على المقعد. مرّ من الوقت ربع ساعة تقريبًا، وتصرّفت كما لو أنّ رفيقي في السفر لم يكن يعنيني بشيء. بدا لي أنّه كان تائهًا في فكره.

مدّ يده إلى جيبه الداخلي وأخرج منه كيسًا مصنوعًا من القماش الزيتيّ يشبه علبة أدوات الإسعافات الأوليّة. فتحه وأخرج منه بعض الأدواَت الحديديّة الصدئة وأخذ يتفحّصها واحدةً تلو الأخرى. كانت أدواتٍ غريبة لها خطّافات، بعضها مسطّح الشكل، بعضها مستدير، وبعضها الآخر كان أملسَ مقارنةً بسائر الأدوات، وتفاوتت أحجامها بين الكبير والصغير. اتّضح لي فورًا أنّها كانت مجموعة من العَتَلات، إذ أنّه لم يحاول بأيّ شكل من الأشكال إخفاء ماهيتها. راح يتحسس تلك الأدوات ويقلّبها بين يديه بأريحيّة تامّة؛ شعرت أنّه كان فعلًا يمارس فتح الأقفال بها، حتى أنّه حاول فتح حقيبته مستخدمًا اثنتين منها. أعتقد أنّه تعمّد فعل ذلك لكي يريني الغرض من امتلاكه لهذه العتلات الحديدية. جلست في مكاني واكتفيت بالمشاهدة طوال هذا الوقت.

"انتبه!" قلت لنفسي. "إنه يحاول استفزازك عمدًا. لا بدّ أنّ هناك سرًّا وراء هذه التصرّفات. إنّه يستدرجك؛ يريد استمالتك بطريقةٍ ما".

بعد عشر دقائق، أخرج مبردًا صغيرًا برّاقًا من جيب قميصه وشرع في تنظيف عتلاته، وكّلما انتهى من شحذ واحدةٍ منها وضعها على المقعد بجانبه. ومع أنّه لاحظَ كيف كنت جالسًا -واضعًا كلتا ساقي على مقعده وموجّها قدمي نحوه، حتّى أنّ حذائي كاد يلامس معطفه- لم يعرني انتباهه واستمرّ في برد أدواته الحديديّة.

ثمّ وضع إحداها على ساقي بعد أن شحذها، من غير أن ينتبه، وكأنّه كان شارد الذهن. راح هذا الرجل يستخدمني كطاولةٍ للعمل، فجلست هناك وسمحت له بفعل ذلك؛ لم أحرّك ساكنًا، وانتظرت أن يكرّر الأمر مرّة أخرى. وكما اعتقدت، استمرّ بوضعها على ساقي واحدةً تلو الأخرى. كان يتصرّف كما لو كنتُ وسادةً أو جزءًا من المقعد. بعد أن انتهى، كان هناك ستّ من تلك العتلات الصغيرة على طول ساقي.

ثم هممت بالوقوف. لم أنهض فجأةً، بل بسرعة تكفي لإسقاطها جميعها قبل أن يتمكن من الإمساك بها. شيءٌ واحد فقط كان يجوب ذهني حينها: أن أبادله مشاعر الازدراء العميق.

لم يقل حرفًا واحدًا عندما رآها سقطت، والتقطتها بصمتٍ، واحدةً تلو الأخرى.

في تلك اللحظة بالذات حضر مُحصِّلُ التذاكر، ولدهشتي الشديدة، لم يكلّف الرجل الغريب نفسه عناء إخفاء الخطافات إطلاقًا، بل تركها على المقعد أمام أعين المُحصِّل طوال الوقت، ولم يضع الكيس ومحتوياته في جيبه إلا بعد أن رحل. ظننت أنّه كان ينتظر مثل هذه الفرصة لكي يستعرض أدواته الخطرة.

سار القطار لمدّة نصف ساعة أخرى. مرّ بالكثير من المحطات، ثمّ توقّف، ثمّ تابع السير، وما زال رفيقي في السفر لم يقل شيئًا. تعمّدتُ التصرّف كما لو كنت بمفردي في المقصورة: واضعًا كلتا قدمي على المقعد مرة أخرى، متثائبًا بصوتٍ عال، وبين الحين والآخر، دندنت بعض الأغاني، لكي يعلم أنّي كنت لا آبه به البتّة. لكن لم تبدُ عليه علامات الانزعاج مطلقًا. فأشعلتُ سيجارًا وألقيت بعود الثقاب المحترق على يده بلا مبالاة، متظاهرًا بأنّ أحدًا لم يكن يجلس على المقعد المقابل لي، ورأيت بأمّ عيني عود الثقاب يرتطم بيده. ارتعش فمه بعض الشيء وباعد بين شفتيه قليلًا، كما لو أنّه كان يريد أن يبتسم. تلك كانت ردّة فعله الوحيدة تجاه ما قمت به. عدا عن ذلك، جلس بهدوء طوال الوقت.

قطع القطار المزيد من المسافات، وما يزال الصمت سائدًا في مقصورتنا. فجأةً، نظر من النافذة إلى الخارج حين رأى الريف، ونهض بسرعة ممسكًا بحزام حقيبته. ظلّ واقفًا هكذا لبضع دقائق إلى أن توقف القطار عند محطّة صغيرة. ثمّ انحنى أمامي بشكل مثير للسخرية، ولم يقل أيّ شيء. لم ينظر إليّ حتى. أخذ بضع خطوات إلى الوراء، وانحنى مجدّدًا، راسمًا ابتسامةً عريضةً على وجهه، ثم

استدار وخرج من المقصورة. نادى على حمّال الحقائب لكي يحمل أمتعته، ومشى في طريقه.

لم ينظر إليّ ولم يقل لي حرفًا واحدًا طوال تلك الرحلة.

***

مرّت السنوات -ثلاث سنوات على وجه التحديد- والتقيت به مرّة أخرى في مكانٍ غامض من مدينة "نيويورك": في وكرٍ للقمار. كنت قد وصلت قبله وجلست على طاولة "الروليت". عندما دخل، عرض عليه أحد الخدم أن يأخذ قبعته ومعطفه لكي يعلّقهما على المشجب، لكنّه هز رأسه رافضًا. بعد بضع لحظات، خلع قبّعته وحملها في يده، ثم توجّه نحو طاولة "الروليت".

جلس الرجل بعد أن أفسح له اللاعبون المجال، وبدأ اللعب. بدا لي أنّه كان يتابع رهاناتي عن كثب، مهتّمًا بها أكثر من رهاناته. كنت أخسر باستمرار، مهما حاولت، أجرّب مرارًا وتكرارًا، وأخسر دائمًا. ربّما كان هذا ما أثار اهتمامه كثيرًا.

فجأةً قال لي باللغة النرويجية:

"ألا تدرك أنّك تتعرض للغش؟".

كان في ذلك مخاطرة كبيرة، فلو أنّ أحدًا من الجالسين فهم كلامه لَأراق دمه قبل أن يتمكّن من الهروب. لكنه قال ما قاله على أي حال، بصوتٍ مسموع، ونظر إليّ مباشرة وهو يتحدث.

تظاهرت بأنّني لم أسمعه، وواصلت اللعب وكأنّ شيئًا لم يكن، وتكبّدت خسائر فادحة، طبعًا. فجأةً شعرت بعنادٍ شديد حارق،

وقلت لنفسي إنّه إذا حاول هذا الشخص حشر أنفه في شؤوني الخاصّة مرة أخرى، فسوف أخبر المشرف على اللعبة. لكنّي كنت غاضبًا ومستاء، فلم يعد لديّ أدنى شكّ في أنّني كنت أتعرّض للغش: كان المشرف يحمل مفتاحًا في يده ويضعه خلسةً بالقرب من عجلة "الروليت" كلّما أوشكتْ على التوقّف، وخطر لي بالفعل قبل قليل أنّ هذا المفتاح قد يكون مغنطيسًا. لكنّني اخترت ألّا أفعل أيّ شيء حيال ذلك، وواصلت اللعب وخسرت جميع رهاناتي.

"ضع هذا المفتاح في جيبك!".

كان صوته باردًا متسلّطًا، فأطاعه المشرف على الحال، موضّحًا أنّ ذلك كان مفتاح الخزينة، لذا حمله في يده للضرورة فحسب. إلا أنّه فعل ما قيل له مباشرةً. وجدت طاعته هذه مهينةً وشعرت بالغضب منه. وضعت آخر رهان لي على اللون الأسود، ووقفت وغادرت غير مكترثٍ أن أنتظر لأرى ما سيحدث.

بعد ذلك، لم أقابل الرجل الغريب مرّة أخرى إلى أن حلّ الشتاء في "كريستيانيا" السنة الماضية. كنت أعيش في "سان هانس هيل" St. Hans' Hill آنذاك، في غرفة في الطابق الرابع. عندما عدت من غرفة الطعام بعد وجبة العشاء ذات يوم، وجدت صديقي الغامض يقف وسط غرفتي. كنت قد تركت المفتاح في الباب، فدخل إلى غرفتي بكل بساطة. وجدته باسطًا يده مطالبًا إيّاي بـ 16 كرونة - 16 كرونة! - ثم شكرني بكلّ تواضع مرتين، ثم توجّه إلى الباب. تمهل وقال لي: "يا إلهي، كم أنت غبي!".

قال ما قاله مواجهًا الباب، بنبرة مشبعةً بالاحتقار. فجأةً استفاق في داخلي كرهي القديم له، فأخذت بضع خطوات نحوه. عندما رأيت أنّه كان على وشك فتح الباب والاختفاء، لم أستطع تمالك نفسي، وقلت له:

"انتظر! هل سرقت أيّ شيء من غرفتي؟" قلت ذلك بكل صراحةٍ بغية إيذائه. كنت أعلم أنّه لم يسرق شيئًا، لكنّي رغبت في إذلاله فحسب.

لم يبدُ لي أنّه شعر بالإحراج أو الغضب إزاء سؤالي. التفت نحوي ببساطة وقال مستغربًا: "هل سرقت منك؟".

ثمّ جلس على الكرسي، وأخرج من جيب قميصه بعض الأوراق. من بينها كانت هناك خريطة طريق ومحفظة حمراء صغيرة محشوّةً بالمال بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. كانت تحتوي على المئات والمئات من الكرونات.

"وهل تملك أيّ شيءٍ يستحقّ السرقة؟" قال لي مبتسمًا.

لقد تفوّق عليّ مرة أخرى؛ لطالما تفوّق عليّ وأذلّني وحكم عليّ بالخزي. ثمّ وقف وغادر الغرفة. لم أقم بأيّ ردّة فعل. لم أحاول منعه من المغادرة. تركته يذهب. كلّ ما فعلته هو أنّني عندما سمعت خطواته على الدرج فتحت الباب وأغلقته بعنف حتى تردّد صدى إغلاقه في المبنى بأكمله.

لقد دفعه احتقاره لي لأن يترك وراءه الـ 16 كرونة التي أخذها منّي. وجدتها على الكرسيّ الذي كان يجلس عليه. وبسبب خزيي

وغضبي تركتها هناك لعدّة أيّام قبل أن أضعها في جيبي مرّة أخرى؛ كنت آمل أن يعود ويلاحظ أنّني لم آبه لأمرها.

عَلِمْتُ في وقتٍ لاحقٍ أنّه كان قد زار مالك العقار أيضًا وتصرّف أمامه بطريقة مريبة جدًّا. قال لي مالك العقار، الذي عَمِلَ كشرطيّ، إنّه أراد التخلّص منه بشتّى السبل؛ في رأيه كان ذلك الرجل الدخيل مجنونًا: لقد حاول شراء إبريق القهوة الهولندي النحاسي العتيق الذي وضعه المالك على موقده، وأصرّ على شرائه مهما واجه من رفض.

هذه هي تفاصيل لقاءاتي العديدة بهذا الشخص الغريب جدًّا. لقد تمكّنت مؤخّرًا من التفكير فيه بشكل يخلو من كل أشكال الضغينة. إنّه يثير اهتمامي كثيرًا، وأتطلع إلى مقابلته مرّة أخرى. أعتقد أنّني أصبحت أفهم طبيعته وسلوكه السخيف. قبل بضعة أشهر فقط، كنت قد قابلت امرأةً في الثلاثينيات من عمرها. أخبرتني أنّها ارتكبت ذات مرة جريمة كان من شأنها أن تزجّها في السجن، لتقتات على الماء والخبز لعدّة أيّام، وما زالت تلك الحادثة تقضّ مضجعها كثيرًا، ليس بسبب شعورها بتأنيب الضمير أو الندم، بل لأنّها كانت تتوق توقًا شديدًا لأن يكتشف الناس فعلتها. بسبب ما أخبرتني به، صرت قادرًا على تفسير تصرّفات ذلك الرجل قليلًا. حتّى أنّها تعمّدت أحيانًا إثارة ريبة الآخرين ودفعهم للشكّ بها، لكن بلا جدوى. لقد جعلها نجاحها في إخفاء جريمتها تتصرّف بطيش وإهمال. لقد سئمتْ من عدم الكشف عن فعلتها خصوصًا عندما شاركت بنفسها في فضحها. لقد أخذتْ التدابير اللازمة لجعل سرها صعب الكتمان. ثمّ أثارت شكوك الناس عمدًا، لكنّ جميع

محاولاتها باءت بالفشل. لم يشكّ بها أي أحد مهما فعلت، ولم يُبلغ عنها أحدٌ على الإطلاق.

دفعتني ظروف قصّتها إلى التفكير في صديقي الغامض، ذلك الرجل ذو العيون الداكنة. لا شك أنه كان يمنّي نفسه مرارًا وتكرارًا في أن تحرّضني تصرّفاته على إبلاغ الشرطة عنه. لكنّه فشل في هذا.

لقد كان شخصًا عظيمًا، روحه ملطّخةٌ ومنحرفة بشكل غريب. كان إنسانًا يعاني من آلام نفسية؛ معاناةٌ كان سببها أنّه أخفى سرًّا قد يجلب له العار، لكن قُدّر لسرّه ألّا يكتشفه أيّ مخلوق إطلاقًا.

ملكة سبأ

يسافر المرء أحيانًا، ويتجول في مختلف المدن والأماكن، وقد يلتقي فجأةً بأشخاص يعرفهم في أغرب الأماكن، بحيث ينسى من حجم المفاجأة خلع قبّعته لكي يلقي التحية عليهم.

أواجه هذا الأمر في كثير من الأحيان، ولا يسعني فعل أيّ شيء حياله.

في مطلع العام الجاري، مررت بتجربةٍ ترتبط على نحوٍ غريب بشيء حدث لي سنة 1888، منذ أسبوع تقريبًا على وجه التحديد، عندما كنت في رحلة قصيرة إلى السويد. كان الأمر بسيطًا جدًّا ومحيّرًا. بدا أنّ كل شيء حدث بشكل طبيعي. وربّما لا داعي حتّى أن أقصّ عليكَ ما حصل. لكنّني سأبذل قصارى جهدي.

آخر مرّةٍ التقينا فيها، سألتَني ... حسنًا، من المؤكّد انّك تتذكّر سؤالك، لذا لستُ بحاجة إلى تكراره. لكنّ إجابتي في تلك المناسبة كانت على النحو التالي: يبدو لي أنّ جميع محاولاتي تلقى المصير ذاته؛ أشعر أنّ هناك شيءٌ ما يعترض طريقي أينما ذهبت. لقد قابلني الجميع بالرفض. وسوف أثبت لك الآن أنّني لم أكن أكذب. كنت أقول لك الحقيقة. كنت على وشك النجاح في المحاولة الأخيرة، لكنّي قوبلت بالرفض أيضًا، وأنا عاجزٌ عن تغيير هذا الحال.

في عام 1888، حصلتُ صدفةً على القليل من المال. كنت أنوي السفر إلى مكان ما، وكان كلّ شيء عاديًّا للغاية. شققت طريقي إلى السويد سيرًا على الأقدام، متتبّعًا خطّ السكّة الحديدية والقطارات تمرّ بي يومًا بعد يوم. قابلت العديد من الناس على طول الطريق، وكان جميعهم يقول لي: "كان الله في عونك!" وكنت أقول لهم "كان الله بعونكم" أيضًا، فلم يخطر في بالي أي إجابةٍ أخرى. عندما وصلت إلى "غوتنبرغ"، كان حذائي قد تمزّق إربًا. لكن ليست هذه هي الحادثة التي أقصدها.

الحادثة التي أريد سرد تفاصيلها وقعت حتّى قبل أن أصل إلى "غوتنبرغ". دعني أطرح عليك هذا السؤال: عندما تنظر إليك امرأةٌ من النافذة ومن ثمّ لا تعيرك أيّ اهتمام لاحقًا، فإنّك سوف تتجاهلها حتمًا، أليس كذلك؟ لا داعي لأن تُشكّل أيّ أفكار حول موقفٍ كهذا؛ أحمقُ هو من يفعل ذلك بعد نظرة سريعة واحدة فقط. ولكن عندما لا تكتفِ السيدة بالنظر إليك بأكبر قدرٍ من الاهتمام، بل تعطيك مفتاح غرفتها وتسمح لك بالنوم على سريرها الخاص في محطة استراحةٍ سويدية... ألن تتساءل عمّا يدور في ذهنها؟ ألن تتشكّل لديك بعض الأفكار؟ هذا ما حصل معي. وظلّت هذه الأفكار تجوب ذهني حتى النهاية. في الأسبوع الماضي، كلّفني الأمر عناء رحلة مؤلمة إلى "كالمار" Kalmar...

وصلت إلى محطّة استراحة "بوربي" Börby في ساعةٍ متأخّرة من المساء، إذ كنت قد بدأت بالمشي منذ الصباح الباكر، لذلك قرّرت التوقف وأخذ قسط من الراحة. ذهبت إلى الداخل وطلبت

الطعام وغرفةً للنوم. فقيل لي إنّهم يستطيعون تقديم الطعام، لكنّ جميع غرف النُّزل كانت مشغولة.

كنت أتحدّث إلى فتاة يافعة (اكتشفت فيما بعد أنّها ابنة مالك المحطّة). نظرت إليها وادّعيت أنّني لم أفهم أنّ جميع الغرف كانت مشغولة. يا ترى، هل كانت تحاول تذكيري بأنّني نرويجي، وأنّني أمثّل عدوًّا سياسيًّا للسويد؟

"يوجد الكثير من العربات هنا"، قلت لها مظهرًا لامبالاتي.

فأجابتني: "نعم، سوف يقضي الليلة هنا العديد من الناس الذين في طريقهم إلى السوق. لا أعتقد أن لدينا سريرًا واحدًا شاغرًا".

ثمّ خرجتْ لإحضار طعامي، وعندما عادت شدّدتْ مرّة أخرى على مدى انشغال نُزِلِ المحطّة:

"بإمكانك الذهاب إلى المحطة التالية، إلى "أوتيران" Ytterån، أو عد أدراجك قليلًا. فكما قلت لك، نُزلنا ممتلئ كليًّا".

يا لها من طفلة بريئة. لم أعاتبها إطلاقًا، ولم أرغب في خوض نقاش حادٍّ معها بلا سبب. لكن، في الوقت ذاته، لم يكن لديّ أيّ نية في المغادرة قبل الصباح. ها أنا ذا في محطة استراحة عامة، ولا بدّ أن أبيت فيها.

قلت لها: "الطقس جميل اليوم".

فأجابت: "نعم. لذا فإنّ أفضل شيء يمكن أن يفعله المرء هو أن يمشي إلى "أوتيران" هذا المساء. ليست بعيدةً من هنا: ستّة أميال فقط".

شعرت في هذه اللحظة أنّها بدأت تتجاوز حدودها قليلًا، فقلت لها برويّةٍ وجدّية:

"بطبيعة الحال، هذه محطة استراحة، وكنت آمل في الحصول على غرفة للنوم هنا الليلة. أنا متعب جدًّا، ولا طاقة لي على المشي في هذا الوقت المتأخّر".

"لكنّ جميع الغرف مشغولة! لا يسعني فعل أيّ شيء".

جلستُ ببطء شديد على أحد الكراسي.

لقد شعرت بالأسف على الفتاة بعض الشيء. لا أعتقد أنّها تعمّدت أن تزيد من مشقتي. كان وجهها صادقًا، واستطاعت السيطرة على كراهيتها للنرويجيين بشكل جيد جدًّا.

قلت لها: "هيّئي لي سريرًا للنوم أينما تريدين. ما رأيك بالأريكة هنا؟ لا مانع لدي في ذلك".

لكن حتّى الأريكة لم تكن متاحة.

بدأتُ أشعر بالقلق قليلًا. فأنا أعرف السويديين حقّ المعرفة وأعرف أنّهم لا يحسنون تقدير المسافات. "الستة الأميال" التي ذكرتْها ستكون كفيلةً بإهلاكي تمامًا.

قلت لها: "أرجو أن ترأفي بحالي. ألا ترين أنّ حذائي مهترئ بالكامل؟ كلّي ثقةٌ بأنّك لن تطرديني وأنا أرتدي حذاءً ممزّقًا كهذا. أليس كذلك؟".

"لكنّ حذاءك لن يكون بحالٍ أفضل غدًا، صحيح؟" أجابتني بابتسامة.

كانت محقّةً في ذلك، ووجدت نفسي عاجزًا. ثم فُتح الباب ودخلت منه فتاة يافعة أخرى على عجل.

كانت تضحك بعض الشيء على شيء شاهدتْه منذ قليل وكانت تفكّر فيه، وفمها مفتوحٌ متأهب لرواية القصة. لم تتوقّف عن الضحك عندما لاحظت وجودي، واكتفت برمقي بنظرها لبضع ثوانٍ، حتى أنّها أومأتْ لي برأسها. ثم قالت بهدوء:

"كيف الحال، يا "لوتا" Lotta؟".

لم أستطع سماع ما قالته "لوتا"، لكنّهما كانتا تتهامسان حولي. جلست أراقبهما، منتظراً، مستمعًا لهما، وكأنّ مصيري كان معلّقًا على محادثتهما. نظرَتَا نظرةً خاطفةً إلى حذائي وراحتا تضحكان. ثم هزّت الشابة الأخرى رأسها وهمّتْ بالمغادرة.

عندما وصلتْ إلى الباب استدارت فجأةً كما لو أنّها تذكّرت شيئًا ما للتو وقالت:

"لكن بإمكاننا أن ننام سويًّا في غرفتكِ الليلة، يا "لوتا"، وبذلك يمكنه النوم في غرفتي".

فأجابتها "لوتا": "كلّا. لا بدّ أنّك تمزحين، يا آنسة. أليس كذلك؟"

"كلّا. أنا جادّة فيما أقوله!"

ساد الصمت قليلًا ريثما فكّرت "لوتا" في الأمر.

"حسنًا، إذا كنت تريدين فعل ذلك، يا آنسة... "، التفتتْ إليّ ثمّ تابعت:

"ترغب هذه الشابة في التخلّي عن غرفتها لك".

فجأةً قفزتُ في مكاني، ووجّهتُ أصابع قدميّ إلى الخارج وانحنيت لهما. أعتقد أنّني أحسنت التصرف حينها، وتشكّرتُ الشابة، وقلت لها: "سيدتي العزيزة! إنّني لم أر لسخائك مثيلًا في حياتي؛ إنّ قلبك جميل مثل عينيك الجميلتين." وانحنيت مجدّدًا، محسنًا التصرّف مرّة أخرى.

نعم، لا شكّ في أنَ ردّة فعلي كانت ممتازة. فقد احمرّت الفتاة خجلًا وركضتْ نحو الباب وهي تضحك، بينما وقفتْ "لوتا" على كعبيها.

جلستُ هناك أفكر في تلك الحادثة. لقد جرى كل شيء بشكل جيّد؛ كانت تضحك واحمرّت خجلًا. يا لها من بداية رائعة. كانت تلك الفتاة يافعة جدًّا، ربما في سن الثامنة عشر؛ عظام خدّيها بارزة ولديها غمّازة في ذقنها. لم ترتدِ وشاحًا أو أيّ شيء آخر حول رقبتها، ولم يكن هناك أشرطةُ لِياقَةِ ثوبها أيضًا. لم أرَ سوى رباطًا حول خصرها.

لقد أعجبتني تلك النظرة المُثقَلة المظلمة التي علت وجهها الجميل، وكم هو أمرٌ رائع أنّني لفتُّ انتباهها كثيرًا. رأيتها بعد ساعة في الفناء، تجلس في إحدى العربات الفارغة، ممسكةً بسوط ورافعةً إيّاه إلى أعلى شاطرةً الهواء نصفين. كانت يافعةً جدًّا، مليئةً بالطاقة والحيوية. جلستْ هناك بمفردها تدندن بعض الألحان وتتظاهر أنّها تضرب الحصانين بالسوط كما لو أنّها تقود العربة؛ خطر لي أن أحرّرهما لِأجرّ العربة بنفسي ورفعتُ قبعتي. كنت على وشك

أن أحيّيها عندما وقفتْ فجأةً: سيدةٌ طويلة بهيّةٌ مثل ملكة على عرشها، نظرتْ إليّ للحظةٍ ونزلت من العربة. لن أنسى تلك اللحظة ما حييت. لم يكن هناك أيّ أسباب حقيقية تدفعها للتّصرف على هذا النحو، لكنّها حقًّا بدت مدهشة حين وقفت وترجّلت. ارتديت قبعتي ومشيت بعيدًا، مهزومًا ومُحرَجًا. اللعنة على تلك الفكرة. ماذا دهاني! أردت جرّ العربة بنفسي!

لكن من ناحية أخرى: ما خطبها هي؟ ألم تعطني مفتاح غرفتها للتو؟ ما سبب هذه البرودة المفاجئة؟ قلت في نفسي: إنّها تلهو وتتظاهر فحسب. أعرف تلك الحيل. تريد أن تراني أتلّوى أمامها شوقًا وفضولًا. حسنًا، لا مانع لديّ في ذلك: سأتلّوى من أجلها!

جلستُ على الدرج وأشعلت غليوني، وشاهدت الباعة الجوّالين يجيئون ويذهبون من حولي. بين الحين والآخر، كانت تصدر من داخل النّزُل أصوات فتح الأغطية الفلّينية وتتبعها قعقعة كؤوس النبيذ. لكنّني لم أرَ تلك الشابة خارج النزل في هذه الأثناء.

لم يكن بحوزتي أيّ كتاب لكي أقرأه؛ كلّ ما كان لديّ هو خريطة السويد. جلست هناك ورحت أدخّن، مؤنّبًا نفسي. أخيرًا، أخرجتُ الخريطة من جيبي وأخذت أطالع محتواها. تمرّ الدقائق، وتظهر "لوتا" عند الباب، لتقول لي إنّ غرفتي جاهزةٌ إذا كنتُ مستعدًّا لرؤيتها. بما أنّ الساعة كانت العاشرة ليلًا، نهضتُ وتبعتها. التقينا الشابة في الممر.

حدث شيءٌ حينها أتذكّر جميع تفاصيله بدقة: كانت جدران الممرّ الخشبيّة قد طُليت حديثًا، لكنّني لم أكن أعرف ذلك. فجأةً رأيت السيّدة الشابة تتّجه نحونا، فَتنحيّتُ جانبًا لكي تعبر، وإذ بالضرر يقع فجأةً، وتصرخ الشابة:

"الطلاء... !".

لكنّ الأوان كان قد فات، فقد التصق كتفي الأيسر بكامله بأحد اللوحات الخشبية.

نظرت إليّ بذعر تام، ثم وجّهت نظراتها إلى "لوتا" وقالت لها هذه الكلمات بحذافيرها:

"ماذا سنفعل حيال ذلك؟".

فأجابتْها "لوتا" بأنّ أفضل شيء يمكن فعله هو فرك كتفي بشيء ما، ثم انفجرت ضاحكةً.

خرجنا لنقف على الدرج مرّة أخرى، وعثرتْ "لوتا" على خرقة لكي تنظف بها كتفي. ثم قالت لي: "أرجوك اجلس، وإلا فلن أتمكن من تنظيفه". لذلك جلست، وبدأنا ندردش.

صدق أو لا تصدق، بحلول الوقت الذي افترقنا فيه ذلك المساء، تشكلّت لديّ آمال كبيرة حول علاقتنا. جلسنا هناك نتحدث ونضحك ونثرثر حول شتى المواضيع. لقد ثرثرنا لمدة ربع ساعة على الأقل. لكن ماذا يعني ذلك؟ حسنًا، لا أقصد المبالغة في تقدير ما حدث؛ لكن ما أريد أن أقوله هو أنّني أعتقد أنّه عندما تقضي امرأة شابة خمس عشرة دقيقة بمفردها في الدردشة مع رجلٍ ما، فلا بدّ أنّها تضمر في نفسها شيئًا ما. أضف إلى ذلك أنّها تمنّتْ لي ليلة

سعيدة مرتين عندما تصافحنا وافترقنا، ثمّ قالت لي: "ليلة سعيدة" مرّة ثالثة قبل أن تغلق الباب. ثم سمعتُ الاثنتين تضحكان بنبرة مرحة. نعم، بالفعل، كان مزاجنا عاليًا جدًّا ذلك المساء.

أذهبُ إلى غرفتي، أو بالأحرى، غرفتها. كانت غرفةً فارغةً عاديّةً مثل جميع غرف محطات الاستراحة، جدرانها زرقاء وفيها سرير صغير لا يرتفع عن الأرض كثيرًا. وجدت على الطاولة هناك ترجمةً لكتاب "أمير آل داوود" The Prince of the House of David لـ"إنغرام"* Ingraham، فاستلقيتُ وأخذت أطالع صفحاته، بينما استمرّت الفتاتان بالضحك في غرفة "لوتا". يا لها من فتاةٍ لعوب فاتنة! ويا لتلك النظرة الكالحة التي تعلو وجهها اليانع! لقد انبعثت الحياة من صوت ضحكاتها، على الرغم من سلوكها المتغطرس!

جابت الأفكار ذهني، وتوهّجت صورتها بصمت وعنفوانٍ في قلبي.

استيقظتُ في الصباح التالي، في الساعة التاسعة، وشعرت بشيء حادٍّ يغرز خاصرتي: كنت قد نمت طوال الليل على كتاب "أمير آل داود". نهضتُ وارتديت ملابسي ونزلتُ إلى الطابق السفلي وتناولت وجبة الإفطار. لم أرَ تلك الشابة مطلقًا. انتظرت نصف ساعة، لكن لا أثر لها. أخيرًا سألتُ "لوتا" بنبرةٍ متحفّظة عنها.

"لقد رحلت، ألم تلاحظ ذلك؟"، أجابتني "لوتا".

رحلتْ؟ ألم تكن تقطن هنا، في محطة الاستراحة؟

---

* جوزيف هولت إنغرام (1809 - 1860) Joseph Holt Ingraham؛ كاتب أمريكي. (المترجم).

كلا، قالت لي "لوتا" إنّ تلك الشابة تقيم في مزرعة وإنّها غادرت في الصباح الباكر، متوجّهةً على متن القطار إلى "ستوكهولم".

شعرتُ بذهولٍ عجيب. بالطبع، لم تترك لي أيّ رسالة أو حتّى ملاحظة صغيرة. تملّكني الإحباط لدرجة أنّني لم أسأل "لوتا" عن اسمها حتّى؛ لا شيء يهمني بعد الآن... حذارِ أن تثق في إخلاص النساء.

رحت أتجوّل في "غوتنبرغ"، هائمًا على وجهي وفي قلبي حرقةٌ عميقة. لم أتوقّع حصول ذلك نهائيًا: فقد بدت تلك الفتاة بهيّةً وصادقةً جدًّا! لكن لا بأس: قرّرت التعامل مع الموقف كرجل. لا ينبغي أن يعرف أحدٌ في النّزل عن حجم معاناتي.

في ذلك اليوم بالتحديد، كان مقرّرًا أن يعرض "يوليوس كرونبرغ*" Julius Kronberg لوحته العظيمة "ملكة سبأ"** في "غوتنبرغ"، فذهبت لرؤيتها. لقد أسَرَتْني حقًّا. لكنّ الشيء الغريب هو أنّ الملكة في اللوحة كانت تشبه تلك السيدة الشابة بشكل ملحوظ، ولا أقصد أنّها تشبهها في ضحكاتها وغنجها، بل في أسلوب وقوفها عند تلك العربة الفارغة. الله وحده يعلم أنّني شعرت حينها بالمزيد من الألم في قلبي!

لم تمنحني تلك اللوحة أيّ شعورٍ بالسلام، لأنّها ذكرتني كثيرًا بالسعادة التي فقدتُها. إلّا أنّها ألهمتني ذات ليلةٍ أن أكتب مقالتي الشهيرة "ملكة سبأ"، والتي ظهرت في مجلة "داغبلاديت" Dagbladet في 9 ديسمبر من عام 1888. وفيما يلي مقتطفٌ منها:

---

* يعد كرونبرغ (1850 - 1921) من أبرز الفنانين في تاريخ السويد. (المترجم).

** لوحة حقيقية رسمها كرونبرغ سنة 1888، وتعد من أهم أعماله. (المترجم).

إنها امرأةٌ إثيوبية ناضجة، تبلغ من العمر 19 عامًا، ذات جمال أخّاذٍ مُغرٍ، ملكةٌ تطفح بالأنوثة... بيدها اليسرى، تكشف الحجاب عن وجهها وتحدّق في الملك. من الواضح أنّ بشرتها ليست داكنةً تمامًا، كما أنّ الإكليل الفضي الذي ترتديه يطغى على لون شعرها الغامق. تبدو وكأنّها امرأة أوروبية صالت وجالت في الشرق فاكتسبت سمرةً من الشمس الحارقة، لكنّ ظلام عينيها يكشف عن أصولها الحقيقية: نظراتها الحادّة والمحتدمة في آن واحد تجعل المتفرّج عليها يجفل من هيبتها. لا يمكن أن ينسى المرء تلك العيون، سيتذكرها في أقصى الأماكن، وسيراها في أحلامه ...

إنّ لعينيها سرًّا خاصًّا جدًّا؛ اسأل أيّ شخص، وسيقول لك إنّه لا يمكن لأحدٍ أن يكتب مقالةً كهذه ما لم يشعر بذلك في قلبه. ومنذ ذلك اليوم، صار قلبي يشير إلى تلك الفتاة الرائعة التي التقيت بها في محطّة استراحة بوربي على أنها ملكة سبأ.

***

طبعًا، لم تنته قصتي معها بعد، إذ أنّني رأيتها مرة أخرى بعد أربع سنوات، وكان ذلك قبل حوالي أسبوع واحد من اليوم.

كنت مسافرًا من "كوبنهاغن" إلى "مالمو" لكي ألتقي بشخص ما هناك. تذكّر أنّني أقصّ عليك هذه التفاصيل كما حدثت تمامًا. بعد أن وضعت أمتعتي في غرفتي في فندق "كرامرس" Kramers، غادرت لمقابلة ذلك الشخص الذي كان ينتظرني، لكنّي أردت أوّلًا أن أمشي إلى محطة القطار لكي أُعدّ نفسي للاجتماع. التقيت برجلٍ هناك ودردشنا قليلًا. بينما كنت واقفًا هناك أتحدّث إلى ذلك الرجل،

أرى وجهًا وراء نافذة قطارٍ على وشك المغادرة؛ يستدير الوجه نحوي، وتبدأ العينان تحدّقان بي بإمعان. يا إلهي، إنّها ملكة سبأ!

صعدت على متن القطار مباشرة، قبل أن ينطلق ببضع ثوان.

نعم، إنه القدر: أن أراها مرة أخرى بعد مرور أربع سنوات، وأن أصعد على متن قطارٍ مغادرٍ إلى مدينة أخرى مع أنّ كل أمتعتي كانت في الفندق... إنّه القدر لا محالة، وعندما يتدخّل القدر لا يمكن للمرء أن يفعل أيّ شيء، حتى أنّني تركت معطفي معلّقًا في غرفتي. لم يكن بحوزتي سوى حقيبة الكتف.

أنظر حولي، لأجد نفسي في مقصورةٍ من الدرجة الأولى مع بعض الركاب الآخرين. أجلس بجانبهما وأشعل سيجارًا وأخرج من حقيبتي كتابًا أطالعه. ما هي خطة القدر، يا ترى؟ قررت لحاق ملكة سبأ أينما ذهبت: لا بدّ أن أجبرها على لقائي. تلك هي مهمتي. سوف أنزل من القطار عندما تنزل.

حين جاء محصّل التذاكر وطلب تذكرتي قلت له إنّه ليست بحوزتي أي تذكرة.

"إلى أين تخال نفسك ذاهبًا إذن؟".

ارتبكت ولم أستطع إجابته إجابةً واضحة...

"حسنًا، يمكنك أن تدفع التعرفة عندما نصل إلى "أرلوف" Arlöf، بتكلفة إضافية قدرها 40 أورة. وسيتعيّن عليك شراء تذكرة أخرى في "أرلوف"".

أخذت بنصيحته ودفعت المبلغ الإضافي بكل سرور. وحين وصلنا إلى "أرلوف" اشتريت تذكرة إلى "لوند" Lund، لعل وعسى كانت ملكة سبأ تنوي زيارة شخص ما في "لوند".

لكنها لم تنزل في تلك المدينة.

فاضطررت مرة أخرى إلى دفع المزيد من المال إلى محصّل التذاكر، هذه المرة باتجاه "لاكالينغا" Lackalänga، مع رسوم إضافية أيضًا قدرها 40 أورة، أي أنّني دفعت 80 أورة حتى الآن. في "لاكالينغا" اشتريت تذكرة إلى "هيسلِهولم" Hessleholm من باب الاحتياط، لأنّني كنت قلقًا بشأن هذه الرحلة المعقدة.

استمر الركاب الآخرون في الدردشة، وكان حديثهم يزعجني. بحقّ السماء، كيف لتفشّي مرض الحمى القلاعية في "هامبورغ" أن يكون موضوع نقاش مطوّل؟ كان هؤلاء الركّاب من الريف السويدي، تجّار ماشية سويديون بسطاء، ولم يتحدّثوا عن أيّ شيء آخر لمدة 45 دقيقة. لك أن تتخيّل إذن الوقت الرائع الذي قضيته بصحبتهم! وفوق كل ذلك: ألم يكن هناك رجل ينتظرني في "مالمو"؟ حسنًا، دعه ينتظر.

لكنّ ملكة سبأ لم تنزل في محطة "هيسلِهولم" أيضًا، الأمر الذي جعلني أستشيط غضبًا.

دفعتُ لمحصّل التذاكر تعرفة جديدة لكي أصل إلى "بالينغسلوف" Balingslöf بالإضافة إلى 40 أورة، أي أنّني قد دفعت 1 كرونة و20 أورة حتى هذه اللحظة، ومن ثمّ عندما وصلنا إلى "بالينغسلوف" اشتريت تذكرةً إلى "ستوكهولم" وأنا أصرّ على أسناني، لأنّ تكلفة

هذه الرحلة أصبحت لا تقلّ عن 118 كرونة نقدًا! لكن من الواضح أنّ ملكة سبأ كانت متّجهةً إلى "ستوكهولم"، تمامًا كما حدث في تلك المناسبة السابقة قبل أربع سنوات.

استمرّت الرحلة لساعات، ورحت أراقبها كلّما وصلنا إلى محطة جديدة، لكنّها لم تنزل في أيّ منها. كنت أراها تجلس في مقصورتها، وهي أيضًا كانت تراقبني. لا بدّ أنّها تكنّ لي مشاعرها القديمة ذاتها. كان ذلك واضحًا وضوح الشمس. لكنّها بدت خجولة بعض الشيء وأشاحت بنظرها بعيدًا كلّما مررت بجوار نافذة مقصورتها. لقد نسيت أن ألقي التحيّة عليها، ولو لم تكن حبيسة مقصورة السيدات لتوجّهت إليها وخاطبتها منذ وقت طويل، لِأُذكّرها بأنّنا معارف قدامى وبأنّني نمت على سريرها ذات مرة. وكلّي ثقة أنّها ستشعر بالسعادة لو أخبرتها بأنّني حظيت بنوم جيّد تلك الليلة وأنّي لم أستيقظ حتى الساعة التاسعة. لقد ازداد جمالها كثيرًا خلال هذه السنوات الأربع. اكتسبت أنوثتها حدّةً أكبر، وأصبحت مهيبة أكثر من أي وقت مضى.

تنقضي الدقائق، دقيقة تلو الأخرى، وتمرّ الساعات، ولم يحدث أيّ شيء خلال هذا الوقت سوى أنّ القطار دهس بقرةً عند الساعة الخامسة تقريبًا. سمعنا صوت أرجلها وهي تُسحق تحت عجلات القطار، واضطر السائق إلى التوقّف قليلًا لكي يتحقّق من سلامة القضبان قبل أن يتابع السير. بحلول هذا الوقت، كان المسافرون في مقصورتي يتحدّثون حول البواخر في "أوريسند" Øresund. مرّة

أخرى، لك أن تتخيّل كم كان حديثهم مشوّقًا ومضحكًا... ألم يكن هناك أحدٌ ينتظرني في... ؟

آه. لا بأس. فليذهب ذلك الشخص في مالمو إلى الجحيم.

يسير القطار، ويقطع الأميال. نَمُرُّ بـ"إلمهولت" Elmhult، و"لياتورب" Liatorp، و"ڤيسلاندا" Vislanda. حين وصلنا إلى "ڤيسلاندا" تخرج ملكة سبأ من مقصورتها، ولا أغفل عنها للحظة واحدة. وكما اعتقدت، ها هي تعود مرة أخرى. حسنًا. لنتجه إلى "آلڤيستا" Alvesta.

نصل إلى "آلڤيستا"، حيث يوجد قطارٌ متّجهٌ نحو "كالمار".

مرة أخرى تترك ملكة سبأ مقصورتها. أراقبها لكي أرى ما إذا كانت ستعود مجدّدًا إليها، لكنّها صعدت هذه المرة على متن القطار المتجه إلى "كالمار". لم أكن مستعدًّا لهذا التطور. لقد فاجأتني تمامًا، ولم أقم بأيّ ردّة فعلٍ حتى كاد الأوان يفوت تقريبًا. هرعت نحو قطار "كالمار" وصعدت على متنه لدى انطلاقه مباشرةً.

أجد في المقصورة رجلًا منكفأً على ذاته، حتى أنّه لم ينظر إلى الأعلى عندما دخلت. كان منهمكًا في قراءة كتاب ما. جلستُ ورحتُ أقرأ الكتاب الذي كان بحوزتي. بعد دقيقتين أسمع صوت محصّل التذاكر:

"التذاكر، من فضلكم!"

"نعم، هاك تذكرتي!"

مكتبة
t.me/soramnqraa

فيقول لي: "تذكرتك هذه غير صالحة. نحن متوجّهون إلى "كالمار"".

"غير صالحة؟"

"كلّا، ليس على خط "كالمار"".

"لا ذنب لي إذا باعني شخص ما تذكرة غير صالحة".

"إلى أين أنت ذاهب؟"

""ستوكهولم"، بالطبع. أيّ سؤالٍ هذا؟"

فيجيبني بغضب: "لكنّ هذا القطار متجه إلى "كالمار"، ألا تفهم؟ إلى "كالمار"!"

لم أكن أعرف ذلك، لكن هل كان من الضروري أن يتحذلق أمامي بسبب سوء فهم بسيط؟

لا شك أنّ دوافعه السياسيّة هي التي دفعته للتصرف على هذا النحو، لأنّه كان يعلم أنّني نرويجي؛ دوافع سياسيّة، لا محالة. دوّنت اسمه على ورقة صغيرة.

سألته: "حسنًا، ماذا عساي أن أفعل؟".

"ما عليك فعله هو ... إلى أين قلت إنك ذاهب؟ آه. لن تصل إلى هناك على متن هذا القطار".

"حسنًا، سأذهب إلى "كالمار" إذن. في الحقيقة، قصدت أن أقول إنّني مسافر إلى "كالمار"." أنا لا أحبّ "ستوكهولم" على أي حال، ولن أقترض المال لكي أسافر إلى تلك المدينة في أيّ وقت

آخر. إذًا، كانت ملكة سبأ الحقيرة هذه متّجهةً إلى "كالمار"، الأمر الذي أراحني من عذابي بعض الشيء.

قال لي محصّل التذاكر: "يجب أن تدفع تعرفة السفر إلى محطّة "غيمله" Gemla، بالإضافة إلى رسوم قدرها 40 أورة، وسيتعين عليك شراء تذكرة أخرى في "غيمله"".

فقلت له محتجًّا: "لكنّني دفعت 118 كرونة منذ قليل"، لكن دون طائل؛ دفعت له التعرفة، بالإضافة إلى 40 أورة: أي 1 كرونة و60 أورة إضافية على متن هذا القطار. لكنّ صبري قد نفد في "غيمله"، وتوجّهت كالريح العاصفة نحو مكتب التذاكر وصرخت عند النافذة:

"أين ينتهي هذا الخط؟"

"أين ينتهي؟ في "كالمار"".

"هل أنت متأكد؟ ألا يمكن أن يذهب القطار إلى أبعد من ذلك بقليل؟"

’مستحيل! بعد "كالمار" ستجد نفسك في بحر البلطيق".

"حسنًا. أريد تذكرة إلى "كالمار"!"

"أيّ فئة؟"

يا لهذا السؤال التافه! من الواضح أنّ هذا الرجل لم يتعرّف عليّ ولم يقرأ أيًّا من كتبي. فأعطيته الجواب الذي كان يستحقه:

"الدرجة الأولى".

دفعت له وجلست في مقعدي.

حلّ الليل، وتمدّد ذلك المسافر البغيض على مقعده، مغمضًا عينيه. حتى الآن لم يتفوّه بحرفٍ واحد، ولم ينظر إليّ بتاتًا. كيف سأمضي الوقت في هذه الرحلة؟ لم أستطع النوم، وكان عليّ أن أقف باستمرارٍ لكي أتفقّد الأبواب، وأفتح النوافذ وأغلقها، وأتجمّد من البرد، وأتثاءب، وأراقب تحرّكات الملكة. شيئًا فشيئًا صرت أشتمها في سرّي.

أخيرًا، بعد انتظار مرير، حلّ الصباح. جلس الراكب الذي شاركني المقصورة ونظر من النافذة. بعد ذلك بوقت قصير، تابع القراءة، ولم ينظر إليّ قط. بدا لي أنّ الكتاب الذي كان يطالعه لا نهاية له. لقد أزعجتني تصرّفاته، فبدأت أغني وأصفّر لإثارة غضبه، لكنّني لم أنجح في استثارة أيّ ردة فعل منه. تمنّيت من كلّ قلبي لو أنّني كنت جالسًا مع القرويين لِأستمع لحديثهم عن مرض الحمى القلاعية مرة أخرى، بدلًا من الجلوس مع هذا الوغد البارد المتغطرس.

طفح الكيل ولم يعد بمقدوري تحمّله أكثر من ذلك. فقلتُ له: "معذرةً، هل لي أن أستفسر عن وجهة سفرك؟"

فقال: "أوه. وجهتي بعيدةٌ جدًّا".

"كنت على متن قطار الأمس وقد دهس السائق بقرةً".

"عفوًا؟"

"كما سمعت".

"حقًّا؟"

ثم تابع القراءة.

قلت له على حين غرّة وقد سيطر عليّ اليأس: "هلّا بعتني هذا الكتاب؟"

"هذا الكتاب؟ كلّا".

"متأكّد؟"

"نعم".

وانتهت المسألة. لم ينظر إليّ حتى نظرة جانبية بعد ذلك. استسلمت كليًّا أمام عناده. في الواقع، لولا تلك الملكة اللعينة لما وجدت نفسي مجبرًا على التعامل مع مثل هذا الشخص. لقد أزعجتني كثيرًا. على أيّ حال، سأنسى كلّ شيء عندما ألتقي بها، إلّا أنّني سأخبرها عن كلّ المشاكل التي واجهتها بسببها. سأخبرها عن مقالتي في الصحيفة، وعن الشخص الذي كان ينتظرني في مالمو، وعن رحلتي على خطّ "ستوكهولم" ثم على خط "كالمار"... يا سيدتي العزيزة! سأترك انطباعًا مؤثّرًا للغاية عليها مرة أخرى. ولن أنبس ببنت شفة عن تلك الرسوم الإضافية والـ 118 كرونة التي اضطررت إلى دفعها.

وسار القطار.

شعرت بالضجر، فبدأت أنظر من النافذة إلى الخارج، لكنّ المنظر كان ذاته على طول الطريق: الأشجار والحقول والسهول والمراقص وأعمدة التلغراف، وفي كلّ محطة كنت أرى عربات البضائع الفارغة المعروفة، لكن كانت هناك كلمة "غولفيتا" Golfyta على كلِّ عربة منها. ماذا تعني هذه الكلمة؟ ليست رقمًا ولا اسم أيّ شخصٍ

معروف. ربما كانت اسم نهرٍ رائعٍ في "سكونَه" Skåne، أو اسم علامة تجارية، أو حتّى اسم طائفةً دينية.

ثم فجأةً تذكرت: "غولفيتا" هي وحدة لقياس الوزن. ما لم أكن مخطئًا، كلّ "غولفيتا" تعادل 132 رطلًا. لكنّ هذه القياسات قديمة الطراز، لذلك لا بدّ أنّ كل "غولفيتا" تعادل 133رطلًا اليوم ...

وتابع القطار سيره.

أسأل نفسي: كيف يمكن لهذا الأحمق الأخرق أن يجلس مكانه ساعة تلو الساعة ويمارس القراءة فحسب؟ كان بإمكاني قراءة كتاب صغير رديء ثلاث مرات في الوقت الذي استغرقه هو في قراءة ذلك الكتاب. لم أرَ في حياتي وقاحةً مثل وقاحته؛ يا له من متعجرف متكبّر، يعتقد أنّه أفضل من الآخرين لأنّه يحب التعلّم. نفد صبري أخيرًا من غبائه المطلق. فانحنيت إلى الأمام ونظرت إليه وقلت:

"أستميحك عذرًا...".

رفع نظره إليّ مدهوشًا ثم قال:

"عفوًا؟"

"قلت لك: أستميحك عذرًا".

لكنّه لم يفهم ذلك على الإطلاق.

"ماذا تريد مني؟" سألني بغضب.

"ماذا أريد أنا؟ ما الذي تريده أنت؟"

"أنا؟ لا أريد أيّ شيء".

'ولا أنا".

"حسنًا. إذن لماذا تتحدّث إليّ؟"

"أنا؟ وهل كنت أتحدث إليك فعلًا؟"

فقال: "حسنًا"، ثم أبعد نظره عنّي ممتعضًا، ليسود الصمت مجدّدًا.

تمر الدقائق والساعات. ثم أخيرًا، أسمع صافرةً تعلن وصولنا إلى "كالمار". حان الوقت. آن أوان المعركة الكبرى! أضع يدي على ذقني: كنت غير حليقٍ، كما جرت العادة طبعًا. لكن هل يعقل أن تفتقر جميع المحطات على طول طريق السفر إلى أماكن مخصّصة للحلاقة لكي يتمكّن الناس من تهيئة أنفسهم استعدادًا للمناسبات المهمة؟ لا أقول إنّه يجب أن يكون هناك حلّاق يعمل بدوام كامل في كل محطة. كلّ ما أطالب به هو حلاق واحد بعد كل خمسين محطة على الأقل. لا أعتقد أنّني أبالغ في مطلبي هذا، أليس كذلك؟

ثمّ توقف القطار.

أترجّل منه مباشرة وأرى ملكة سبأ تترجّل منه أيضًا. لكنّها فجأةً تصبح محاطة بالكثير من الناس لدرجة أنّه لا يمكنني الاقتراب منها نهائيًا. ثمّ رأيت شابًّا يقبّلها: إنّه أخوها، لا شكّ في ذلك. لا بدّ أنه يعيش ويعمل هنا، وهو الشخص الذي أتت لزيارته! تصل عربة بعد بضع لحظات، وتصعد الملكة على متنها، ثم ينضم إليها اثنان أو ثلاثة أشخاص آخرون، وتسير تلك العربة بهم.

لا زلت متسمّرًا في مكاني، فقد ذهبتْ بعيدًا عنّي، أمام ناظريَّ مباشرةً. لم أتمكّن من إبداء أيّ ردّة فعل. حسنًا. حصل ما حصل، ولا يسعني القيام بأيّ شيء حيال ذلك في الوقت الحالي. في الواقع،

عندما فكّرتُ في الأمر مليًّا أدركت أنّها قد قدمت لي معروفًا برحيلها هكذا، ومنحتني المزيد من الوقت لكي أذهب إلى الحلّاق وأرتب مظهري وهندامي قليلًا قبل أن أقدّم نفسي لها. سوف أستغلّ هذا الوقت بحكمة!

يقترب مني حمال حقائب ويعرض عليّ أن يحمل أمتعتي، فقلت له إنّني سافرت من غير أيّ أمتعة.

"لا أمتعة معك على الإطلاق؟".

"كلّا، لم أجلب أيّ أمتعة على الإطلاق. هل هذا واضح بما فيه الكفاية؟".

لكنني لم أستطع التخلص من ذلك الرجل. أراد أن يعرف ما إذا كنت مسافرًا إلى مدينة أخرى.

"كلا، لن أسافر إلى أبعد من هذه النقطة".

"إذن سوف تمكث هنا؟"

"ربما، لبعض الوقت. هل يوجد أيّ فندق قريب من المحطة؟"

ثم راح يسألني عن سبب تواجدي في "كالمار". هل أنا عميل سري؟ أم مفتش؟ أم ماذا؟

هل يعقل ذلك! لم يتعرّف عليّ هذا الشخص أيضًا!.

"إذا لم تكن مفتّشًا، فما هي طبيعة عملك؟".

"طاب يومك!" صرخت في وجهه ومشيت في طريقي. يا لوقاحته منقطعة النظير! إذا لزم الأمر، يمكنني العثور على فندق بمفردي بكل سهولة. في غضون ذلك، كان عليّ أن أبتدع كذبةً ما حول

طبيعة عملي وسبب قدومي إلى "كالمار". إذا كان حمّالو الحقائب الصعاليك فضوليين للغاية، فإنّ مدير الفندق سيكون أكثر إلحاحًا. سوف يسألني: ما هو غرضك من القدوم إلى "كالمار"، بحق السماء؟ لذلك لا بد أن أبرّر وجودي هنا بشكل يمكن تصديقه حتّى لا أُعرّض ملكة سبأ للخطر.

شرعت في محاولة اختلاق عذرٍ يفسر تواجدي في هذه المدينة، حتى أنّ الحلاق راح يستفسر عن هذا الأمر بينما كنت جالسًا في كرسيّ الحلاقة. لا يمكن أن أذهب إلى الفندق قبل أن أجد حلًّا لهذه المشكلة.

سألت الحلاق: "هل لديك هاتف؟"

"كلّا".

"حسنًا. هلّا بعثتَ بأحد الصبية إلى أقرب فندق لكي يحجز غرفة لي؟ لم يتسنّ لي فعل ذلك سابقًا، وعليّ أن أنجز بعض المهام أيضًا".

"بالطبع. لك ذلك".

ثم انطلق الصبي.

تجوّلت في الشوارع، وألقيت نظرة على الكنيسة والميناء. كنت أسير بسرعة لكيلا يوقفني أيّ شخص ليسألني عن سبب قدومي إلى "كالمار". أخيرًا وصلت إلى الحديقة. جلست على أحد المقاعد وضعت في تأمّلاتي. لم يكن هناك أحدٌ غيري هناك.

"كالمار"... "كالمار"... ما هو سبب تواجدي في "كالمار"؟ اسم هذه المدينة مألوف لي بعض الشيء، لقد قرأت عنها في مكان ما سابقًا. تبًا! لا أستطيع أن أتذكّر. هل كان أمرًا سياسيًا، أم شيئًا يتعلّق بجمعية استثنائية أو ما شابه، أم مفاوضات سلام؟ أم ماذا؟ "معاهدة سلام كالمار" Peace of Kalmar؟ "اتفاقية كالمار للسلام" The Kalmar Peace Agreement؟* ألم يكن هذا ما قرأت عنه بالضبط؟ أم أنّه بَنْدُ "كالمار"؟ لكن بعد أن فكّرت مليًّا في الأمر اتّضح لي أنّني لا أعرف شيئًا عن بندِ "كالمار".

معركة "كالمار"!** أنهض فجأةً من مكاني. إنّها معركة "كالمار"، نعم، مثل معركة "كالڤسكينديت" Kalvskindet ومعركة "ڤورث" Wörth. لقد وجدتها! توجّهت إلى الفندق مباشرةً. بما أنّني ملمٌّ بمعركة "كالمار"، سأقول إنّ هدف تواجدي في هذه المدينة هو كتابة الأبحاث عن المواقع التاريخية فيها: هنا تقبع سفينة "نيلس يولس"*** Niels Juels، وهنا كانت قذائف مدافع العدو تخترق أحياء المدينة ومن ثم تسقط بعنف في حقول الملفوف لتخدّد التراب قبل أن تستقر في مكانها. وهنا، في بحار "كالمار"،

* يشير الراوي هنا إلى معاهدة سلام كالمار Treaty of Kalmar التي وحّدت الممالك الإسكندنافية (السويد والدنمارك والنرويج) من عام 1397 حتى 1523. (المترجم).

** إشارةً إلى حرب كالمار Kalmar War التي درات بين الدنمارك والسويد من 1611 حتى 1613. - المترجم

*** أدميرال ورجل حرب دنماركي بارز (1629 - 1697). (المترجم).

سقط "غوستاڤوس أدولفوس" Gustavus Adolphus *على متن سفينة "يولس"، رجل الحرب العظيم؛ حينها سأل "كولبين القوي"** Kolbein the Strong: "ما هذا الشيء الذي أصدر صوت دويّ هائل؟" فأجابه "آينار" Einar: "إنّها النرويج، تحاول الإفلات من براثنك ***...".

لكن بمجرّد أن وصلت إلى باب الفندق، تخلّيت عن نظرية المعركة هذه بأكملها، لأنّه لا وجود أصلًا لمعركةٍ اسمها معركة "كالمار". المعركة التي كنت أفكّر فيها هي "كوبنهاغن"! عدت مرة أخرى أدراجي ورحت أتجول في المدينة مرة أخرى. شعرت أنّني في مأزق لا أُحسد عليه.

تجوّلت الى أن حلّ الليل، وكنت بلا طعام أو شراب طوال هذا الوقت، فنال مني الإرهاق. ولم يعد بوسعي الذهاب إلى المكتبة لكي أشتري بعض الكتب حول "كالمار". فقد أغلقت جميع المكتبات. في نهاية اليوم، قابلت رجلًا يضيء المصابيح في الشوارع فسألته بأدب:

* ملك السويد من عام 1611 حتى 1632. - (المترجم).

** محارب نرويجي عاش في عهد أولاف Olafأحد ملوك النرويج الذي حكم البلاد من عام 995 حتى 1000 ميلادي. (المترجم).

*** الأسماء التي ذكرها المتحدّث هنا هي أسماء أناس حقيقيّين، لكن سرده للوقائع عارٍ عن الصحة، لأنّ الكاتب يريد إبراز جهله وادّعاءه معرفة تاريخ هذه المدينة، خصوصًا عندما ربط اسم كولبين القوي بـ"نيلس يولس" الذي عاش في القرن السابع عشر، أي بعد عهد الملك أولاف بمئات السنين. (المترجم).

"أستميحك عذرًا. ما هو الحدث التاريخي الذي وقع هنا في "كالمار"؟"

فأجابني الرجل ببساطة: "حدث تاريخي؟" ثم راح يحدّق في وجهي.

قلت له: "لديّ حدس قويّ بأنّه قد وقع حدث عظيم هنا في "كالمار" في مرحلةٍ ما من التاريخ. إنها مسألة ذات أهمية تاريخية كبيرة، ولهذا السبب سألتك".

نقف هناك ونتبادل النظرات لبرهة.

ثم يسألني: "أين تعيش؟"

"لقد جئت إلى هنا لغرض وحيد، وهو دراسة هذا الحدث. وقد كلفني ذلك الكثير من المال. في الواقع، لقد دفعت 1 كرونة و60 أورة كرسوم إضافية، ناهيك عن الـ 118 كرونة التي لن أتحدّث عنها قطّ. اسأل محصّل التذاكر إن كنت لا تصدقني".

"هل أنت من النرويج؟"

"نعم، من النرويج".

"هل أنت عميل سري؟"

طبعًا، كان ذلك سبب سؤالي له في الأساس: أردت أن أعثر على سببٍ يفسّر سفري إلى هذه المدينة. ورغم أنّني كنت مرهقًا، اضطررتُ مرة أخرى إلى متابعة السير في أسرع وقت ممكن. إنّ الذنب ذنب الملكة، لا بل إنّها سبب جميع متاعبي. تمنّيت لها أن

تذهب إلى الجحيم بسبب كل هذه المحن التي أصابتني. شققت طريقي إلى الحديقة مجدّدًا. يبدو أنّني وصلت إلى أفق مسدودٍ حقًّا.

وقفت وراء شجرة لكي أبقى بعيدًا عن الأنظار. شيئًا فشيئًا بدأ الناس يمرّون من أمام الحديقة، وشعرت بعدم الأمان هناك. مرة أخرى، وجدت نفسي مجبرًا على جرجرة قدميّ بعيدًا. بعد ثلاث ساعات من المشي، وصلت إلى الريف، خارج المدينة تمامًا. نظرت من حولي. كنت وحيدًا. لا أحد هناك. فجأةً رأيت شيئًا هائل الحجم أمامي. أقف وأحدق فيه. بدا لي وكأنّه جبل على قمّته كنيسة. وبينما أنا واقفٌ في مكاني أرى رجلًا يمشي في الطريق، فأوقفته وسألته عن ذلك الجبل، موضّحًا له أنّ معلوماتي الجغرافية لم تسعفني في تحديد اسمه، على الرغم من أنني كنت أعرف الكثير من الجبال.

فأجابني: "تلك قلعة "كالمار"".

القلعة! قلعة "كالمار"! لا بدّ أنّها مصدر كل تلك الأفكار التي كانت تجوب ذهني!

"ولا بدّ أنّ القلعة مدمّرة كليًّا وفي حالة يرثى لها مقارنة بالأيام التي كانت فيها مسرحًا للأحداث العظيمة. أليس كذلك؟".

"أوه، كلا، هناك حارس يعتني بها ويحافظ عليها من التداعي".

"من يعيش فيها في الوقت الحالي؟... أقصد أن أقول: من هو الملك الذي سُجِنَ في جناح القلعة الجنوبي؟ أعرف اسمه لكن ذاكرتي خانتني".

"ذلك الجناح مليء بالدروع والسيوف والتحف وشتّى أنواع الآثار القديمة...".

وأخيرًا عثرت على الجواب: لقد جئتُ إلى "كالمار" لكي أدرس هذه المجموعة في القلعة. لو لم يكن ذلك الرجل يحمل حقيبةً على ظهره لعانقته. أتذكّر أنّني سألته عن حال زوجته وأطفاله قبل أن نفترق. وصلت إلى الفندق بحلول منتصف الليل تقريبًا.

أيقظت صاحب الفندق من نومه وأخبرته على عجالة، وبنبرة غاضبة، أنّني أنا الشخص الذي حجز الغرفة، وأنّني أرغب بدراسة الآثار القديمة هنا. ومن يدري، قد أشتري بعضها. نعم، هذه هي طبيعة عملي.

بدا لي أنّه صدّق كلامي. ثمّ نهض وقادني إلى غرفتي.

كان الأسبوع التالي مليئًا بالصعوبات. أهدرت وقتي كلّه في البحث عن ملكة سبأ. أسبوعٌ كامل! بحثت عنها كلّ يوم، في جميع بقاع الأرض؛ سألت مدير مكتب البريد، واثنين من رجال الشرطة، وفتّشت عنها في كلّ شبر من الحديقة خلال ساعات التّنزّه، وبحثت عنها في معرض الفنون، أمام معرض المصوّرين، لكنّي لم أجدها. ذهبت كلّ جهودي سدىً. حتى أنّني دفعت المال لرجلين اثنين كي يراقبا محطّة القطار ليلًا ونهارًا في حال قرّرتْ أن تسافر فجأةً، فقد طال انتظاري ولم أعثر عليها بعد.

في غضون ذلك، اضطررت إلى الذهاب إلى القلعة كلّ يوم من أجل أن أدرس مجموعة الآثار. امتلأت صفحات دفاتري بالملاحظات، وأحصيت عدد بقع الصدأ على السيوف والمهاميز* القديمة المهترئة. سجّلت كل تاريخ ودوّنت كلّ نقش لعين رأيته

* المهماز هو الحديدة في مؤخّر حذاء الفارس. (المترجم).

على أغطية الصناديق وعلى اللوحات العتيقة؛ حتّى أنّني دوّنت أنّي وجدت كيسًا من الريش في الجزء الخلفي من القلعة، ليتبيّن لي لاحقًا أنّها مُلكٌ للحارس. بسبب المرارة واليأس اللذين سيطرا عليّ، أجريت هذه الدراسات وأنا أصرّ على أسناني: بما أنّني بدأت البحث عن ملكة سبأ، لم أكن مستعدًّا للتخلّي عنه في منتصف الطريق، حتى لو كان ذلك يعني أن أتحوّل إلى عالم آثار بدوام كامل.

لاحقًا، قمت بإرسال برقية إلى "كوبنهاغن" مفادها أن يتم تحويل بريدي إلى "كالمار"، وبدأت أعدّ نفسي لقضاء فصل الشتاء هناك. بحلول ذلك الوقت، كنت قد قضيت ستة أيام في الفندق. لم أكن أعلم كيف سينتهي بحثي المضني هذا. وظّفت أربعة أولاد صغار لكي يَحْضُروا قدّاس أيام الأحد الصباحي والمسائي لعلّها تظهر هناك، لكنّ الحظ لم يحالفني أيضًا.

أخيرًا، في صباح يوم الثلاثاء، وصل بريدي. كاد ذلك اليوم أن يقضي عليّ تمامًا. إحدى الرسائل التي وصلتني كانت من الشخص الذي انتظرني في "مالمو": بما أنّني لم آتِ حينها، فمن الواضح إذن أنّني لن آتي مطلقًا، واختتم رسالته بالوداع! شعرتُ بوخزةٍ عميقة في قلبي. الرسالة الثانية كانت من صديق لي يبلغني أنّ مجلة "مورغنبلاديت" Morgenbladet وبعض الصحف الألمانية الأخرى اتهموني بالسرقة الأدبية، وقالوا إنّ لديهم الاقتباسات التي تدعم ادّعاءهم، فشعرت بوخزةٍ مؤلمة أخرى في قلبي. أمّا الرسالة الثالثة فكانت عبارة عن فاتورة، لكنّي لم أفتحها، لأنّني ما عدت

قادرًا على تحمّل المزيد من الصدمات. ارتميت على الأريكة وجلست أحدق في الحائط أمامي مباشرةً.

لكنّ المصائب والأحزان أتتني تباعًا. طرق أحدهم باب غرفتي.

"تفضّل!" أقول بصوتٍ فاغر.

وإذ بصاحب الفندق يدخل بصحبةِ امرأة عجوز تحمل سلة في يدها.

"معذرةً. أردت أن أسألك إذا كنتَ تشتري التحف. هذا ما قلتّه سابقًا، أليس كذلك؟" يقول صاحب الفندق.

أحدّق فيه. "التحف؟ أنا أشتري التحف؟".

"لقد قلت ذلك بنفسك".

وهكذا، بكل بساطة، أُجبرت على القول بأنّني أهتّم بالتحف. نعم، نعم، لقد كان محقًّا. هذا ما أقوم به. اعتذرت له لأنّني لم أفهم قصده تمامًا، فقد كنت أفكر في شيء آخر كليًا. نعم، بالطبع، أنا أشتري كل الأشياء القديمة والغريبة. دعونا نرى ما لديكم!

فعرضت عليّ المرأة محتويات سلّتها.

أصفّق بكلتا يديّ مدّعيًا السرور وأقول لها إنّني أريد شراء كلّ قطعة بحوزتها. "يا لها من حقنة ساحرة!" يا ترى، من هو آخر ملكٍ حُقنت أُذُنه بها؟ لم أكن على عجلة من أمري، ولا بدّ أن أكتشف ذلك قريبًا جدًّا عندما أبحث عن الأمر في ملاحظاتي. "كم تريدين مقابل تلك الملعقة المصنوعة من القرون؟ وماذا عن غلايين

"سورين يابيك"* Søren Jaabæk الثلاثة المتفحمة؟ لا بدّ أن أحصل عليها بأيّ ثمن، وكذلك الأمر بالنسبة لمذراة الحنطة. كم هو ثمن المجموعة بأكملها؟"

فكّرت المرأة في الأمر ثم قالت:

"عشرة كرونات".

أعطيتها عشرة كرونات، من دون أيّ مساومة، وبابتسامة عريضة. كان لا بدّ أتخلّص منها في أسرع وقت ممكن. بمجرد أن غادَرتْ، ذهبتُ إلى الحديقة لكي أروّح عن نفسي وأتنشّق الهواء النقي. كانت الأمور تخرج عن سيطرتي تمامًا!

على المقعد المجاور لي، جلست مربّية وطفل صغير؛ نظرت إليهما لكي يلزما الصمت. بعد ذلك بوقت قصير، رأيت شابًّا وامرأةً يمشيان متشابكي الذراعين؛ كانا يسيران ببطء في الممر الحصوي. جلست منتصبًا ورحت أتفحّصهما بإمعان.

إنها ملكة سبأ!

وأخيرًا، بعد طول انتظار، ظهرت ملكة سبأ مرة أخرى!

الرجل الذي مشى معها هو ذاته أخوها الذي قبّلها عندما وصلتْ إلى المحطة. كانا يتحدّثان بهدوء. دبّت العزيمة بي، لقد حان الوقت! لا يهمّني ما قد يحصل. سأفتتح حديثي بتذكيرها بأنني نمت في سريرها ذات مرة. سيكون ذلك كافيًا لكي تتذكّرني، وبعد

* رجل سياسي نرويجي (1814 - 1894). (المترجم).

ذلك سأستحوذ على انتباهها؛ سيتفهّم الأخ بكلّ تأكيد وسيمشي إلى الأمام قليلًا...

أتقدّم نحوهما، فينظر كلاهما إليّ في دهشة، وفي تلك اللحظة بالذات أتلعثم وأعجز عن تقديم نفسي كما أرغب: "يا آنسة... قبل أربع سنوات..." ثم يتوقّف لساني عن الكلام.

"ماذا يريد؟" يقول لها السيّد وهو ينظر إليها. ثم ينظر نحوي ويقول: "ماذا تريد منا؟" بنبرة متعالية.

"أنا... آآآه... أستميحكَ عذرًا. أردت أن ألقي التحية على هذه الشابة. لا أعتقد أنّ هذا من شأنك. تجمعنا صداقة قديمة. حتى أنّني نمت في..."

تقاطعني ملكة سبأ وتقول للرجل:

"دعنا نغادر، دعنا نغادر!".

عجبًا. لا تريد أن تعرف من أنا، وتصدّني أيضًا. أشعر بالسخط والغضب. أتبعهما وهما يسرعان في المشي بعيدًا. فجأة يستدير الرجل، ويرى أنني أمشي وراءهما ويعترض طريقي. لم تبدُ عليه الجرأة، فقد كان يرتجف بشكل واضح. واصلت الملكة المشي، ثم راحت تركض فجأة.

"ماذا تريد منا، يا رجل؟" يسألني مرة أخرى.

"لا أريد منك أيّ شيء. كنت أودّ أن أسلّم على السيدة الشابة، التي كانت تمشي معك. لقد قابلتها من قبل، وبدافع الاحترام الخالص...".

"أوّلًا، لا أعتقد أنّ الشابة تريد رؤية وجهك مرة أخرى؛ وثانيًا، تلك الشابة متزوجة، إنها في الواقع زوجتي أنا. لذا لا علاقة لك بنا!".

"إنّها... ماذا قلت؟ ... هي زوجتك؟".

"نعم! إنها زوجتي. ألا تفهم؟".

زوجته! زوجته... لقد انتهى كلّ شيء. تلك كانت رصاصة الرحمة! أرتمي على المقعد وأغمض عينيّ. وتركت الرجل وشأنه. لقد انطفأت شمس سعادتي. جلست هناك لعدّة ساعات، غارقًا في أحزاني وبؤسي الشديد.

في منتصف النهار، عدت إلى الفندق، وسددت فاتورتي وتسللت إلى الخارج لكيلا يراني أحد وتوجّهت إلى محطة القطار. بعد ساعة من الانتظار، وصل القطار وغادرت المدينة، مهزومًا، وكانت الآلام تدكّ قلبي على طول الطريق، ناهيك عن أنّني أنفقت الكثير من المال في هذه الرحلة.

أمّا السلة المليئة بالتحف والآثار التي اشتريتها من السيدة العجوز... فقد تركتها ورائي في "كالمار".

كما ترى، إذًا، دائمًا ما تكون هناك أمور تحول بين المرء وبين أهدافه. لقد كنتُ على وشك تحقيق أحد أهدافي في المرة الأخيرة، ومع ذلك فشلت في نهاية المطاف؛ رغم أنّني كرّست الوقت الكافي سعيًا لنيل مرادي، ولم أتردد في السفر أو في إنفاق المال يمنةً ويسرة. لكنّ القدر وقف في وجهي. باءت كل محاولاتي بالفشل. نعم، إنه القدر.

لا يسعني أن أفعل أيّ شيء حيال قوّته.

نداء الحياة

هناك، بالقرب من الميناء الداخلي في "كوبنهاغن"، يوجد شارع يسمى "ڤيسترڤويد Vester-void"، وهو عبارة عن جادةٍ جديدة موحشة. فيها القليل من المنازل ومصابيح الغاز، وتكاد تخلو من الناس تقريبًا، ورغم أنّ فصل الصيف قد حلّ علينا، لا يذهب إلّا حفنة من الناس لكي يتنزهّوا هناك.

لكن، في الليلة الماضية، حدث معي شيء في ذلك الشارع.

كنت أتجوّل فيه جيئة وذهابًا عندما رأيت سيّدة تمشي نحوي مباشرةً. لم يكن هناك أيّ أحد آخر، ومع أنّ أضواء الغاز كانت مضاءةً إلّا أنّ الظلمة طغت على الشارع ولم أستطع رؤية وجه تلك السيدة. "حسنًا، لا بدّ أنها عابرة سبيل في هذا الليل فحسب"، قلت في نفسي وأنا أمرّ بالقرب منها.

وصلتُ إلى نهاية الشارع ثمّ عدت إلى الوراء مجدّدًا. استدارت السيدة أيضًا وتقابلنا مرة أخرى. لا بدّ أنّها تنتظر شخصًا ما، فأردت أن أعرف هويته. أمشي بجانبها مرة أخرى.

تواجهنا للمرة الثالثة، فلمست قبعتي دليل الاحترام وتحدّثت إليها.

"مساء الخير. هل تنتظرين أحدهم؟"

بدا عليها الذهول. "كلا ... في الواقع، نعم، أنا أنتظر شخصًا ما".

"هل تمانعين إذا بقيت بصحبتك حتّى وصول ذلك الشخص؟".

"كلّا، لا مانع لديّ. شكرًا لك. حقيقةً، لا أنتظر أيّ أحد. جئت إلى هنا لكي أمشي فحسب".

كان المكان هادئًا جدًّا.

رحنا نمشي جنبًا إلى جنب. لم نتحدث عن أي شيء مهم، ومددت ذراعي لها.

"كلّا، لا داعي لذلك. شكرًا لك"، قالت لي وهي تهزّ رأسها.

لم يكن المشي هناك أمرًا ممتعًا، كما لم أستطع رؤيتها وسط الظلام الحالك. أشعلتُ عود ثقاب ونظرتُ إلى ساعتي، ثمّ وضعته أمام وجهها لكي أتمكّن من رؤيتها أيضًا.

كانت ترتجف من شدّة البرد. فانتهزتُ الفرصة وقلت:

"يبدو أنّك تتجمّدين بردًا. هل تريدين الذهاب إلى أيّ مكانٍ لكي نحتسي مشروبًا ما؟ ما رأيك بمتنزّه "تيڤولي" Tivoli؟ أم تفضّلين المتنزّه الوطني؟".

"لا يمكنني الذهاب إلى أيّ مكان في الوقت الحالي. يمكنك أن ترى ذلك بنفسك".

ولاحظت لأول مرة أنها كانت ترتدي طرحةً سوداء طويلة.

"أعتذر. لم أرَك جيّدًا بسبب الظلام". وتقبّلتْ اعتذاري على نحوٍ أقنعني بأنّها لم تكن من المتجوّلين العاديّين الذين نراهم في الشارع.

"أمسكي بذراعي"، قلت لها مرة أخرى، "ستشعرين بالدفء قليلًا". فأخذت بذراعي، وتجوّلنا هناك عدة مرات، ذهابًا وإيابًا.

"كم الساعة الآن؟"

قلت لها: "إنها العاشرة. أين تعيشين؟".

"على طريق "غامله كونغيڤاي" Gamle Kongevei".

أوقفتها وقلت لها:

"اسمحي لي أن أمشي معك إلى باب منزلك".

"لا أعتقد أنّه يمكنك فعل ذلك... أنت تعيش في شارع "بريدَغاده" Bredegade، أليس كذلك؟"

"كيف عرفت ذلك؟" سألتها مدهوشًا.

فأجابت: "أنا أعرفك".

ساد الصمت لبرهة. ثم سرنا متشابكي الأذرع تحت أنوار الشوارع. كانت تمشي بسرعة، فتطايرت طرحتها الطويلة خلفها كما يتطاير الشعر في الهواء.

"من الأفضل أن نسرع"، قالت السيدة.

عندما وصلنا إلى باب المبنى الذي تقطن فيه في "غامله كونغيڤاي"، التفتتْ نحوي ونظرت إليّ. شعرتُ أنّها تشكّرتني بعيونها على مرافقتي لها. فتحتُ لها الباب، ودخلتْ أمامي ببطء. دفعتُ الباب بكتفي برفق وتبعتها. بمجرّد أن أصبحتُ في الداخل أمسكتْ بيدي من دون أن يقول أيّ منّا كلمةً واحدة.

صعدنا الدرج متّجهين إلى الطابق الثاني. فتحتْ باب شقّتها، ثمّ فتحتْ بابًا آخر بعده، وأمسكت بيدي وقادتني إلى الداخل. بدا لي أنّنا دخلنا غرفة للرسم. سمعت أصوات عقارب الساعة تدق على الحائط. ما إن دخلنا حتى توقفت السيدة لبرهة، ثمّ، على حين غرة، عانقتني وقبّلتني بعنف على شفتي.

ثم قالت: "اجلس هنا، على الأريكة. سأشعل الضوء".

شعرتُ بدهشةٍ ممزوجة بالفضول. نظرتُ حولي، متفحّصًا غرفة الرسم الكبيرة. كان أثاثها مميّزًا، ولها أبواب تقود إلى الغرف الأخرى في المنزل.

وجدتُ صعوبةً بالغة في فهم طبيعة تلك السيدة. قلتُ لها:

"يا له من منزلٍ جميل. هل تعيشين هنا؟"

أجابت: "نعم. هذا منزلي".

"منزلك؟ تقصدين أنّك تعيشين هنا وأنّ والدك هو صاحب المنزل؟" فضحكت وأجابت:

"أوه، كلا. أنا امرأةٌ عجوز!" خلعت معطفها وطرحتها وقالت: "انظر بنفسك!" عانقتني مجددًا، فجأةً أيضًا، مظهرةً رغبةً جامحةً لا يمكن السيطرة عليها.

كانت تبلغ من العمر 22 أو 23 عامًا على ما أعتقد. ارتدت خاتمًا في يدها اليمنى، لذا اعتقدت أنّها حقًّا امرأة متزوجة. هل كانت فتاةً حسناء؟ كلا، فقد ملأ النمش وجهها ولم يكن لديها حواجب تقريبًا. لكنّ حيويّتها أذهلتني، وكان فمها جميلًا بشكل غريب جدًّا.

أردت أن أسألها عن اسمها، وأن أستفسر عن مكان زوجها، بفرض أنّها كانت متزوجة. أردت أن أعرف هوية صاحب ذلك المنزل الذي كنت فيه. لكن في كل مرة فتحت فمي لكي أتكلم كانت تعانقني وتمنعني من طرح الأسئلة.

قالت لي: "اسمي "إلين" Ellen. هل ترغب بشرب أيّ شيء؟ يمكنني إحضار أيّ مشروب بمجرّد رنّ هذا الجرس. لكن اذهب إلى غرفة النوم أوّلًا وانتظرني هناك قليلًا". ذهبتُ إلى غرفة النوم. كانت الأضواء في غرفة الرسم تنيرها جزئيًا، ورأيت فيها سريرين اثنين.

رنّت "إلين" الجرس، فحضرت خادمةٌ بيدها زجاجة نبيذ ثم غادرت. بعد ذلك بوقت قصير تبعتني "إلين" إلى غرفة النوم، لكنّها ظلّت واقفةً عند الباب قليلًا. خطوت خطوة نحوها، وتقدّمت هي باتجاهي متأوّهةً بصوت منخفض...

كان هذا ما حدث الليلة الماضية...

حسنًا، ماذا حدث بعد ذلك؟ تحلَّ بالصبر. سأخبرك.

عندما استيقظتُ في الصباح التالي، كانت شمس النهار قد شقت طريقها من خلف الستارة لتنير غرفة النوم. وجدتُ "إلين" مستيقظة أيضًا. تنهّدتْ وابتسمت لي. كانت ذراعاها بيضاوين مخمليّتين، وثدييها منتفخًا. همستُ في أذنها شيئًا ما، فأطبقتْ فمها على فمي بصمت وحنان؛ أصبح ضوء النهار أكثر إشراقًا.

نهضتُ من الفراش بعد ساعتين، ونهضت "إلين" لترتدي ملابسها وحذاءها. في هذه اللحظة بالذات، حدث شيء غير متوقّع، شيءٌ يشبه الكابوس؛ يرتعش جسدي حتّى هذا اليوم كلّما تذكّرت

ذلك الموقف. كنت واقفًا بجانب حوض الغسيل. في غضون ذلك، توجّهت "إلين" إلى الغرفة المجاورة، وعندما فتحت الباب استدرتُ ونظرت إلى داخل تلك الغرفة، وإذ بتيّارٍ من الهواء البارد يسرع نحوي قادمًا من النوافذ المفتوحة؛ في وسط الغرفة، رأيت طاولة عليها جثةٌ شاحبةٌ داخل كفنٍ مفتوح. كانت لرجلٍ رماديّ اللحية. تحت الغطاء الأبيض، برزت ركبتاه النحيلتان مثل قبضتين غاضبتين، وكان وجهه المصفرّ مخيفًا جدًّا. رأيت كل هذا بوضوح تام، في وضح النهار. استدرت بعيدًا ولم أقل شيئًا.

عندما عادت "إلين" من الغرفة، كنتُ قد ارتديت ملابسي استعدادًا للمغادرة. عانقتني مجدّدًا لكنّي لم أتمكّن من التفاعل معها كما يجب. ارتدتْ ملابسها هي أيضًا لكي تغادر المنزل قائلة إنّها سترافقني حتى باب المبنى، ونزلنا سويًّا. ما زلت صامتًا، طبعًا. في مدخل البناء، وقفتْ مستندةً إلى الحائط خشيةَ أن يراها أحد ثمّ همست:

"وداعًا".

فقلت لها مجرّبًا حظي: "أراكِ غدًا؟"

"كلّا، ليس غداً".

"لماذا؟"

"لا تقلق، يا حبيبي. عليَّ أن أذهب إلى جنازةِ أحد أقاربي غدًا. هذا هو السبب".

"ماذا عن بعد غدٍ؟"

"نعم، بعد غدٍ إذن، على أن نلتقي هنا في المدخل. وداعًا".

ومشيتُ في طريقي ...

من كانت هذه السيدة؟ ومن كان ذلك الرجل في الكفن؟ يا للمنظر الفكاهي الغريب لركبتيه الناتئتين وزوايا فمه المتدلية! إنها تتوقّع رؤيتي مرّة أخرى بعد غد. هل يجب أن أذهب؟

توجّهت مباشرة إلى مقهى "بيرنينا" Bernina، وطلبت من صاحبِه رؤية دليل العناوين، ثم رحت أبحث عن رقم منزلها على طريق "غامله كونغيڤاي". سرعان ما وجدت الاسم. جيّد جدًّا. انتظرتُ قليلًا أيضًا حتّى موعد وصول الصحف الصباحية، وتصفّحتها بحثًا عن المواليد والوفيات: وإذ بي أجد الخبر الذي نشرتْهُ "إلين"، على رأس القائمة بالخط العريض: "توفّي زوجي اليوم عن عمرٍ يناهز 53 عامًا بعد صراعٍ طويل مع المرض". كان تاريخ الإعلان منذ يومين اثنين فقط.

جلستُ لفترة طويلة هناك أفكّر في الأمر: رجل يتزوج امرأة تصغره بثلاثين عامًا، ثمّ يصاب بمرض عضالٍ ويموت في أحد الأيام.

والآن، بعد موته، تتنفّس الأرملة الشابة الصعداء...

فاتِنُ النساء

تجذّف مجموعة من الشباب نحو الجزيرة. يقف أحدهم، وهو شاب قويّ البنية، ويلقي بيتًا شعريًا على مسامع الآخرين. سمع صوته جميع من كان على الشاطئ؛ وأنصتت إليه جميع السيدات، باستثناء تلك التي كانت أصغرهم سنًّا: امرأةٌ مفعمة بالحيويّة ذات شعر بهيّ. من الواضح أنّها مهتّمةً بالشاب الوسيم الذي كان يجذّف القارب، وراحت تبتسم له وهي جالسةٌ وراء الآخرين، الأمر الذي أغضب الشاب الآخر، فتلوّن وجهه بالأحمر القانئ. ثمّ راح يقرأ القصائد بصوت أعلى.

يصمت فجأةً ويلتفت نحو الشاب الوسيم الغافل عن نظرات الفتاة نحوه ويقول:

"يبدو أنّك محق. نعم، إنّ قصائدي سيئة. لكن باستطاعتي سرد القصص أيضًا، وقد أبرع في ذلك أكثر من كتابة القصائد. سأريك ما أقصده بمجرّد وصولنا إلى الشاطئ".

وفعلًا، صفّقت جميع السيدات في ترقّبهنّ للقصص التي سيرويها لهنّ عن رحلاته، فقد كان رجلًا كثير المغامرات. لكنّ الفتاة التي لم تكن مهتّمةً بقصائده لم تظهر أيّ اهتمامٍ بقصصه أيضًا.

"ما هو خطبك إذن؟" سألها بنبرة يائسة.

"ما هو خطبي أنا؟ ماذا تقصد؟"، أجابته معبّرةً عن استغرابها. "اسمي "أندريا" Andrea، وليس بي أيّ خطب على الإطلاق، لا بل إنّني سعيدةٌ لأنّني تمكّنت من المشاركة في هذه النزهة".

بدا لي أنّها عنت حقًّا ما قالته، تلك اللعوب اليافعة.

جلب الشباب زجاجات النبيذ من القارب وملأوا الأكواب وشرب الجميع، لكنّ "أندريا" والمجذّف ذهبا للبحث عن بيض طيور النورس في مكانٍ ما بعيدًا عن الأغصان والأعشاب، ومن حين لآخر كانت الريح تحمل أصوات ضحكاتهما إلينا.

"فليذهب أحدكم وينادِ عليهما!" صرخ أحدهم.

قال فاتن النساء: "يجب أن يحضر الجميع إلى هنا؛ خصوصًا "أندريا"". ثمّ وقف على صخرة ونادى عليها بصوته الدافئ.

فجاءت "أندريا" ووقفت ونظرت إليه باستغراب.

"أيتها السيدة الشابة"، قال بصوتٍ عالٍ حتى يتمكّن الجميع من سماعه. "لقد أتيت إلى هنا لكي أروي القصّة من أجلك أنت، ليس بسبب جمالك فحسب، بل بسبب عذوبة صباك أيضًا، فهو يُسْكِرني ويفقدني عقلي. انظري إلى ذراعيك، وإلى الدم كيف يجري تحت جلدك. أؤكد أنّني أريد أن أروي هذه القصة من أجلك أنت".

بدا الإحراج والإرباك واضحًا جدًّا على "أندريا" عندما قرّرت الجلوس.

ثم راح يروي قصته.

استمرّ لمدة نصف ساعة، ولم يتوانى صوته عن أداء مهمّته على أكمل وجه، وكأنّ روحًا ساحرةً جامحةً استحوذت عليه. كانت القصة التي رواها لنا عن صديقٍ له عاش أغرب المغامرات.

"هل شعرتم بالملل؟" يسألنا الرجل.

"كلا، كلا"، صاح جميع السيدات والسادة، باستثناء "أندريا".

فسألها:

"لماذا لم تجيبي؟ قلت إنّني أفعل هذا من أجلك. اسمعي: لقد شارفت القصّة على النهاية. لم يتبقّ سوى أن أخبرك أنّ هذا الرجل لم يكن رجلًا سعيدًا. رغم أنّ الحظ حالفه على الدوام، وحقّق الكثير من الانتصارات وقد أثمرت جميع مغامرته الجريئة عن نجاحات باهرة. لكن، في يوم من الأيام، وقع في حبّ فتاةٍ ما، وكان حبّه لها عظيمًا وخالدًا. وبسبب هذا خسر كلّ شيء".

"برافو!" قالت "أندريا" بعيون مسدَلة. "اسرد علينا تلك القصة".

شعر فاتن النساء بالحيرة من ثقتها بنفسها. لقد أزعجه هدوؤها وسعى جاهدًا للتفوّق عليها. جلست السيدات الأخريات وشاهدن بصمت، لأنّ أكثرهنّ كنّ على دراية بأساليبه ونزواته: فإذا اختار واحدةً منهنّ اليوم سيقع اختياره على واحدةٍ أخرى غدًا، أي عندما تضيء الشمس فسحة جديدةً في قلبه.

كررت "أندريا" مصرّةً على طلبها:

"أخبرنا بتلك القصة!"

"ما الذي يجعلك تعتقدين أنّني سألبّي طلبك؟ إنّ برودتك تجعل بشرتي ترتعش. سيداتي وسادتي، أعتقد أن الليل قد حلّ علينا".

عندما ركبوا القارب لكي يتوجّهوا إلى منازلهم، قام فاتن النساء بصفع المجذّف بعنفٍ وأخذ المجاذيف منه. فَقَدَ صوابه تمامًا ولم يعد مهتمًّا بمحيطه قطّ، وكأنّه دبّ غاضب.

فجأةً مشت "أندريا" باتجاهه، فأمسك بذراعها. كان يرتجف وقد تحوّل لون بشرته إلى أبيض شاحب كما لو كان جثّة هامدة.

قال لها: "لا تعذّبيني بعد الآن. لا أستطيع تحمّل ذلك. عليك أن تتّخذي قرارك في هذه اللحظة. أتعلمين أنّني لم أعشق فتاة كما عشقتك أنت؟ قولي لي الآن، أتريدين أن أعيش أو أن أموت؟"

"يجب أن تعيش!" قالت له مبتهجةً. "لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. لماذا تعتقد أنّني كنت أعذّبك اليوم؟ في الحقيقة، لقد عانيتُ وتعذّبتُ أنا اليوم كما لم يحصل في السابق قط". نظرت إليه بعيون متعجّبة وقالت له إنّه أميرها وسيّدها...

في الأيام القليلة التالية، شعر بسعادة غامرة. كان النصر لذيذًا، كما في جميع المناسبات السابقة. ثمّ بدأت تعاسته القديمة تنخر فؤاده مرّة أخرى. شعر بالملل والإرهاق من معاناته ولعنته التي لا تفارقه قطّ. تسلّل من منزله ذات يوم، وغادر المدينة، مسافرًا إلى مدينة أخرى. لم يراسل "أندريا" بعد ذلك اليوم ولم يرجع إليها.

***

منذ يومين اثنين، وصل إلى فندق سياحيّ هادئ ليس فيه الكثير من النزلاء. لحسن حظّه، كانت المدينة مملةً جدًّا، خالية من الحياة. فشعر قلبه بالراحة والطمأنينة.

لاحقًا، بعد ظهر أحد الأيام، بينما كان يصعد الدرج، التقى بسيّدة تمشي بعكس مساره، فخلع قبعته وحيّاها حين مرّت بقربه متّجهة نحو الحديقة. قال له مالك الفندق إنّها وصلت للتوّ برفقة والدها.

تلك المرأة التي صادفها عند الدرج كانت ترتدي ثوبًا أخضرَ طويلًا وقبعة سوداء كبيرة، تحمل بيدها سوطًا يستخدمه راكبو الأحصنة. لكنّها بالكاد نظرت إليه بشكل مباشر. ثم أمسكت بمقدّمة ثوبها بيد واحدة وسارت بعيدًا عنه.

فمشى وراءها إلى الحديقة. كانت الساعة السابعة صباحًا، وكانت قطرات الندى قد تجمّعت على أسطح الأشياء والأزهار.

"انظري إلى الندى"، قال لها مباشرة، مشيرًا الى حذائها، بلا مقدّمات، ثمّ مشى نحوها. فنظرت إليه مدهوشة من وقاحته. عندما استدارت وكانت على وشك المغادرة، قال لها:

"أستميحك عذرًا، أنا حقًّا لم آتِ إلى هنا لكي أتحدّث إليك. لكنّ الندى كثيف اليوم، وجميع الطرق والمسارات العشبية مبلّلة. هذا ما أردت أن أخبرك به فحسب، في حال كنت غريبة عن هذه المدينة".

"نعم، شكرًا لك، أستطيع أن أرى الندى بأمّ عيني".

ثمّ تابع: "أنا هو الرجل الذي ألقى عليك التحية عند الدرج. تلك النظرة التي رمقتني بها تركت فيّ أثرًا غريبًا".

فقالت له:

"ماذا تريد؟"

صار قلبُه ينبض مثل المطرقة، وفَقد كلّ رباطة جأشه وقال لها من غير تبصّر:

"إذا كنتِ تعتقدين أنّني أسعى للحصول على شيء منك فسأعطيك كلّ ما أملكه، ولك أن تأخذي ما شئت. كلّ ما أريده هو أن أقف أمامك وأنظر إلى وجهك. يجب أن تعرفي أنّك فاتنة الجمال".

فردّتْ عليه ببرودة: "لم أرَ في حياتي وقاحةً مثل وقاحتك".

"سامحيني، أرجوك!" قال متمتمًا بصوتٍ بائس كلّيًا.

أشاحت بعينيها بعيدًا عنه ونظرت إلى حوض الأزهار، ثمّ أدارت ظهرها له. حاول أن يخفّف من وطأة الموقف، لعلّها تتغاضى عن طبيعة سلوكه:

"تلك الأزهار التي تنظرين إليها تُصدر صوتَ حفيفٍ غريب. أتصوّر أحيانًا أنّها تتحدّث مع بعضها بعضًا، وأنَ صوتَ الحفيف هذا هو لغتها. إذا أنصتِّ جيّدًا قد تسمعين قولها".

لكنها بدأت تمشي بعيدًا.

فسألها وقد تلوّن صوته بالهلع: "هل كان عليّ ألّا أقول هذا أيضًا؟"

أجابته: "هذه ليست أزهارًا، بل نبتة الخشخاش".

فقال: "حسنًا كما تريدين: نبتة الخشخاش. ألا تعتقدين أنّ صوت حفيفها هو اللغة التي تتحدّث بها هذه النباتات فيما بينها؟"

إلّا أنّها ابتعدت عنه. بمجرّد أن انتهى من جملته الأخيرة كانت قد خرجت من بوابة الحديقة وأوصدتها بالمزلاج.

انتابه إحساسٌ غريب واضطربت نفسه، فجلس على أحد المقاعد. لقد ترك جمال تلك المرأة الفاتنة تأثيرًا هائلًا عليه. عندما حان وقت العشاء، نهض وشقّ طريقه إلى غرفة الطعام وهو يشعر باهتياج كبير. ماذا لو جاءت الآن وجلست قبالته؟ ماذا لو ألقى التحية عليها؟

وجاءت فعلًا. كانت لا تزال تحمل السوط بيدها. حضرت بصحبة والدها: رجل وسيم متقدّم في السن يعمل كضابط في الجيش.

"حسنًا. لا بدّ أن أحسن التصرّف. سأنحني لهما وأجلس قبالة طاولتهما مباشرة. سأفعل ذلك الآن"، قال لنفسه، وفعل ذلك حقًّا.

فجّأةً احمرّ وجه السيدة الجميلة بشكل ملفت للانتباه! كان الأب وابنته يتحدّثان عن رحلتهما في اليوم التالي، وإذ بالرجل المسن يحني جذعه العلوي إلى الأمام ويسأل فاتن النساء بعض الأسئلة عن طريق السفر والفنادق وما إلى هنالك. لكنّ فاتن النساء المسكين لا يعرف شيئًا عن هذه الأمور، إلا أنّه استجمع قواه وقدّم لهما بعض النصائح الممتازة. بعد انتهاء وجبة العشاء، مشى إلى طاولتهما وقدّم نفسه.

"ممتاز. ممتاز جدًّا. كلاهما يعرف اسمي الآن".

لاحقًا، عندما تقابلا في الممر، أوقف فاتن النساء ابنة الضابط وقال لها:

"أرجوك، يا آنسة. أريد أن أقول لك كلمة واحدة فقط: لا تغادري غدًا. ابقي هنا وسأريك المعالم السياحية والشلالات ومصانع السفن. اسمحي لي أن أكون في خدمتك ليلة الغد، وسأتشكّرك على ذلك".

وقفت الفاتنة واستمعت إليه بصبر بدل أن تتابع المشي.

ثم أضاف:

"إنّ مصيري معلّقٌ بين يديك"، فابتسمت الحسناء.

ثمّ قالت: "لكيلا يحصل أيّ سوء تفاهم بيننا، يجب أن تعلم أنّني سأسافر غدًا لكي ألتقي بخطيبي".

"كلّا!" صرخ فاتن النساء، وضرب الأرض بقدمه. ثمّ أمسك بيدها بعنفٍ وطبع قبلة عليها.

حرّرت الحسناء يدها من قبضته، ثم ضربته على وجهه بالسوط؛ سيطر على نفسه ووقف بشكل مستقيم، بينما سال الدم على خدّه الأيسر.

راقبته لبضع ثوانٍ قبل أن تسدل يدها التي حملت بها السوط.

قال لها: "حسنًا. لقد ضربتِني، لكن هذا لا يهم. افعلي ذلك مرة أخرى، وسأكون سعيدًا كما شعرت بالسعادة أول مرة".

لكنّها حنت رأسها ونظرت إلى الأرض، ثم صعدت الدرج وعادت إلى غرفتها...

لم تغادر في اليوم التالي، ورأت المعالم السياحية والشلالات وأحواض صناعة السفن. لقد تغيّر عالمها فجأةً، وامتلأ قلبها بجنون لذيذ جدًّا. كلّا، سوف لن تقوم بتلك الرحلة الحزينة جنوبًا لكي

تقابل الرجل الذي لم تعد تحبه، لكنّ والدها أصرّ على ذلك. فقطعت وعدًا على فاتن النساء أنّها ستعود قريبًا، ثم أعطته يدها لكي يقبلها.

قال لها: "قد أتبعك لاحقًا. غدًا ربّما. لكن حتّى ذلك الحين... إلى اللقاء، يا حبّي الوحيد!"

***

كما في جميع المناسبات السابقة، شعر لفترة وجيزة من الزمن بنشوة لا توصف، لم يعد يرى إلا وجه حبيبته ولم يسمع إلا صوتها. بعد بضع ساعات، بعثت له برقية عبر التلغراف وأرسلت له رسالتين مكتوبتين على ورق معطّر. راح يقرأ كلماتها الجميلة بسرور غامر، متجوّلًا كما لو أنّ مجموعةً من الورود المنعشة قد ولدت بداخله. مرّ الوقت بسرعة كبيرة. لماذا لم يتبعها يا ترى؟ لقد نسي بسبب سعادته الجارفة أن يغادر الفندق لكي يبدأ رحلته. مضى يومان على رحيلها وكان ما يزال هناك، كما لم يسمح له قلبه الابتعاد عن رسائلها الساحرة التي استمرت في الوصول إلى الفندق. لكنّه سأل نفسه، من باب الفضول، لماذا كانت ترسل الكثير من الرسائل؟ الرسائل الأولى طبعًا كانت مفعمةً بالحب. صحيحٌ أنّ كلَّ واحدةٍ منها كانت مثل وردة جديدة تزهر في قلبه، لكنّها بدأت تفقد قيمتها شيئًا فشيئًا.

في إحدى الأمسيات، وصلتْه رسالة من حبيبته، لكنّه لم يقرأها فورًا. لم يرغب في أن يفتحها بأصابعه المرتجفة، بل في صباح اليوم التالي، بهدوءٍ ورويّة. ارتدى ملابسه ونزل إلى الطابق السفلي.

في غرفة الطعام، رأى سيدة كانت وقد وصلت للتو إلى الفندق بصحبة رفيقها ووالدتها. كانت فنّانة شابة، تضحك على الدوام، وجهها دافئ، وتصرّفاتها عفوية، وتحبّ المرح.

ألقى التحية عليها، فابتسمت بخجل وأومأت برأسها. كان ينوي الرحيل في هذا اليوم أخيرًا، إلّا أنّه عدل عن قراره بالسفر. هل كانت هذه تدابير القدر؟ عندما سنحت له الفرصة، عرض خدماته على الفنانة الشابة، ووعدها أن يريها المعالم السياحية وأن يكون برفقتها أينما حلّت. فاتّفقا أن يذهبا سويًّا إلى أماكن صناعة السفن.

وصل فاتن النساء قبل ساعة من موعده. كان المطر ينهمر، لكنه انتظر هناك مثل البطل. "لا يهمني. أشعر بالسعادة العارمة لأنّني أتبلّل وأتعب من أجلها".

وقف هناك لمدة ساعتين. أخيرًا، جاءت والدتها حاملةً رسالة من ابنتها مفادها أنّها لم تستطع الحضور لأنّها اضطرت لزيارة بعض الأصدقاء في المدينة. لم تسأله أمّها المسنّة عن حاله: هل انتظر طويلًا؟ هل كان مبتلًّا؟ هل شعر البرد؟

عاد أدراجه وراح يتجوّل في ذلك الفندق الباهت، وقد نفد صبره تمامًا: هل يعقل أن تقضي كلّ هذا الوقت مع أصدقائها! بحقّ السماء، كيف للأنشطة التي يمارسها الفنانون مع الأصدقاء أن تستغرق إلى الأبد؟

تأخّر الوقت وحلّ الليل. ذهب إلى الفراش من غير أن يراها، لكنّه عجز عن النوم كلّيًا فأشعل المصابيح في غرفته وتركها تحترق.

شعر بثقلٍ هائل في رأسه، وأخذ يحدّق بذهول في الأنماط على ورق الحائط.

فجأةً سمع أحدهم يفتح باب الفندق الرئيسي، انتظر بضع لحظات، ثم قفز من السرير وارتدى ملابسه. كان يعرف غرفة الفنانة الشابة وتوجّه إليها. كانت هناك في الداخل، وقد سمعها تتحرك في أرجاء الغرفة. بعد وقت قصير فتحتْ الباب قليلًا وألقت بحذائها خارجًا، ثم أغلقته مرّةً أخرى. "ليلة سعيدة، نامي جيّدًا، يا حبيبتي الغالية!"، قال في نفسه، ثمّ ركع على ركبتيه وقبّل حذاءها الصغير، كالمهرج، كالرجل المجنون. ثم قطع وعدًا على نفسه أن يضع حدًّا لعذابه في الصباح: سوف يبوح بحبّه لها. إمّا النصر أو الموت!

لكنّ الشابة غادرت برفقة والدتها في الصباحِ الباكر. فاستفسر عن الطريق الذي سلكته، وعلم أنّها اتّجهت شمالًا إلى البلدة التالية.

في صباح ذلك اليوم ذاته، أرسلت له ابنة الضابط هذه الرسالة: "تعال إلى الجنوب! لقد أزهرت الورود واخضرّت الأرض هنا!"

لم يتردّد ثانية واحدة وهمّ بالرحيل إلى جنوب البلاد...

ثورة في الشوارع

في صباح أحد الأيام من صيف 1894، جاء الكاتب الدنماركي "سـفِن لانغه"* Sven Lange إلى غرفتي في شارع "دي فوغيرار" de Vaugirard في باريس وأيقظني قائلًا إنّ ثورةً قد اندلعت للتو في المدينة.

"ثورة؟ ماذا تقصد؟"

"لقد أخذ الطلاب زمام الأمور؛ سيتعاملون مع القضية بأنفسهم. وها هم يثيرون أعمال الشغب في الشوارع".

كنت نعسانًا وغاضبًا، فقلت له:

"فليوجّهوا خراطيم المياه نحو أنفسهم فيبعدوها من الشوارع".

لكن "سـفِن لانغه" شعر بالإهانة من تعليقي هذا، لأنّه كان منحازًا إلى الطلاب. فأدار ظهره لي وغادر غرفتي بصمت.

كانت "القضية" التي أراد الطلاب التعامل معها بأنفسهم هي كالتالي:

---

* كاتب سينمائي (1930 - 1868)من أهم أعماله فيلم "الفردوس المفقود" Paradise Lost (1913). (المترجم).

لقد أقامت مؤخّرًا الجمعية المعروفة باسم "الفنون الجميلة الأربعة" The Four Fine Arts حفلًا راقصًا في ملهى "مولان روج" Moulin Rouge، وكانت السيدات الأربع اللواتي مثّلن الفنون الأربعة عاريات إلى حدٍّ ما، أي أنّهن لم يرتدين سوى أشرطة حريريَةً حول خصورهن. بشكل عام، تُعرف الشرطة الباريسية بتسامحها تجاه الكثير من الأحداث، لكن في هذه المناسبة بالذات قاموا بمداهمة المكان، وأوقفوا الحفل وأغلقوا الملهى بأكمله.

على أثر ذلك، نظّم الفنانون احتجاجًا رسميًا ووقف الطلاب في جميع أنحاء الحي اللاتيني إلى جانب الفنانين وانضمّوا إلى احتجاجهم.

بعد مرور يومين، كانت هناك مجموعةٌ صغيرة من رجال الشرطة تقوم بدوريّة في شارع "سان ميشيل" St. Michel. خارج أحد المقاهي، على الرصيف، جلس بعض الطلاب، وأثناء مرور الدورية أمامهم راحوا يوجّهون الشتائم والإهانات إلى أعضائها. وكما قلتُ سابقًا، عادةً ما تتسامح الشرطة الباريسية مع الكثير من التصرّفات. لكنّ الفعلة هذه أغضبت أحد رجال الشرطة، فأمسك بحجر إشعال أعواد الثقاب، الذي وجده على طاولةٍ خارج أحد المقاهي، وقذفه في اتجاه مثيري الشغب، لكنّ دقّة رميه كانت سيَئةً للغاية، فبدل أن يصيب هدفه اتّجه الحجر نحو نافذة البار وضرب رأس طالبٍ كان جالسًا هناك صدفةً؛ مات الشاب المسكين فورًا.

بعد هذه الحادثة، قرر الطلّاب أخذ زمام الأمور بشأن هذه "القضية"...

بعد أن غادر "سڤِن لانغه"، نهضت وذهبت إلى الخارج. كانت الثورة قد عمّت الشوارع: حشود من الناس في كل مكان، وأعضاء الشرطة من أمامهم على ظهور الخيول، إضافةً إلى دوريات المشاة. مشيت عبرهم جميعًا، ووصلت إلى مطعمي المفضل. تناولت وجبة الإفطار، وأشعلت سيجارة، ثم نهضت لكي أعود إلى المنزل مرة أخرى. عندما خرجت من المطعم كانت أعداد الناس الثائرين قد ازدادت ومعها اشتدّت الاضطرابات. لذلك، من أجل الحفاظ على النظام، تم استدعاء جنود المشاة وجنود الحرس الوطني: عندما شاهدهم الناس المتجّمعون على طول شارع "سان جيرمان"، استقبلوهم بصيحات الاستهجان وشرعوا يلقون الحجارة عليهم، فشبّت الخيول وشخرت وتعثّرت في الطريق. ثم قامت الحشود بتحطيم الأسفلت في الشوارع وراحوا يرمون الجنود والخيول بقطعٍ منه.

قال لي رجل بصوت غاضبٍ: "هل تعتقد أن هذا الوقت مناسبٌ للتدخين؟" لم أكن أعلم أنّ التدخين أمرٌ خطير للغاية في هذه المناسبات، إضافةً إلى أنّني لم أفهم إلّا بعض الكلمات في اللغة الفرنسية، لذلك اعتقدت أنّ على ذلك الرجل أن يعذرني قليلًا، لكنّه تابع الصراخ في وجهي وهو يومئ بيديه بعنف:

"ثورة! ثورة!".

فرميت السيجارة بعيدًا.

بعد مرور بعض الوقت، لم يعد الطلاب والفنانون المشاركين الوحيدين في الثورة، بل تدّفقت إلى الشوارِع جموعِ الرعاعِ في باريس بعشرات الآلاف: المتسوّلون والمتسكّعون، وكلّ المخلّفات

القابعة أسفل الهرم البشري. جاءوا من كلّ حدبٍ وصوب، من كلّ أحياء المدينة، من كلَ شارع جانبي، ثمّ اندمجوا مع الحشود الواقفة، وسرقوا العديد من ساعات اليد من أيدي الناس البريئين.

مشيت وسط هذا التيّار البشري، حيث شكّل مفترق الطرق بين شارعي "سان ميشيل" و"سان جيرمان" بؤرة لأعمال الشغب ولم تتمكن الشرطة وعناصر المشاة من السيطرة على الوضع هناك. فعل الناس ما يحلو لهم لفترة طويلة من الوقت. وعندما أتت عربةُ كبيرةٌ عبر الجسر من الضفة المقابلة لنهر "السين" Seine وتوقفت في ساحة "سان ميشيل"، توجه نحوها رجل من جموع الرعاع ووقف بالقرب منها، ثمّ خلع قبعته وقال:

"أيها السيدات والسادة، نرجو منكم أن تتفضّلوا بالترجّل من العربة". وهذا ما فعله الركاب نزولًا عند طلب الرجل.

قام بعض الرعاع بعد ذلك بفكّ وثاق الخيول التي تجرّ العربة، ثمّ قلبوها رأسًا على عقب في الطريق وهم يضحكون ويمرحون. فعلوا الأمر ذاته حين أتت باتجاههم حافلةٌ أخرى، كما أوقفوا عربات الترام وقلبوها رأسًا على عقب أيضًا، وسرعان ما تشكّل حاجزٌ مرتفع امتد عبر الطريق من الرصيف الأيمن إلى الرصيف الأيسر، فتوقّفت حركة المرور تمامًا. أمّا أولئك الذين حاولوا مواصلة السير بأنفسهم، فلم يتمكّنوا من إيجاد أيّ سبيل عبر أكوام الناس المتجمعة، وأبعدتهم الحشود عن مسارهم مرسلةً إيّاهم إلى الشوارع الجانبية، حتّى أنّهم أجبروا بعضهم على دخول المنازل المغلقة.

حتّى أنا وجدت نفسي قد جُرِفتُ بعيدًا إلى نقطة انطلاقي تقريبًا، أي عند باب المطعم، ثمّ استمرّوا بدفعي إلى الوراء أكثر فأكثر مرة أخرى إلى أن وصلت إلى درابزين حديدي أسود مرتفع يحيط بالمتحف، فاضطررت هنا إلى الوقوف بثبات شديد لدرجة أنّني شعرت أنّ كعبيّ قد أصبحا جزءًا من الشارع، وكدت أفقد ذراعي وسط الجموع أيضًا لكنّني تمكنت من الصمود. فجأةً سمعنا صوت طلقة بندقية، ثم تبعتها طلقة أخرى، فدبّ الذعر في قلوب الرعاع، وراحوا يصرخون وهم يهرعون إلى الشوارع الجانبية. انتهزت الشرطة هذه الفرصة لمطاردتهم، ودفعوا بهم إلى عدة اتجاهات وهم يلوّحون بسيوفهم.

في تلك اللحظة شعرنا أنّ الحرب قد اندلعت.

لحسن حظي، لزمت مكاني بجوار الدرابزين الحديدي، حيث أصبح لديّ متسعٌ من المكان الآن. بعد بضع لحظات جاء باتجاهي رجل تائه يرتعد من الخوف، ويحمل بيده بطاقة العمل الخاصة به، بطاقةٌ كُتب عليها "الدكتور يوهانس Dr. Hjohannes". وضعها في يدي بقوة، متوسّلًا إيّاي ألّا أسلبه حياته. ربّما كان يعتقد أنّني كنت أنوي قتله. وقف أمامي وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه. ثمّ أوضح لي أنه باحث أرميني يقوم ببعض الأبحاث في باريس، وأنّه يعمل كطبيبٍ في القسطنطينية. لم أقتله طبعًا، ولا زلت أتذكّره جيّدًا، أتذكّر وجههُ المذهول ولحيته قليلة الشعر، والفجوات الكبيرة بين أسنانه العلويّة، وأتذكّر أنّ جميعها كانت أسنانًا سليمة.

شيع بين الناس بعد قليلٍ أنّ مصدر الطلقتين كان متجر أحذية -أو بالأحرى، الورشة التي كانت فوق المتجر- وأنّ بعض العمال

"الطليان" هم الذين أطلقوا النار على الشرطة. بطبيعة الحال، كان اللّوم كلّ اللوم يقع دائمًا على الإيطاليين. الآن، استعاد الرعاع شجاعتهم وتدفّقوا إلى الشارع الرئيسي مرة أخرى. عند نقطة التجمع، حاولت الشرطة الخيّالة منع وصول المزيد من الناس إلى الأجزاء الأخرى من باريس. ولكن بمجرد أن تنبّهت الحشود لذلك، بدأوا في تكسير نوافذ أكشاك بيع الصُّحف، وقاموا بتحطيم مصابيح الغاز بالحجارة واقتلاع الأسوار الحديدية التي كانت تحمي أشجار الكستناء على طول الشارع. فعلوا كلّ هذا لكي يجبروا الشرطة على التفكير بشيء آخر بدلًا من عزل الحي عن مركز المدينة. لكن عندما باءت محاولتهم بالفشل، أصبح هدفهم الرئيس هو إخافة خيول الشرطة قدر الإمكان، وتحقيقًا لهذه الغاية، أضرموا النيران في الحاجز الذي تشكّل من العربات التي قلبوها رأسًا على عقب منذ قليل، كما استمرّوا في تكسير الأسفلت لكي يقذفوا الشرطة بحطامه. لكنّ هذا العمل كان شاقًا، إضافة إلى أنّه لا يوجد الكثير من الأسفلت حولهم، لذلك لجأوا إلى مصادر أخرى: عمدوا إلى تجزيء حديد الأسوار الواقية -التي كانت حول أشجار الكستناء- إلى عدّة قطع صغيرة، وكان ذلك هو مصير الدرابزين وقضبان السلالم أيضًا. سرعان ما جاء الدور على الدرابزين الحديدي الجميل الذي كنت أقف بقربه. ألقى الناس بشتى الأشياء على الشرطة، وملأوا الشوارع صراخًا، وأحدثوا الخراب؛ يهربون تارةً ويعودون تارةً أخرى.

مرّت ساعات ولم يتغير هذا الحال.

ثم تمّ تعزيز قوات حفظ النظام بعناصر من الجيش من مدينة "ڤرساي" Versailles، الأمر الذي أحدث صدمة بين الحشود. منذ عدة ساعات، كانوا يلهون ويعبثون ويفعلون ما في وسعهم لعرقلة الشرطة والحرس الوطني. ولكن بمجرّد أن رأوا قوّات "ڤرساي" قادمة من بعيد راحوا يصيحون: "يعيش الجيش! يعيش الجيش!" فلمس الضباط قبعاتهم ردًّا على ترحيب الناس بهم. لكن ما إن أصبح الضباط والجنود والشرطة قرب نقطة التجمع حتى راح الثائرون يرمونهم بزجاج النوافذ وقطع الحديد مرة أخرى، وعاد كلّ شيء كما كان من قبل.

عندما حلّ المساء، كان الطلاب يصرخون:

"ابصقوا على "لوزيه" Lozé!".

"لوزيه" هذا هو قائد الشرطة. وفعلًا شكّل المحتشدون موكبًا ضخمًا بقصد السير إلى مقر الشرطة من أجل "البصق على "لوزيه"." انطلق الموكب، واستمر الآلاف الذين مكثوا مكانهم في ترديد العبارات المهينة. شارف اليوم على الانتهاء ولم يعد هناك الكثير من الأشياء التي تستدعي الحملقة فيها، لذا عدت إلى المطعم وتناولت الطعام. أخيرًا رجعت إلى المنزل، بعد أن اضطررت إلى المشي مطوّلًا في الشوارع الفرعية لكي أتمكّن من تفادي الحشود.

انقضت عدّة أيّام وما زالت الاضطرابات على حالها. بمجرّد أن يغادر المرء منزله وينزل إلى الشارع، سيرى مشاهد استثنائية ويسمع أصواتًا لم يسمعها من قبل. قرّرت ذات أمسية الذهاب إلى المطعم لتناول وجبة العشاء، وكانت السماء تمطر قليلًا، فأخذت معي مظلتي.

في منتصف الطريق، أوقفتني مجموعة من الرجال تحاول تفكيك حاجز مؤقت -مصنوعٍ من الأخشاب- كان قد نُصب خشية أن يقع المارة داخل حفرةٍ في الشارع. طَلب مني أحد الرجال، بصوتٍ حازم، أن أمدّ لهم يد العون في هدم الحاجز. كان مظهري يوحي بأنّي رجل قوّي يعرف كيف يوظّف قدراته البدنيّة، وأدركتُ حالًا أنّه لا جدوى من محاولة التملّص من تلك المهمة، لذا قلت له بأنّه سيكون من دواعي سروري أن أساعدهم. بدأنا في سحب الألواح والأخشاب وتكسيرها، لكنَّ عملنا لم يسرِ بشكل جيّد. مع أنّ المجموعة تألّفت من خمسين رجلاً تقريبًا، افتقر أداؤنا للانسجام والتنظيم، فلم نترك أثرًا يذكر على الحاجز. في تلك اللحظات، خطر لي أن أغنّي أغنية نرويجية كان يغنّيها عمّال تكسير الحجارة، وسرعان ما نجحت فكرتي، وبدأت الألواح تتلاشى إلى أن تهدّم الحاجز بأكمله، ثم رحنا نهلل جميعًا بصوت مرتفع.

كنت على وشك متابعة المشي إلى المطعم عندما أمسك أحد المارة غريبي الأطوار بمظلّتي، فقد كنت قد وضعتها بجانب الحائط، ولاذ فرارًا بها، قائلا إنّها مظلّته. ناديت على بعض الشهود من بين الرجال عند الحاجز لكي أثبت أنّ المظلة ملكي أنا، وأنّها كانت معي عندما وصلت.

"قد تكون صادقًا"، أجاب ذلك الرجل. "لكن أليست هناك ثورة في الشوارع؟".

وإذ بالشهود يصمتون، معترفين بأنّ الرجل كان على حق.

لكنّني لم أتّفق معهم، فحاولت أخذ مظلّتي بالقوة. لكنّ هذا الأمر لم يكن ممكنًا من دون أن نركض نحن الاثنين في الشارع ملاحقين بعضنا بعضًا، كما أخذ الرجل في الصراخ طلبًا للمساعدة، وقال للآخرين إنني اعتديت عليه بالضرب، فأجبته:

"حسنًا. لكن أليست هناك ثورة في الشوارع؟" ثمّ أخذت مظلتي وغادرت المكان ...

مضت الأيّام، وكلّما انتهيتُ من عملي في المساء خرجت من غرفتي لأشاهد أعمال الشغب من مسافة آمنة. ألقى الظلام بثقله على الشوارع، حيث حطّم الثائرون جميع مصابيح الغاز تقريبًا. كان النور الوحيد الذي أضاء الحي قليلًا هو مصابيح المتاجر، إذ لم يجرؤ التجار على إطفائها خوفًا من أن يتعرّضوا للنهب. سار عناصر الحرس الوطني على طول الأرصفة على الدوام، وبدت خيولهم الكبيرة مثل الوحوش تحت الضوء الخافت. طوال الوقت، كنا نسمع أصوات حدواتها وهي تدوس الأسفلت، إضافةً إلى صراخ بعض الرعاع في الشوارع الجانبية.

في غضون ذلك، أدرك الطلاب الأبعاد الخطيرة التي اتخذتها هذه الأحداث، وأصدروا بيانًا يتنصّلون فيه من المسؤولية عن جميع الجرائم المرتكبة وأعمال التخريب؛ توقّفوا عن الاحتجاج على سلوك الشرطة السابق في "مولان روج"، وأصبح هذا الأمر مهمّة رعاع باريس، لا بل إنّ الطلاب صاروا ينصحون جميع الناس بالبقاء في منازلهم. كما قاموا بطباعة مئات النسخ من بيانهم ووضعوه على الأشجار وعلى طول الشارع.

إلّا أنّ النصيحة وحسن النية لم يعد لهما أدنى تأثير على المجريات.

كان الرعاع يسعون لاستهداف الشرطة بشكل رئيسي، واستمرت مواكبهم بالسير إلى مقر الشرطة لكي "يبصقوا على "لوزيه""، كما رموا رجال الشرطة بالحجارة وأطلقوا النار عليهم كلّما سنحت لهم الفرصة، وقام بعضهم بإلقاء شرطي مسكين كان يعبر الجسر في نهر "السين"- عُثر على جثته في اليوم التالي- في مجرى النهر بعد كاتدرائية "نوتردام" Dame Nôtre وتم نقلها إلى المشرحة.

في ليلة من الليالي، وقعت حادثة في شارع "سان ميشيل" استدعت انتباه جميع من المدينة، حيث وجد شرطيٌّ نفسه معزولًا على الرصيف وسط مجموعة من رعاع باريس، ليقوم أحد أعضاء العصابة بإخراج مسدس حربي كبير من جيبه ويطلق النار على الشرطي. عندما دوّى صوت الطلقة في الشارع، هرعت الشرطة إلى الحشد وحقّقت بسرعة مع بعض الناس واعتقلت بعضهم الآخر، لكنّ القاتل كان قد لاذ بالفرار بعد أن أطلق النار من مسدسه، واندمج مع جموع الناس، مختفيًا إلى الأبد. لكنّ الشهود أفادوا بأنّ ذلك الرجل كان ضابطًا في "جوقة الشرف" Honneur 'Légion d. بدا أنّهم يعرفون هويّته الحقيقيّة أيضًا، لكنهم لم يكونوا على استعداد لتسليمه إلى العدالة، فقد كان رجلًا نبيلًا معروفًا في جميع أنحاء باريس وفرنسا، لا بل في جميع أنحاء العالم المتحضر. في ذلك المساء بالذات، طغت على هذا الرجل الرغبة في قتل شخص ما، تلك الرغبة النابعة من غريزة الرجل الفرنسي الثورية الدامية؛ لقد تنامت واشتعلت نيرانها داخله...

كنت أسير ذات مساءٍ بهدوء في الشارع عندما رأيت مجموعة من الناس؛ من الواضح كانوا مشغولين بشيء ما. حين اقتربت منهم، نادوا عليّ وأمروني بتكسير الأسفلت، فأذعنت لهم وبدأت بالعمل. وقفت مجموعة من الحراس في مكان قريب منا لكي يحولوا دون دخول الرعاع إلى الشارع. توقّعتُ أنّ الهدف من تكسير الأسفلت كان رجم الحراس بالحجارة واقتحام الشارع عنوةً. شعرت بالخزي والذل من المشاركة في هذا العمل، وندمت كثيرًا لأنّني لم أسلك طريقًا مختلفًا. لكن لم يكن بوسعي فعل شيء حيال ذلك، وتابعت تكسير الأسفلت. لم أكن وحدي طبعًا؛ كان معنا عدة معاول ورحنا نعمل بالتناوب. تباهى الرعاع بما سيفعلونه بالحراس: "سوف نلقنّهم درسًا، ولن يتبقّى الكثير منهم هناك!" لكن فجأة سمعنا أحدًا يقول: "اهجموا بالحِراب!".

فرفعنا رؤوسنا.

تكرر الأمر ذاته:

"اهجموا بالحِراب!".

وإذ بمجوعةِ الحرّاس تتقدّم نحونا مباشرة.

ألقينا بالمعاول أرضًا وركضنا مذعورين. يا إلهي، كم ركضنا! تركنا كل ذخيرتنا وراءنا، وكل أسفلتنا الثمين، ولذنا بالفرار. أصبحت ساقاي الطويلتان تركضان بمفردهما كما لو كنت أرنبًا. في الواقع، قلت لنفسي، لم أقابل حتى اليوم رجلًا يجيد الهروب مثلي. لا زلت أتذكر كيف جعلته أحد الرجال الفرنسيين القصار يرتطمون بالحائط مباشرةً، ليسقط أرضًا ويتدحرج وهو يصرخ من

الألم. كنت متقدّمًا على معظم رفاقي في هذه الرحلة، وعندما توقّف أولئك الذين كانوا في المقدمة أخيرًا، انتهزت الفرصة وابتعدت عن عبودية حقول الأسفلت.

ولم أعد إليها قطّ ...

في غضون أسبوعين، خفّت حدّة الاضطرابات في الشوارع، وبعد ثلاثة أسابيع ساد النظام في باريس مجدّدًا. لكنّ الشوارع التي تعرضت للتخريب كانت شاهدةً على ويلات الثورة الفرنسية الأخيرة، وقد حقّق مثيرو الشغب أحد أهدافهم، حيث اضطر "لوزيه" "المبصوق عليه" إلى أن يقدّم استقالته.

أبٌ وابنه: قصة مقامر

في الخريف الماضي، قمت برحلة طويلة إلى أقصى جنوب البلاد، ووصلت في الصباح الباكر ذات يوم على متن قارب نهري إلى بلدة ريفية صغيرة تسمى "دي—*" —D: مكان غريب لا يعرفه الكثيرون، ولا يزوره إلاّ القليل من الناس. بالإضافة إلى العشرين منزلًا في البلدة، كانت هناك كنيسة ومكتب بريد وسارية علم. لا يعرف هذا المكان إلّا قاطنوه والرحالة المغامرون والمقامرون والأرستقراطيون والمشرّدون، خصوصًا عندما ينبض بالحياة لبضعة أشهر في فصل الصيف كلّ عام ويقوم هؤلاء الناس بالكثير من الاتفاقات المادية في الزوايا المشبوهة من البلدة.

كان السوق يعجّ بالناس الذين جاءوا من المناطق النائية إلى مركز البلدة، يرتدون ملابس من الحرير وجلود الحيوانات، ويضعون أحزمةً وأوشحةً مزيّنة بالمجوهرات، وتفاوتت أشكالهم حسب ثراء كلّ واحد منهم. هناك، حول الكنيسة، رأيتُ صفًّا من أكشاك التجار. كان أحد هذه الأكشاك -الكشك الأزرق- ملكًا لـ"باڤو" Pavo

* جرت العادة عند الكثير من كتاب القرنين التاسع عشر والثامن عشر (مثل تشيخوف ودوستويفسكي وفيكتور هوغو) كتابة بعض أسماء الأماكن والأشخاص الخيالية في رواياتهم أو قصصهم على هذا الشكل، ربما خشية أن تتطابق مع أسماء حقيقيّة. (المترجم).

من "سينـڤارا" Sinvara. وقرب الكنيسة، بين سارية العلم ومكتب البريد، رأيت الفندق؛ كان طابقه العلويّ مطليًّا باللون الأزرق. ذلك هو المكان الذي يبدّد فيه المقامرون أموالهم.

سمعتُ جميع في الفندق يقولون إنّ "باڤو" سيحضر ذلك المساء بكل تأكيد. سألت عن هوية "باڤو" هذا، فَعَلِمَ الناس أنّني غريب عن المدينة، لأنّ الجميع هنا يعرفون "باڤو": إنّه الرجل الذي تسبّب بإفلاس البنك ثلاث مرات، كما يمتلك والده العديد من العقارات، على امتداد أميالٍ حول البلدة، وفي مهرجان الربيع الماضي، قامر "باڤو" بكلّ شيء يملكه. كان كلّ طفل يعرف "باڤو"، وتحدّثت عنه جميع الفتيات الريفيات عندما كنّ يلتقين في المساء للدردشة عند مضخة المياه، إضافةً إلى أنّ المتديّنين الذين كانوا يصلّون من أجله كلّما ذكر اسمه. باختصار، كان "باڤو" مقامرًا ورجلًا تافهًا؛ لقد فقد عظمته في أوقات عصيبة، مثل الملك "كرويسوس"* Croesus: "باڤو" من "سينـڤارا"... عار المدينة وفخرها في الوقت ذاته.

أما بالنسبة للكشك، فقد اشترته له والدته لكي يعمل فيه على أمل أن يكفّ عن المقامرة وتبذير الأموال. كان من الممكن أن تنجح خطة والدته لو أن "باڤو" جادٌّ بما فيه الكفاية. لكن، في الأسبوع ذاته، قام هذا الصبي المنحرف بطلاء كشكه باللون الأزرق، مثل لون الكازينو، لكي يعلم الناس أنّه لم يتغير قيد أنملة، وأنّه ما يزال يقامر. كان يقامر بكل فلس يكسبه في الكشك، وغالبًا ما غادر

* ملك المملكة الليدية Lydia (غرب تركيا اليوم) من عام 585 حتى 546 قبل الميلاد عندما دحره كورش العظيم مؤسس الإمبراطورية الأخمينية. (المترجم).

الكازينو وقد خسر معظم الأموال التي كانت معه حين دخل. كان كشكه معروفًا وناجحًا جدًّا، وحرصت والدته على تزويده بالبضائع دائمًا، فامتلأ كلّ شبر من الكشك بها. تسوّق جميع المزارعين والسكّان من عنده، وأراد كلّ شخص في البلدة أن يقوم بالمعاملات التجارية مع "باڤو" من "سينـڤارا".

كانت البلدة بأكملها تترقّب وصوله ذلك المساء.

***

دقّت ساعة الكنيسة 5 مرات، واندمج رنينها مع ضوضاء السوق. قرع حمّال الحقائب باب غرفتي؛ كان متحمّسًا للغاية.

قال لي: "سيّد مدينة "سينـڤارا" قادم اليوم أيضًا".

لم أطلب منه هذه المعلومة قطّ، بل أخبرته أنّني لا أعلم عمّن كان يتحدّث. ثم سألته: من هو؟ ولماذا سيأتي؟ فهزّ حمّال الحقائب كتفيه وأوضح لي أنّ سيّد "سينـڤارا" كان أهمّ وأغنى رجل في المنطقة بأكملها، وهو صديق الأمير "ياريو" Yariw، ووالد "باڤو". "ذلك هو سيّد "سينـڤارا"". وربّما كان هدف رحلته الوحيد هو معرفة آخر تطوّرات ابنه؛ أراد أن يرى بنفسه عجلة "الروليت" اللعينة التي دمّرت حياة ولده وأذاقت زوجته الويلات والعذاب.

فقلت له: "لا تهمني هذه المعلومات بتاتًا. الشيء الذي طلبته هو كأسٌ من الشاي. طاب يومك".

وغادر حمّال الحقائب ...

في الساعة السادسة، سمعت ضجّةً كبيرة في الفندق على أثر وصول السيّد. كان بصحبة ابنه "باڤو"، الذي ارتدى ملابس زاهية، أمّا والده فقد ارتدى بدلة داكنة. بدا أنّه رجل جادٌّ قويّ الإرادة. دقّت أجراس الكنيسة بمجرّد وصوله، لأنّه وعد بالتبرّع بمبلغ كبيرٍ من المال إلى الكنيسة يكفي لضمان بقائها حتى إذا حلّت ً عليها أيّام عصيبةٌ مرة أخرى، كما وعد أهل البلدة بشراء علم جديد، الأمر الذي أثار حماسهم كثيرًا. منح مالك الفندق عطلةً لجميع الخدم في ذلك اليوم، وتوجه كل الناس إلى الشارع، بمن في ذلك رئيس البلدية، الذي كان يرتدي زيًّا جديدًا.

كان سيد "سينـڤارا" رجلًا ستّينيًّا بهيّ المظهر، ممتلئ الجسم إلى حدٍّ ما، ذا بشرة شاحبة بسبب بقائه في المنزل كثيرًا، لكنّ شواربه كانت مشمّعة وعينيه مفعمتان بالحياة، وأنفه أفطس وبرّاق. كان الجميع يعرف أنّه صديق الأمير "ياريو" وأنّه حائزٌ على وسامي امتياز، لكنه نادرًا ما وضعهما على بدلته، لأنّ حضوره بعث الآخرين على احترامه حتى لو لم يرتديهما. كلّما تحدّث إلى الناس، خلعوا قبّعاتهم وأجابوه بكلّ احترام.

بعد أن شرب الماء وكأسًا من النبيذ، نظر حوله إلى حشد المتفرجين الفضوليين الذين تبعوه إلى الفندق وأعطى كل واحد منهم شيئًا من المال، حتّى أنه نادى على طفلةٍ صغيرةٍ واقفةٍ بين الناس وأعطاها عملة ذهبية. كلّا، لم تكن صغيرة. أعتقد أنها كانت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر.

فجأة قال:

"أين هو الكازينو؟ أريد أن ألقي نظرةً عليه".

شعر "باڤو" بالسرور لدى سماعه رغبة والده هذه، فقاده إلى أعلى الدرج، ومشى الحشد وراءهما.

لدى دخول سيد "سينـڤارا" الكازينو، نظر إليه الجميع باهتمام واضح. وجدَ أنّ جميع عجلات "الروليت" مشغولة، وكان المقامرون منهمكون برهاناتهم. قام رجل تائه في فكره يسميه النُّدل بـ"الأمير" بإفساح المجال لنظيره، سيد "سينـڤارا" العظيم.

يقول مشرف اللعبة: "ثلاثة عشر على اللون الأسود"، ثم يجمع كلّ النقود وأكوام الفضة والعملات الذهبية الكبيرة والأوراق النقدية، ويخفيها جميعها في درج الطاولة المعدني. يضع الأمير المزيد من الأموال على الطاولة، بهدوء تامّ وكأنّ شيئًا لم يحدث، مع أنّ الرقم 13 حقق الكثير من الأرباح لخزينة الكازينو ذلك اليوم. يلزم الجميع الصمت. تدور العجلة، وتدور كرة "الروليت" معها، ثم تنخفض سرعتها شيئًا فشيئًا إلى أن توقفت:

"ثلاثة عشر!" يصيح المشرف مرة أخرى، ويجمع معظم المال.

لقد كسبت الخزينة ثروة صغيرة من الذهب بسبب هذين الرهانين، لكنّ الأمير استمرّ بوضع المال على الطاولة، ورمى حفنة من الأوراق النقدية عليها من دون أن يعدّها. ما يزال الصمت يسيطر على الموقف بشكل كامل. فجأة يسقط كأس نبيذٍ فارغ على الأرض حين احتكّ قليلًا بجسد أحد النُّدل، ليقع وينكسر ويختلط صوت رنين الزجاج مع صوت اهتزاز كرة "الروليت" البطيئة حول العجلة.

"اشرح لي هذه اللعبة"، قال سيد "سينـڤارا".

بطبيعة الحال، كان "باڤو" يعرف كلّ تفاصيلها، وراح يشرح لوالده كل شيء عنها، في حين أنّ الرجل العظيم كان قد صبّ تركيزه على الأمير، وقال إنّه يدمر نفسه بنفسه. شعر أنّ أمواله الخاصة هي التي كانت على المحك، وتأرجح بتوتّر إلى الأمام وإلى الخلف في كرسيه.

"كلا، إنّه لا يدمر نفسه على الإطلاق"، يجيب "باڤو"، فهو لا يراهن إلّا مستخدمًا الأموال التي كسبها خلال اليوم. "إنّه يعرف هذه اللعبة تمام المعرفة".

وكان ذلك صحيحًا؛ قد ربح الأمير الكثير من الأموال بالفعل. وقف نادلٌ بقربه ولزم مكانه، مستعدًّا لإعطائِه كأسًا من الماء كلّما أراد ذلك، وليلتقط منديله كلّما سقط. ببساطة، كان مستعدًّا لفعل أي شيء على الإطلاق من أجله، على أمل الحصول على بقشيشٍ سخيٍّ عندما تنتهي اللعبة.

وقف بجانب الأمير رجلٌ رومانيّ طويلٌ أسمرُ شاحب اللون، يلعب كما لو أنّ حياته متوقّفة على رهاناته، فقد خسر الكثير من المال على الرقم 13 في آخر محاولتين. كان يقف خلف سيد "سينـڤارا"، فاضطر إلى أن يمدّ يده من فوق كتف السيد كلّما أراد وضع رهاناته على الطاولة، وكانت ذراعه تهتز.

"إنّ هذا الشاب تائه"، يقول السيد.

فأومأ "باڤو" برأسه قائلًا: "نعم. تائه".

"اطلب منه أن يتوقف إذن"، تابع الأب. "قل له إنّني أنا من قال ذلك. لا عليك، سأخبره بنفسي".

فقال له "باڤو" إنّ تقديم المشورة يتعارض تعارضًا تامًّا مع لعب القمار، ثم أضاف بحزن أنّه لا يصلح وقوفهما عند طاولة "الروليت" والاكتفاء بالمشاهدة.

نظر والده إليه في دهشة من أمره، غير مدركٍ أن "باڤو" يتوق بجميع جوارحه للمشاركة في اللعبة، ثمّ قال محتجًّا:

"لكن هناك الكثير من الناس الذين لا يلعبون أيضًا".

فكذب "باڤو" عليه قائلًا إنّ هؤلاء كانوا لاعبين أيضًا، لكنهم ينتظرون أن يحين دورهم.

فأخرج سيد "سينـڤارا" محفظته بكلّ وقار ونبل وقال له: "سنلعب إذن. أرني كيف يتم الأمر. لكن لا تراهن بالكثير من الأموال. فنحن لا نريد تكبّد الخسائر".

ثم فجأةً أمسك بذراع ابنه وأمره أن يخبره عن الرقم 13 الغامض. "لماذا يفوز الكازينو في كلّ مرة؟ لا بدّ أنّ مشرف اللعبة يغش. قل للأمير ذلك".

كان على وشك أن يعيد محفظته إلى جيبه، لكنّه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة. أخرج بعض الأوراق النقدية من المحفظة، ثم عدّها وأعطاها لـ "باڤو" وقال:

"راهن على الرقم 13." فاحتجّ "باڤو":

"لقد خسر الرقم 13 مرتين على التوالي." أومأ والده برأسه وأجاب بحزم:

"لا عليك. ضعه على الرقم 13"*

فراهن "باڤو" على الرقم 13، مبتسمًا بتسامحٍ بسبب تصرّف والده بحماقة.

"خسرنا!" قال والده. "عاود الكرّة، وضاعف المبلغ هذه المرة".

كفّ "باڤو" عن الاحتجاج بعد ذلك. لا بل أصبح يضحك. مرارًا وتكرارًا، ضاعف الوالد الرهان، وجاء جميع من في الكازينو ليروا هذا اللاعب المدهش، سيّد "سينـڤارا". لقد انغمس في اللعبة. بعيون مشرقة راح يتتبع كرة "الروليت"، وهو يتحرّك بقلق في كرسيّه، وقد شدّ قبضة يده السمينة؛ كان يلبس في أحد أصابعه خاتمين ثمينين.

عندما قال المشرف ثلاثة وعشرون بدلًا من ثلاثة عشر، صاح سيد "سينـڤارا": مكتبة سُر مَن قرأ

"حسنًا! ثلاثة عشر مرة أخرى. اجعل الرهان 100 هذه المرة".

"لكن ...".

"اجعله 100 كما قلت لك".

---

* إنّ سبب إصرار الوالد على الرقم 13 هو رغبته بأن يحالفه الحظ، على غرار جميع من يلعب القمار، مع أنّه يعلم أنّ الرقم 13 كان خاسرًا منذ قليل، أي أنّ الأمير كان يراهن على أرقام أخرى لكن الكرة كانت تحط على الرقم 13، ليربح الكازينو، مما جعل الوالد يعتقد أن المشرف كان يغش. راهن الوالد على الرقم 13 إيمانًا منه بأنّ إصراره سيغيّر المجريات ويعود عليه بالأرباح. (المترجم).

وضع "باڤو" الرهان، ودارت العجلة. قفزت الكرة إلى الاتجاه المعاكس، وحطّت عشرين أو ثلاثين مرّة فوق كل رقم، متنقلة بين الأسود والأحمر مرارًا وتكرارًا، مستنشقةً كلّ رقم قبل أن تتوقف.

"ثلاثة عشر!" قال المشرف.

"انظر، يا "باڤو"؟ ماذا قلت لك؟" قال سيّد "سينـڤارا"، ونفخ صدره وتحدّث بصوت عالٍ أسمع جميع المتفرّجين. "عاود الكرّة: 100 على ثلاثة عشر".

"هل أنت جادٌّ، يا أبي؟ قد لا تحطّ الكرة على الرقم ثلاثة عشر مرة أخرى طوال هذا المساء".

"راهن بـ 100 على ثلاثة عشر كما قلت لك".

"لماذا تبدد أموالك هكذا؟"

نفد صبر سيد "سينـڤارا" في هذه اللحظة، ومدّ يده وكأنّه أراد أخذ المال بنفسه من ابنه. ثم سيطر على أعصابه وقال:

"يا ولدي، ماذا لو كانت خطتي هي إفلاس الكازينو؟ ماذا لو كنتُ أرغب في تدمير لعبة "الروليت" الفظيعة هذه؟ راهن بـ 100 على ثلاثة عشر".

ووضع "باڤو" الرهان مرة أخرى، متبادلًا الابتسامة مع المشرف، على وقع قهقهة الروماني التي أسمعت كلّ من حوله. في تلك الأثناء، توقّف لاعبو الأوراق على الطاولة المجاورة عن اللعب، ووجّهوا أنظارهم إلى عجلة "الروليت".

"ثلاثة عشر!"

"ماذا قلت لك!" صاح سيد "سينـڤارا". "كم ربحتُ من المال؟"

"ثلاثة آلاف ونصف"، قال "باڤو" بصوت واهن. "لقد ربحت خمسة آلاف حتى الآن".

"جيد جدًّا. حان دورك. العب أنت الآن. دعني أرى أداءك. راهن على اللون الأحمر".

راهن "باڤو" على اللون الأحمر وخسر.

فأومأ والده برأسه وابتسم في وجه المتفرجين.

"أهكذا تلعب؟ ألا ترى نتيجة طريقتك في اللعب؟ قالوا لي إنّك جعلت الكازينو يفلس ثلاث مرات، وقد أحسنتَ في ذلك. لكن لماذا خسرت كل شيء جنيتَه؟ راهن على الأعداد الزوجية".

"بكم؟"

"بقدر ما تريد. ستمائة؟"

"أنت تبالغ".

"لا بل أعتقد أنّه أقلّ مما ينبغي. راهن بـ 1200 على الأعداد الزوجية".

خسر "باڤو" الرهان.

فَهَزّ سيد "سينـڤارا" إصبعه الثخينة في وجه ابنه وقال بنبرة حادّة:

"اغرب عن وجهي، يا "باڤو". لقد خسرنا 1200 هنا بسببك. غادر الكازينو، هيّا!"

غادر "باڤو"، ومشيت وراءه. كان يضحك مثل المجانين. لم يسبق لي أن رأيت أحدًا يقامر هكذا. لقد جلس سيد "سينـڤارا" هناك وكسب الآلاف ببساطة لمجرّد أنّه كان غبيًا. حفظه الله وحماه! لكن يا لها من فكرة ساذجة، أقصد تلك الرغبة في لعب "الروليت"!

تحدّث "باڤو" عن الأمر لجميع الناس، وسط الضحكات والقهقهة، وأخبرهم بما فعله والده.

في وقت لاحق من ذلك المساء، علمت أنّ سيّد "سينـڤارا" خسر تسعة آلاف قبل أن يغادر الكازينو.

***

في الساعة العاشرة ليلًا، كنت جالسًا على شرفة الفندق أدخّن بصحبة رجل روسيّ اسمه "إيليتش" Iljitsj. فجأة صاح حمّال الحقائب قائلًا لنا: "لقد طلب سيّد "سينـڤارا" رؤية ابنه للتو". كنت على وشك توبيخه لأنّه قاطعنا، لكنّ الروسي منعني من ذلك، فقد أثار الأمر فضوله.

قال لي: "دعنا نراقب لنرى ما سيحدث. لا بدّ أنّه يريد رؤية "باڤو" في هذا الوقت المتأخر من الليل لسبب ما".

مكثنا هناك لفترة من الوقت ودخّنا في صمت. وصل "باڤو"، وكان والده هناك لاستقباله على باب الفندق.

قال له على الحال: "اسمع. لقد خسرت تسعة آلاف بسبب لعبة "الروليت" اللعينة تلك. خلدت إلى الفراش، لكنّني لم أستطع النوم. لقد استحوذت تلك الأموال على ذهني: تسعة آلاف هو المبلغ الذي

وعدت به الكنيسة. يجب أن أستعيده. لن أنعم بالسلام حتى يصبح ذلك المبلغ في حوزتي مرة أخرى. يجب أن أعود إلى الكازينو".

تسمّر "باڤو" في مكانه عاجزًا عن الكلام. مع أنّه كان مدمنًا على القمار، أصابته الدهشة بالخَرَس. لم يقل حرفًا واحدًا.

"لا تقف مكانك هكذا!" صرخ الأب. "تستمرّ اللعبة حتّى بعد منتصف الليل، أيّ أنّ لدينا متّسعًا من الوقت. دعنا نذهب سريعًا".

وفعلًا عاد الاثنان إلى الكازينو.

قال لي الروسي: "هيّا بنا. أشعر أنّ شيئًا مهمًّا سيحدث".

كما هو الحال دائمًا، يصبح المقامرون أكثر شراسةً مع اقتراب منتصف الليل، وتزداد كمية رهاناتهم أكثر فأكثر. كان الأمير جالسًا في المقعد ذاته، يفكّر بهدوء، يقامر ويفوز. كان هناك ما لا يقلّ عن عشرين ألفًا على الطاولة أمامه؛ يقوم بثلاثة رهانات متفرّقة في كل مرة، وهو مسيطر على اللعبة تمامًا، يملأ راحة يده بأمواله ويراهن بها. أحيانًا كان لا يعدّها. لا شيء ولا أحد يزعجه، حتّى ذلك الروماني الغاضب الممل الذي خسر مرة أخرى بعد سلسلة من الانتصارات الصغيرة التي دامت 45 دقيقة: كانت أمواله مبعثرة أمامه، وكلّما سنحت له الفرصة حاول عدّها وترتيبها على شكل مجموعات من فئة الألف حتّى يتمكّن من معرفة كمّية الأموال التي بحوزته من نظرة واحدة. لكنّه كان متوترًا للغاية، وارتجفت يداه، كما توجّب عليه مراقبة عجلة "الروليت" طوال الوقت. أخيرًا كفّ عن محاولة عدّها. يا لغبائه! كان مصرًّا على المراهنة على أربعة أرقام، متمسّكًا بها مثل طفل عنيد. أعتقد أنّه كان مستعدًّا للرهان

بجميع ممتلكاته قبل أن يتخلّى عن فرصته في الفوز، واستمرّ بزيادة رهاناته طوال الوقت.

نظر الأمير إلى الباب عندما دخل الأب والابن مجدّدًا، وأفسح المجال لهما لكي يجلسا بجانبه. ثم واصل اللعب بهدوئه ووجهه الغامض. كان باردًا مثل الجليد. من الواضح أنه يحظى باحترام كبير من قبل اللاعبين الآخرين.

قال سيد "سينـڤارا": ""باڤو"، العب كما كنتَ تلعب عادة. هاك المال. الأحمر هو اللون الذي يجلب لك الحظ، أليس كذلك؟ راهن على اللون الأحمر".

يتكلّم "باڤو" قليلًا مع الرجل المجاور له، وهو جندي عجوز بذراع واحدة، فيخبره الجندي أنّ الأحمر قد فاز في آخر سبع مرات متتالية. لذلك راهن "باڤو" بأمواله على الأسود.

"خمسة وعشرون؛ أحمر"، قال مشرف اللعبة وهو يجمع المال.

"بداية سيئة، يا "باڤو"، من الواضح أنك مصرٌّ على الانصياع لرغبتك." قال سيد "سينـڤارا" مصابًا بخيبة أمل. "كم مرّةً سأقول لك إنّني لست مصنوعًا من المال؟ راهن على اللون الأحمر".

لكنّ الأحمر خسر.

أخيرًا، بعد ثمانية رهانات على الأحمر، جاء دور الأسود. في غضون ذلك، حقّق الروماني فوزًا كاد أن يعوّضه عن جميع خسائره السابقة. غاضبًا من حظّه السيئ، مدفوعًا بالتهّور، وصل به الأمر هذه المرّة إلى أن يضع أقصى رهان يسمح به الكازينو على أرقامه الأربعة. بدا أنّ عناده الشديد جعله غير مهتّمٍ بما إذا كان سيفوز أم

سيخسر. عندما حطّت الكرة على أحد أرقامه بعد أن أصرّ على ذلك مرّة تلو الأخرى، أشار إلى النادل خلف كرسيّ الأمير وأعطاه ورقة نقدية بصمتٍ تام. ثم وضع رهانًا جديدًا بأيديه المرتجفة.

قال الأب لابنه مجدّدًا: "لقد خسرتَ مرة أخرى، يا "باڤو". إنّ الحظَ لا يحالفك. لقد سمحتُ لك أن تلتهم أموالي، وقد فعلتُ ذلك من أجلك. سوف أهذّبك هذه الليلة. هل تفهمني، يا "باڤو"؟"

بكلّ تأكيد، فهم "باڤو" المُوبَّخ قصد والده جيّدًا. كان يعلم أنّ والده أصبح مفتونًا باللعبة، وأنّه حتى عندما خسر ازدادت رغبته باللعب جموحًا؛ صار يختبر كلّ ويلات المقامرة، وكلّما تعاظمت المخاطر توقّف دمه عن التدفّق وأصبح يسمع صوت تنفسه بوضوح. يعرف "باڤو" هذه التفاصيل عن ظهر قلب.

فجأةً تاه الوالد في أفكاره وفقد تركيزه. فلفت مشرف اللعبة انتباهه إلى حقيقة أنه رغم كونه أكثر اللاعبين خبرة، فإنّ رهاناته لم تصب في مصلحته، مما جعله يتساءل عن تصرفات "باڤو". وأنا أيضًا لاحظت أن "باڤو" كان يشير بيده في اتجاه الرهانات التي وضعها والده. فعل ذلك أكثر من مرة؛ لقد أراد استرداد الأموال قبل أن تتوقف الكرة. هل بدأ "باڤو" يتصرّف بحكمة، وينأى بنفسه عن المتاعب؟

مشيت مع الرجل الروسي -بناءً على طلبه- إلى الأريكة في نهاية الغرفة، ثم جلسنا، وبدأ يتحدّث عن "باڤو". "هل لاحظت كيف غير "باڤو" أسلوبه باللعب؟ آه! يا لدهائه. لديه بصيرة حقيقية. "ثمّ أشار الروسيّ نحو الأب وابنه وقال:

"من بين هذين الاثنين، الابن هو الذي يسيطر على الموقف. لقد تفطّن "باڤو" إلى أنّ والده أصبح يعاني من حمّى القمار وأراد أن يخفّف عنه. إنّه أمر مضحك للغاية، أن يحاول الصبي السيطرة على والده. إنّه لأمرٌ رائع، أليس كذلك؟ لم يتمكّن من تجاهل حقيقة أنّ والده كان على وشك أن يدمّر نفسه".

جلسنا هناك على الأريكة نراقب المجريات. حدث شيء على طاولة "الروليت"، والتفّ الجميع حول سيّد "سينـڤارا" وابنه. ما تزال لعبة الأوراق متوقّفة على الطاولة المجاورة، حتّى أنّ المزارعين الثلاثة -بقبّعاتهم الرمادية الكبيرة والأحزمة المعدنية- وتجار السوق المسنّين -الذين كانوا يلعبون القمار عند الباب للفوز بأباريق من النبيذ- نهضوا وانضموا إلى الحشد. ذهبت أنا والروسيّ أيضًا إلى هناك.

"راقب ما سيحصل الآن!" يقول لي الروسي. كان متوتّرًا جدًّا.

مرة أخرى، أصرّ سيد "سينـڤارا" على الرقم ثلاثة عشر. دبّ فيه الحماس، وأمسك بالأموال بيده وبدأ يضع رهاناته بنفسه من دون أن يقول كلمة واحدة. تخبّطت وارتجفت يداه السمينتان وهو يعدّ الأوراق النقديّة المتّسخة ويحاول ترتيبها على شكل مجموعات، وتألّق بريق خاتميه بين كومة الأموال القذرة. كان "باڤو" يجلس بصمت تام بجانبه.

"ثلاثة عشر!" يصيح المشرف.

فاهتزّ جسد سيد "سينـڤارا"، بينما جلس "باڤو" مكانه يحدّق بوالده كالأحمق، وكأنّ لسان حاله يقول: "يا لحظّه المدهش في هذه اللعبة التافهة! لقد تكبّد الكازينو خسائر فادحة حتى الآن. بهدوء

وصمت، يعدّ المشرف المال؛ لا شيء يمكن أن يفاجئ هذا الرجل، فهو يعرف كلّ أشكال الحظ وأغرب حيل الرجال اليائسين. بدا الأمير في حيرة مطلقة من أمره. جمع كلّ أمواله، فاصلًا العملات المعدنية عن الورقية، ثمّ حشرها في جيبه، وطلب الحصول على كأسٍ من النبيذ. شربه دفعةً واحدة ثم نهض وهمّ بمغادرة الكازينو. في طريقه نحو الباب، راح يوزّع الأوراق النقدية يمنةً ويسرةً على كلّ نادل يراه أمامه.

من غير سابق إنذار، وجّه سيد "سينـڤارا" لكمة لكتف ابنه ونظر إليه بعيون محمومة.

"هل ترى؟ هل ترى؟ أتعتقد أنّك ستعلمني كيف ألعب؟ لا يمكن لأحد أن يتفوّق عليّ في هذه اللعبة".

ثم ضحك ضحكةً قصيرة أمام جميع المتفرجين المذهولين. منتشيًا بحظه الجيّد، وضع رهانًا آخر على الرقم ثلاثة عشر.

"ثلاثة عشر رقم رائع حقًّا. سأراهن بكلّ أموالي عليه".

جمع المشرف الأموال هذه المرة، لكن بدا عليه التردّد؛ ربما كان يودّ أن يفوز الرقم ثلاثة عشر مرة أخرى لكي يتشجّع السيد الثري على اللعب مجدّدًا، فسوف يقع في براثن الكازينو عاجلًا أو آجلًا.

بعد أربع محاولات فاشلة مع الرقم ثلاثة عشر نفد صبر سيد "سينـڤارا"، ثمّ التفت باهتياج إلى ابنه:

"لن أراهن على الرقم ثلاثة عشر مرة أخرى، يا "باڤو". لقد خسرت كثيرًا بسبب هذا الرقم الغبي".

وتنامى غضبه شيئًا فشيئًا؛ طلب من نادلٍ يرتدي حذاءً يصدر صوت صريرٍ حادٍ أن يغادر الغرفة، ورمق الرومانيّ بنظرة قذرة عندما توقّف اللعبُ قليلًا لأنّه نسي أخذ مكاسبه، كما سئم من جميع الأشخاص الذين تجمهروا حوله لكي يتفرّجوا على رهاناته. "هل بإمكانكم فعل أيّ شيء آخر؟ أيّ شيءٍ مفيد؟" ثم أومأ إلى الفتاة لكي تتقدّم نحوه وقال لها:

"ألست أنتِ الفتاة الذي أعطيتها العملة الذهبية؟" احمرّت خجلًا وانحنت أمامه احترامًا.

ثم أجابت: "نعم يا سيدي".

"إذن لماذا لا تغادرين المكان، يا صديقتي الصغيرة؟"

تحرّك فمها الأحمر الصغير لكنّها بقيت صامتةً ونظرت إلى الأرض، فحدّق بها سيد "سينـڤارا" عن قرب وأعطاها عملة ذهبية أخرى.

"هاكِ: خذي هذه. وارجعي إليّ عندما تنتهي اللعبة، بعد منتصف الليل".

أشرق وجه الفتاة وانحنت مرّة أخرى احترامًا للسيد. مشت باتجاه الباب وهي تبتسم في وجوه جميع الناس المتجمهرين.

وجّه سيد "سينـڤارا" انتباهه مرة أخرى إلى اللعبة وقال: "هناك الكثير من الذباب على النافذة؛ إنّها تشتت انتباهي. فليخرجها أحدٌ منكم من هنا".

بدأت أمواله تنفد بسرعة، وصار الحظ يحالف الرومانيّ الآن، الأمر الذي لم يعجب سيد "سينـڤارا" على الإطلاق.

قال ل"باڤو": "انظر. لم يعد بحوزتي إلّا هذه الحفنة من المال. لكنّي لن أستسلم، وإلّا خسرت الكثير. حسنًا، ضع لي ألفًا على اللون الأحمر. قد يكون هذا اللون هو الذي يجلب لي الحظ".

فاز الرهان على الأحمر.

فقال: "قد أكون محقًّا إذن. سأحاول مرة أخرى. لنعتبر المرة الأولى بمثابة تجربة"، لكنّ الأحمر خسر.

في تلك اللحظة بالذات، غضب سيد "سينـڤارا" غضبًا شديدًا ولم يعد قادرًا على ضبط نفسه.

"اغرب عن وجهي!" صرخ في وجه ابنه. "أنت النحس بعينه. لقد أفسدتَ كلّ شيء. يجب أن أنتقم لنفسي وأستعيد أموالي". ثمّ تذكّرَ الدور الذي كان من المفترض عليه أن يؤدّيه وأضاف: "لا تنس أنّني أفعل كلّ هذا لأجلك. فليكن هذا درسا لك".

"لقد تعلّمت درسي"، تمتم "باڤو".

"اصمت. كلا، لم تتعلّم بعد. أَعلمُ أنّك ستقامر من جديد. أنا أفعل كلّ هذا من أجلك، هل تسمع؟ والآن اخرج من هنا!"

نهض "باڤو" وغادر المكان.

***

أصبحت الساعة الثانية عشرة، وكان اللاعبون يغادرون طاولة "الروليت" واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبقَ إلّا الروماني والجنديّ ذو الذراع الواحدة واللحية البيضاء، الذي قامر بحذر شديد ليس له مثيل. راهن بمبالغ قليلة وفاز باستمرار، ولم يؤثر حظّه على حيطته.

أما سيد "سينـڤارا" فاتّبع طريقةً مختلفةً تمامًا. صار يراهن بتهوّرٍ كبير كلّما شعر بتحسّن حظه قليلًا. منذ أن غادر "باڤو" لم يعد بحوزته إلا ما يزيد عن الألف تقريبًا. فاز بستمائة بعد رهانيه التاليين، لكنّه راهن بها وخسرها على الفور. بدأ الناس يشعرون بالشفقة تجاهه. لاحقًا، عاد الأمير إلى الكازينو، لكنّه عاد ليتفرّج فحسب، ثمّ جلب كأسًا كبيرًا من النبيذ إلى سيد "سينـڤارا" ونصحه بصوت مسموع:

"لقد انقلب حظك عليك. كفاك لعبًا اليوم".

لكنّ سيد "سينـڤارا" لم يجب. نظر إلى الأعلى، وفكّر في اللعبة، ثم شرب كأس النبيذ في صمت.

بعد بضع لحظات، بدا أنّ الحظّ سيحالفه مجدّدًا، وفاز ثلاث مرات متتالية.

"هذه هي طريقة اللعب الصحيحة!" قال بسعادةٍ ودفءٍ موجّهًا كلامه للجنديّ العجوز، لكنّه لم يسمعه، فقد كان منهمكًا بلعبته ورهاناته الصغيرة. إلّا أنّ الروماني لاحظ الاضطراب الغريب الذي أصاب سيد "سينـڤارا".

يتبادل الرومانيّ النظرات مع المشرف ثمّ يضع مكاسبه في جيبه ويتوقّف عن اللعب.

الآن، أوشك سيد "سينـڤارا" على الإفلاس. لم يتبقّ بحوزته إلّا بضع مئات من الأوراق النقدية، وراح يراهن بكلّ سنت منها على اللون الأسود، لكنّ الأسود خسر، فشحب وجهه مثل جثّة هامدة، نظر من حوله وقد أحاط به اليأس.

"اللعنة على اللون الأسود!" يحتدم صوته فجأةً.

ثم بدا عليه أنّه سوف يعيد النظر في خياراته. راقبه المشرف عن كثب، مسدّدًا المال للجنديّ العجوز مقابل رهاناته البسيطة بشكل آلي، سواء أفاز أم لا. لا يزال سيد "سينـڤارا" جالسًا بهدوء، غارقًا في التفكير. لماذا لم يغادر، يا ترى؟ وضع خاتميه على الطاولة أمام المشرف، الذي نظر إليهما بدوره قبل أن يضعهما بهدوء في الدرج المعدني مع العديد من المجوهرات الأخرى، ثم أعطى سيد "سينـڤارا" ثلاثة آلاف عملة ذهبية. كان الصمت مسيطرًا على المشهد. شاهدنا سيد "سينـڤارا" يمسك بكدسات الذهب دقيقةً كاملة وهو يرتجف بشدة. فجأةً نهض بعنف من كرسيّه ووضع كدسات الذهب الثلاث واحدة تلو الأخرى على منتصف الطاولة وراهن على الأسود.

تشرع الكرة بالحركة، وتدور بخفّة وصمت؛ تتنقّل بين مختلف الأرقام، ثم تتوقف.

"أحمر!"

يقفز سيد "سينـڤارا" ويضع كلتا يديه على رأسه ويصرخ بأعلى صوتٍ ثم يغادر الكازينو.

***

في الصباح التالي، أخبرني حمّال الحقائب أنّ سيد "سينـڤارا" خسر 54000 على طاولة "الروليت" في الليلة السابقة. أما بالنسبة ل"باڤو"، فقد عاد إلى كشكه. كان حمّال الحقائب قد التقى به عند مضخة المياه، عاري الرأس، يتحدّث إلى نفسه ويلقي المواعظ. عندما يكون "باڤو" صافي الذهن، لا يمكن لأيّ قسّيس أن يتفوّق عليه في وعظ الآخرين. "اهرب من كلّ أشكال الفسادٍ!" قال "باڤو" عدّة مرات. "اصرف نفسك عن سيّد المغريات! فإنّه إذا شعر بضعفك استولى على فؤادك. هل أصبحت تائهًا لدرجةِ أنّ شخصًا مثلي -روح بائسة مثلي- عليه أن يحذّرك من القادم؟" كان خطابًا قويًّا ومقنعًا. في رأي حمّال الحقائب، كان "باڤو" يتدرّب على ما سيقوله لوالده لاحقًا.

لقد كان هذا الرجل كالثعلب، يعرف كلّ شاردة وواردة ولا تفوته فائتة.

قال لي: "اليوم هو موعد رحيلك"، مع أنّني لم أخبر إدارة الفندق بذلك، ولم أطلب فاتورتي. سألته: "كيف عرفت ذلك؟"

فأجاب: "أعلم أنّك طلبتَ من مكتب البريد أن يرسلوا رسائلك إلى عنوان آخر، كما أنك قمت بحجز مقعد على متن عربة لتذهب بك إلى القارب في الساعة الخامسة".

كيف عرف ذلك! انتابني شعورٌ بأنّ هذا الرجل الذكي كان يتجسس عليّ ونفرت منه نفورًا حادًّا؛ أغضبني كثيرًا وما عدت قادرًا على تحمّل تعابير وجهه الوقحة. عندما نظر إليّ بعينيه شديدتي البياض شعرت بأنّ جسدي قد تجمّد، وكأنّني أقف وسط تيار هوائي بارد.

قلت له: "ابتعد عني أيها الكلب!".

إلّا أنّه لم يحرّك ساكنًا، ولا حتّى إنشًا واحدًا. كانت يداه خلف ظهره. ماذا كان يفعل؟ ماذا كان يفعل بيديه خلف ظهره؟ هل كان يخطّط لشيء ما؟

قال لي: "إنّ ما قلتَه للتو مؤذٍ للغاية". ثم لزم الصمت، لكنّه استمر في النظر إليّ مباشرة. مشيت ووقفت خلفه لأعرف إن كان ينوي القيام بأي شيء، لكنّ يديه كانتا خاويتين. وقف هناك شابكًا أصابعه فحسب. وقفت أمامه مرة أخرى، وإذ بكتفيه ترتجفان وعينيه تذرفان الدموع. شعرت بالأسف لأنّني صرخت في وجهه، وكنتُ على وشك الاعتذار منه عندما اندفع نحوي على حين غرة وهو يحمل مفتاحًا برّاقًا غريبًا طويلًا، وضربني على ذراعي اليمنى وعلى معصمي ضربة موجعةً فسالت الدماء منّي وارتخت ذراعي كليًّا. وقفت مشدوهًا أمام صفاقته، عاجزًا عن الكلام، غير قادرٍ على الحركة. وضع يديه خلف ظهره مرة أخرى. بعد لحظات قليلة، مررت به مجدّدًا متوجّهًا نحو الباب.

فقال لي: "ربّما تعتقد أنّني سأضربك مرة أخرى، لا سمح الله. لكنّي لن أفعل ذلك".

فتحت الباب بيدي اليسرى وأجبته وأنا أشير إليه لكي يخرج من غرفتي: "أحضر لي فاتورتي".

انحنى حمّال الحقائب أمامي وغادر. بمجرّد أن أغلقت الباب سمعته يشهق بصوت عالٍ ...

لم أرحل من البلدة ذلك اليوم. كانت يدي تؤلمني كثيرًا وشعرت بأنّني لن أتمكّن من السفر: لقد تسبّبت لي ضربته بثقبين عميقين أزرقي اللون في معصمي، كما انتفخت الأوردة في ذراعي حتّى المرفق. يا لها من فعلةٍ فظّة ومشينة! لكنّ حمّال الحقائب ندم على الفور وأحضر لي الكحول والضمادات لتطهير الجرح. بعد هذه الحادثة، أصبح اهتمامه بي لا مثيل له. بعد أن خلدت إلى الفراش ليلًا، أخبر ساكني الغرف المجاورة لغرفتي أن يحافظوا على الهدوء التام. وفي حوالي الساعة الواحدة صباحًا، عندما بدأت مجموعةٌ من المزارعين السكارى في الغناء في الخارج، ركض نحوهم غاضبًا وأمرهم بالذهاب إلى مكانٍ آخر، وأخبرهم أنهم كانوا يزعجون رجلًا نبيلًا طريح الفراش، أميرًا أُصيب معصمه بأذىً كبير.

في اليوم التالي قرعت الجرس مرّتين، لكن لم يأت أحد. كنت مريضًا وغاضبًا، فقرعته بعنف مرّة ثالثة. أخيرًا، رأيته يمشي باتجاه الفندق على طول الشارع. كان في الخارج. عندما جاء إلى غرفتي قلت له:

"قرعتُ الجرس أكثر من مرّة منذ 15 دقيقة. سيكون من دواعي سروري أن أضاعف البقشيش لك إذا كانت هذه هي المشكلة. والآن أحضر لي كأسًا من الشاي".

من الواضح أنّ كلماتي آلمته كثيرًا. لم يقل شيئًا، وسارع لإحضار الشاي. لقد تأثّرت بصبره وتواضعه. شعرت أنّه مثل امرأة شابة لم تسمع كلمة طيبة طوال حياتها، وفوق ذلك كان عليه أن يتحمّل قسوتي أيضًا، لذا قررت أن أكفّر عن خطئي على الفور. عندما عاد قلت:

"انسَ ما قلتُه! لن أتحدّث معك بهذه الطريقة مرة أخرى. أخشى أنّني لست على ما يرام اليوم". بدا أنّ تودّدي له أسعده للغاية. أجابني: "أؤكد لك أنّه كان لديّ مهمة ضرورية للغاية في المدينة. لقد حتّم الأمر عليّ أن أغادر جانبك".

بعد ذلك، مستمدًّا التحفيز من حسن معاملتي له، رجع لحاله القديم وبدأ يثرثر ويقصّ عليّ الحكايات؛ كان على استعداد تامّ للبوح بكل سر وخبر جمعه عن نزلاء الفندق.

"لا بدّ أن أخبرك بأمرٍ هامّ. لقد بعث سيد "سينـڤارا" للتوّ برجل من رجاله إلى منزله لجلب المزيد من المال... الكثير من المال. يقول "باڤو" إنّ والده سيقود نفسه إلى الهلاك على طاولات القمار. كما أنّه لم يسترد خاتميه بعد".

فقلت له: "يا للعجب، أليس كذلك؟"

"وقد سهرت تلك الشابة اليافعة طوال الليل بصحبته. إنها من الجبال. لا بدّ أن نيل هذا الشرف كان بمثابة حلم كبير لديها. حتى أنّ والدها شعر بدهشة كبيرة".

عندما حان وقت العشاء، جلست على الشرفة أشاهد نشاط الناس في السوق، وقد وضعت ذراعي في حمّالة للكتف. كان الروسي مسترخيًا على المقعد بجانبي ويطالع كتابًا. فجأة نظر إليّ وسألني عمّا إذا كنت أعرف أنّ سيد "سينـڤارا" قد أرسل أحدهم إلى المنزل لكي يجلب له المزيد من المال، كما اجتمع مع "باڤو" في وقت سابق من اليوم، حيث ألقى الابن محاضرة على والده، الذي بدوره قال إنّه يتفّق مع بعض أجزائها، لكنّ سيد "سينـڤارا" كان حازمًا وقال

إنه لا يحقّ لابنه أن يملي عليه أي شيء، وأصرّ على استعادة الأموال التي خسرها: "هل تعتقد أنّني سأعطي مبلغ 63000 من الذهب إلى رجال العصابات هؤلاء؟ أنت مخطئ. وعلاوة على ذلك، لم أكن أنوي الاستمرار في اللعب بغرض تعويض خسائري فحسب، كما يجب أن يعرف هؤلاء الأشخاص الطيبون الذين أشفقوا عليّ عندما خسرت هذين الخاتمين أنّه لا يزال بإمكاني إعطاء كل واحد منهم خاتمًا لكل إصبع لديه، ولن يؤثر ذلك على ثروتي قط".

ثم قال لي الروسي: "ذلك صحيح. لقد أصبح منغمسًا في القمار لدرجة أنّ الخسائر لم تعد تهمّه. إنّ ما يجذبه الآن للمقامرة هو حلاوة اللعب، والتوتر، والعذاب النفسي، وتدفّق دمه بعنف في عروقه".

سألته: "ماذا عن "باڤو"؟ ماذا قال "باڤو"؟"

"اهرب من الفساد!" هذا ما قاله. "كن مستقيمًا نزيهًا، يا رجل! ألستُ أنا عبرةً لمن يعتبر؟" تحدّث "باڤو" مطوّلًا، بصوت مشحونٍ بالعاطفة، وبين الحين والآخر، أشار بيده إلى السماء. كان مشهدًا لا مثيل له: أن يتظاهر ذلك الشاب الماكر بتحلّيه بفضيلةٍ قد فقدها منذ زمنٍ طويل. يا لوقاحته. كيف تجرّأ على إلقاء محاضرة كهذه على والِده؟ كما احتجّ على كلام والده الذي قال سابقًا إنّه يقامر من أجل ولده وإنّه يريد إنقاذه من هذه الرذيلة، وإنّه سيحقّق هذه الغاية مهما كلّف الأمر. لقد أثار ذلك غضب "باڤو": ففي حين أنّه دائمًا ما حافظ على احترامه لذاته، قام والده بالمقامرة بخاتميه أمام الجميع. نعم، أكّد "باڤو" أنّه صان كرامته طوال عمره ولم يقترض المال من كشكه؛ لطالما فصل بين مراهناته وشؤونه الخارجية والتجارية. أخيرًا، هدّد "باڤو" والده بالأمير "ياريو".

"اصمت!" قال والده. "لقد قطعت وعدًا على نفسي بأن أريك عواقب تصرّفاتك غير المسؤولة وهذا ما سأفعله. وداعًا، يا "باڤو"".

وغادر "باڤو"، لكنّ والده ذهب مباشرة إلى الكازينو.

"ألا تعتقد أنّ نية والده هي حقًّا تصويب سلوك "باڤو" بهذه الطريقة الغريبة؟" سألت الروسي. فهزّ رأسه.

"حتّى وإن كان صادقًا، فإنّ هذا الأسلوب لا ينفع. على أيّ حال، لقد أصبح الأب مدمنَ قمارٍ مثل ابنه الآن".

صار سيد "سينـڤارا" ومقامراته حديث البلدة بأكملها، لكنّه لم يكترث لذلك البتّة، وازداد فخره بنفسه أكثر من ذي قبل وتحسّن مزاجه. بين الحين والآخر، كان يمازح المارة في الشارع:

"أرى أنّك تنظر إلى يدي. نعم، نعم، لقد أصبحت فقيرًا. حتى أنّني اضطررت إلى رهن خاتمي، ها ها ها".

بعد أن خسر كلّ الأموال التي كانت بحوزته، لم يعد بمقدوره الذهاب إلى الكازينو، فطلب من حمّال الحقائب أن يخبره عمّا كان يجري على طاولة "الروليت": من كان يربح، ومن كان يخسر، وكم كان حجم الرهانات، ومن الذي راهن بأكبر المبالغ. في اليوم التالي، أخبرني الروسي أنّ سيد "سينـڤارا" قد صلّى لمدة ثلاث ساعات من أجل أن يحالفه الحظ، وقال إنّه سيكفّ عن المقامرة بمجرّد أن يستعيد أمواله التي خسرها. لقد قطع هذا الوعد خلال دعائه بصوت عالٍ، وذرف بعض الدموع أيضًا. كان الروسيّ قد حصل على كلّ هذه المعلومات من حمّال الحقائب، الذي كان يتجسس على سيّد "سينـڤارا" من خلال ثقب المفتاح.

***

بعد ثلاثة أيام، تعافت يدي من الضربة واتّخذتُ قراري بالسفر في ذلك المساء. ذهبت إلى المدينة لترتيب بعض الأمور، وختمت جواز سفري في مركز الشرطة. في طريق العودة، مررت بكشك "باڤو". لقد وجدت نفسي في نهاية المطاف مهتمًا بهذا الرجل ووالده، رغمًا عن إرادتي. كان الجميع يتحدثون عنهما؛ إنّهما محور كلّ محادثة في الفندق، لذا صار من المستحيل ألّا أفكّر فيهما مثلما كان يفعل سائر الناس وأسأل كلّ يومٍ عن آخر أخبار سيّد "سينـڤارا".

دخلت إلى كشك "باڤو". كان قد فاز بمبلغ كبير في لعبة الأوراق الليلة السابقة، متفوّقًا على أحد الغرباء ومجرّدًا إيّاه من كلّ أمواله، لكنه أعاد له بضعة مئات كرمًا منه، قبل أن يجلس على طاولة "الروليت" حيث حالفه الحظ طوال الليل وفاز بثروة صغيرة. قال لي "باڤو" في اللحظة التي دخلت فيها: "هل يمكنك أن تتخيل أنّ سيّد "سينـڤارا"، والدي أنا، كان هنا للتو وحاول اقتراض المال منّي! قال إنّه أراد استعادة خاتميه. لكن من المحال أن أفعل شيئًا غبيًا كهذا. إنّ والدي رجل طيب، وقد تألّمت لأنّي اضطررت إلى رفض طلبه، لكنّني فعلت ذلك من أجل مصلحته. عليّ أن أفعل ما في وسعي للحفاظ على شرف العائلة، كما يجب أن يتعلم والدي أن يدرك عواقب تصرّفاته الطائشة. أعتقد أنني أحسنت الاختيار، أليس كذلك؟".

وجدته مقرفًا جدًّا. صحيحٌ أنّ الحظ الجيد الاستثنائيّ الذي حالفه البارحة قد ملأ جيوبه بالمال، لكنّه جعله متعجرفًا. كان يتكلم وهو مطأطئ الرأس، مخفيًا جبينه كما لو كان موسومًا بشيء ما، وعندما رفع نظره رأيت الأكاذيب تملأ عينيه.

"ألا تعتقد ذلك؟" قال لي "باڤو".

فأجبته: "هذا ليس من شأني".

شعر بالإهانة وتمتم قائلًا: "هذا يعني أنّك لا تعرف المنطق السليم عندما تراه بأمّ عينك".

رفع كتفيه وراح يسير بسرعةٍ ذهابًا وإيابًا خلف منضدته.

ثم توقف وقال:

"حسنًا، كيف لي أن أساعدك، بما أنّ حظّك السيئ قد ساقك إلى هنا؟".

فاشتريتُ بعض الأشياء من غير تخطيط مسبق، أشياء لم أكن بحاجتها حقيقةً، ثمّ غادرت المكان.

ما إن وصلتُ إلى الفندق حتّى جاء حمّال الحقائب مسرعًا وأخبرني أنّ الرجل الذي أرسله سيد "سينـڤارا" قد عاد بالأموال، والآن كان هذا الأخير ينتظر أن يفتح الكازينو أبوابه حتّى يتمكن من اللعب مرة أخرى. لم يكن "باڤو" على علم بكل هذا، لأنّ والده أراد ألّا يطّلع ابنه على المجريات، وقد أعطى ساعيه المال لكيلا يخبره بآخر الأخبار.

دقت الساعة الخامسة.

في اللحظة التي افتُتح فيها الكازينو، دخل إليه سيد "سينـڤارا". كان مضطربًا للغاية، وراح يومئ بيديه بشكل غريب كما لو كان يؤكّد شيئًا ما أو يقسم على شيء ما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان الأمير والجنديّ العجوز هناك، كما كان هناك رجلان غريبان يلعبان "الروليت"، لكنّ الروماني لم يحضر. أوّل شيء فعله سيد "سينـڤارا" هو دفع المال من أجل استرداد خواتمه.

ثمّ قال لمشرف طاولة "الروليت" بصوت أرستقراطيّ بارد، وهو ينظر إلى الطاولة بدلًا من وجه المشرف: "حين يحلّ المساء، سوف أراهن بأعلى مبلغٍ يسمح به الكازينو".

"أتمنّى أن يضيء نجمك المحظوظ لينير دربك!" قال له المشرف وانحنى له.

ثم بدأت اللعبة.

بدا سيّد "سينـڤارا" مصمّمًا للغاية، مراهنًا على الأحمر ثلاث مرّات متتالية وفائزًا برهاناته. ثم وضع أمواله في جيبه، ليلعب بعد ذلك بمكاسبه فحسب. حاول ثلاثة عشر مرة، لكنّه لم يربح حتى مرة واحدة، فشعر بالغضب بسبب انقلاب حظه عليه، لذلك أصرّ على اللون الأحمر عدّة مرات وحقق بعض المكاسب. الآن، أصبح لديه مبلغٌ كبير على الطاولة أمامه. كان يلعب بشكل عفويّ، غير متردّد، غير مضيّع الوقت، حيث كان يجهّز رهانه التالي حتّى قبل أن تستقر الكرة ليعرف نتيجة رهانه السابق، ولم يقم بعدِّ المبالغ التي راهن بها أيضًا، وكأنّه كان في حالة من النشوة: يرى مربّعًا أسود على الطاولة فيضع رهانًا كبيرًا وسطه.

فاز الأسود، وبدا أنّ انتصاراته لن تعرف حدًّا في هذه المرحلة، فقد أصبح اللون الأسود مثل منجم للذهب ينضح بالمال، فاستغلّه سيد "سينـڤارا". فجأةً سيطر على نفسه وتوقّف لبرهة، آخذًا نفسًا

عميقًا. دارت العجلة، لكنّ سيّد "سينـڤارا" نسي أن يضع رهانه؛ كان لا يزال يتنفّس بعمق. تدخل الفتاة الشابة الغرفة وتمشي نحوه وهي تبتسم بخدودٍ متورّدة من الخجل، فيراها ويشير لها أن تذهب بعيدًا.

ثم قال لها: "هل رأيتِ ما حصل؟ بمجرّد أن دخلتِ، نسيتُ أن أضع رهاني". بعد مرور القليل من الوقت، دعاها إلى الاقتراب مرة أخرى. توقّفت الكرة عند اللون الأحمر، وكان حظّه العاثر قد أنساه أن يراهن على الأسود. وضع خاتمًا من خاتمَيه الثمينين في يد الشابة ثمّ دنا منها وهمس شيئًا في أذنها. فاحمرّ كلّ وجهها خجلًا، ووضعت كلتا يديها على عنقها وغادرت مسرعةً من الغرفة.

لكنّ سيد "سينـڤارا" استمر في اللعب، بشكل ميكانيكي، مراهنًا بطيش واضح. وضع بضعَ حفنات من الذهب على شكل صفوف طويلة وراهن بها على اللون الأحمر. فجأةً، أصابه عدم يقين عميق، وكان على وشك أن يمدّ يده لكي يستردّ ماله، لكنّه تمالك نفسه وترك كلّ شيء على حاله.

توقّفت الكرة.

"أحمر!" هتف سيد "سينـڤارا"، مبتسمًا في وجه المتفرّجين، ثمّ قال بصوت المنتصر في المعركة: "أحمر مرة أخرى. نعم، كان لدي حدس قويّ بأنّ الأحمر سيفوز".

انطلاقًا من تلك اللحظة، فقد سيد "سينـڤارا" السيطرة على نفسه. دقّت الساعة العاشرة ووصل المزيد من اللاعبين، أولئك الذين يأتون كل ليلة ولا يذهبون حتّى وقت متأخّر، والروماني من بينهم. لقد نسيت رحلتي ولم أغادر البلدة، لأنّني انغمست بشدةّ في

متابعة تحرّكات سيد "سينـڤارا" وكنت متوتّرًا للغاية. بدا لي أنّه لم ينتبه إلى كلّ القادمين الجدد الذين تجمهروا حوله عند الطاولة، لأنّ حظّه الجيد نوّمه مغناطيسيًا، فراح يضع رهانات كبيرة على عدة أرقام في وقت واحد. في حركة مفاجئة، أمسك بحفنةٍ من الذهب، مراهنًا بأكبر مبلغ يسمح به الكازينو على الرقم خمسة وعشرين، وحذا حذوه ثلاثةً لاعبين آخرون. امتلأ المكان بصوت تهامس المشاهدين، وانتظرنا جميعًا بفارغ الصبر.

ثلاثة عشر!

خسر الرهان، فكشّر الروماني عن أسنانه في غضب عارم. لكنّ نزوة أخرى أصابت سيد "سينـڤارا": نهض قليلًا من كرسيه، وراهن مجدّدًا بأكبر مبلغ مسموح به، لكنّه راهن على الصفر هذه المرة، ولم يقلّده أحد، إذ أنّ الخطوة البائسة تلك أخافت الجميع.

صفر!

هاج جميع من في الغرفة مذهولين مما حصل؛ وسط تلك الجعجعة الرهيبة، سمعت صوت الروماني وهو يشتم ويلعن حظّه. بعد لحظات، جاء "باڤو"، وتبعه حمّال الحقائب الذي كان قد أخبره بالمستجدّات كلها. ذهب "باڤو" مباشرة إلى كرسي والده، وبصمت تام، أمسك به من كتفيه وراح يهزّه.

فرفع الوالد نظره ورأى ابنه، واستسلم على الفور. لقد أدرك أنّه لا يمكن لأحد أن يقاوم مغريات القمار، وأنّه أصبح غارقًا في هذا العالم من أخمص قدميه إلى قمة رأسه.

"أعلم أنّك غاضب يا "باڤو"." كانت هذه الجملة الوحيدة التي قالها. ثم قام بجمع مكاسبه بحركات آلية، حاشرًا الأوراق النقدية والعملات المعدنيّة في جيوبه كيفما اتفق. أخيرًا، أمسك بآخر حفنة من المال بيده ونهض ومشى وراء "باڤو".

راقبهما مشرف اللعبة بعيون تقدح شررًا وهما يغادران الكازينو. لقد انهارت اللعبة كليًّا...

في وقت لاحق، علمنا أنّ سيد "سينـڤارا" كان قد عوّض الخسائر التي تكبّدها في زياراته السابقة إلى طاولة "الروليت"، إضافةً إلى أنّه كسب 600 أو 700 من الكازينو. لقد شعرتُ بسعادة كبيرة من أجله. كان أكثر اللاعبين صدقًا، ومن الآن فصاعدًا، سوف يهجر لعبة "الروليت" إلى الأبد.

***

في المساء التالي، كنت مستعدًّا لمغادرة البلدة. نقل حمّال الحقائب أمتعتي إلى رصيف الميناء، ودفعت فاتورتي، وكان كلّ شيء على ما يرام. أعطيت حمّال الحقائب بعض المال وودّعته، فومضت عيناه البيضاويتان الكبيرتان وبدأ في البكاء، ثمّ قام ذلك المسكين بطبع قبلة على يدي.

"هل تعلم" -قال لي هو يجفف عينيه- "أنّ سيد "سينـڤارا" وأنت ستسافران على متن القارب ذاته؟ لقد وعد "باڤو" بالعودة إلى المنزل". أصرّ هذا الشخص الموسوعي على أن يقصّ عليّ حكاياته حتى اللحظة الأخيرة: كان "باڤو" قد ألقى محاضرة أخرى على والده؛ فعندما فشل في تهديده بإخبار الأمير "ياريو"، أخرج مسدّسًا

صغيرًا وتوعّد بإطلاق النار على نفسه من أجل إنقاذ شرف والده. لذلك استسلم سيد "سينـڤارا" وأذعن لطلب ابنه، كما أنّه لم يرد أن يخسر صداقة الأمير "ياريو". علاوة على ذلك، ذكّره "باڤو" بأنّه كان قد أقسم بكلّ ما هو مقدس على هذه الأرض أنّه سيتوقف عن لعب القمار بمجرد أن استعاد الأموال التي خسرها. باختصار شديد: كان سيد "سينـڤارا" في طريق عودته إلى المنزل فعلًا.

"وداعًا!" قال لي حمّال الحقائب. "ستراه واقفًا عند القارب".

كانت الساعة الخامسة.

عندما فتح الكازينو أبوابه، انطلقت نحو رصيف الميناء، حيث كان بعض العمّال يضعون حمولةً من حصائر الرافية* raffia على متن القارب. وصل سيد "سينـڤارا" مع خادمه بعد بضع دقائق، وكان كلاهما يرتديان ملابس السفر. شاهدت عددًا كبيرًا من الناس هناك، لكنّي لم أرَ "باڤو". فسألت رجلًا عجوزًا:

"لماذا لم يأت لكي يودّع والده؟"

"إنّ لـ"باڤو" كبرياءه الخاص"، أجابتني فتاة صغيرة كانت قد وصلت للتو. "يشعر بالخجل من أبيه الذي قامر بخاتميه الثمينين. نعم، تلك هي صفات "باڤو"".

كانت الفتاة الشابة التي رافقت سيد "سينـڤارا" خلال تواجده حاضرةً أيضًا. وقفت بجانبه حانية الرأس وراحت تنظر إليه، لكنّه لم يبادلها النظرات ولا مرّة.

* حصائر مصنوعة من ألياف شجرة نخيل الرافية. (المترجم).

مشيت جيئةً وذهابًا على الرصيف عدة مرات بعد أن تفحّصتْ الجمارك أمتعتي. راقبت حمّالي الحقائب وهم يضعون حقائبي على متن القارب، ثم صعدت أنا. نظرت حولي فلم أجد سيّد "سينـڤارا"، مع أنّ خادمه كان هناك، ثمّ نظرت حولي مجدّدًا بحثًا عن الفتاة الشابة، لكنّها لم تكن هناك أيضًا.

بعد أن انتهى العمّال من وضع الحصائر في عنبر الشحن، صعد آخر راكب على متن القارب. فجأةً بدأ جميع الركاب يسألون عن سيد "سينـڤارا"، فقد كان من المفترض أن يسافر معهم. أين هو يا ترى؟ لم يبرح القارب من رصيف الميناء، حيث أجمع الناس ألّا يغادروا ما لم يسافر معهم الرجل العظيم. كان خادمه صامتًا في هذه الأثناء، فنزل جميع الركّاب من القارب وبدأت رحلة البحث عن سيد "سينـڤارا". بحثنا عنه على رصيف الميناء، وفي كل مكان خفيّ في البلدة، وسألنا جميع الناس عنه من غير طائل. لم نحصل على أيّ إجابة. هل سقط في البحر عن طريق الخطأ؟ أم أنّه قفز في البحر مختارًا الموت الصامت بملء إرادته؟ فجأةً خطرت في ذهني فكرة غريبة جدًّا، فطلبت من القبطان أن ينتظرني لمدّة خمس دقائق لعلّي أعود إليهم بنبأٍ عن الرجل المفقود.

قفزت من المركب وتوجّهت مسرعًا إلى الفندق. وصلت وصعدت الدرج ذاهبًا إلى الغرفة الزرقاء في الطابق العلوي. حابسًا أنفاسي، فتحت الباب ونظرت إلى الداخل.

رأيت الفتاة الشابة أوّلًا: كان وجهها قد اكتسب الحمرة الشديدة مجدّدًا وبدت متألّقة للغاية. في الكرسي أمامها، على طاولة "الروليت"، جلس سيد "سينـڤارا" بشحمه ولحمه. كان قد عاد ليقامر مرّة أخرى...

في سهوب القمح

في صيف عام 1887، كنت أعمل في مزرعة "دالرَمبل" Dalrumple الضخمة في وادي النهر الأحمر Red River Valley في أمريكا. كان هناك نرويجيان آخران بالإضافة إلي، وسويديّ، وعشرة أو اثنا عشر آيرلنديًا وبعض الأمريكيين. إجمالًا، شكّلت مجموعتنا التي عملت في قسم صغير من المزرعة عشرين رجلًا، وهو عدد بسيطٌ جدًّا مقارنةً بالقوى العاملة المكوّنة من مئات العمال في تلك المزرعة.

كانت سهوب المزرعة الذهبية لا نهاية لها، مثل البحر تمامًا. لم يكن هناك أيّ مبنىً فيها باستثناء الإسطبلات وغرفتي الاستراحة اللتين كانتا في الوسط، كما لم تحتوِ على أيّ أشجار أو شجيرات أو أزهار، فقد ملأ القمح والأعشاب هذه السهوب على مدّ النظر. في بعض الأحيان كنا نرى بين سنابل القمح أهداب الخردل البري الأصفر، الزهرة الوحيدة التي ظهرت في تلك السهوب، لكنّها كانت غير مرغوب بها، لذلك كنا نقتلعها من الجذر ونأخذها إلى المنزل ونجفّفها ثم نحرقها.

لم يكن هناك أيّ طيور تحلّق في سماء السهوب أيضًا، ولا أيّ علامة أخرى على الحياة سوى تموّج سنابل القمح وسط الريح؛ والصوت الوحيد الذي كنا نسمعه هو غناء مئات آلاف الجنادب دون كلل أو ملل.

كنا نتعطّش للظلّ على الدوام، فكلّما جاءت عربة الطعام منتصف النهار، استلقينا على بطوننا بجانبها حتى نتمكّن من تناول غدائنا تحت ظلّها، إذ كانت الشمس تسفعنا بلا رحمة. لم نرتدِ إلّا القبعات والقمصان والسراويل والأحذية، لا أكثر ولا أقلّ من ذلك، وإلا احترقنا. على سبيل المثال، إذا كان هناك ثقبٌ في قميص أحدٍ منا أثناء العمل، دخلت أشعة الشمس من خلاله وتركت بقعة بنية على الجلد.

خلال أيّام الحصاد، عملنا 16 ساعة في اليوم الواحد؛ يومًا بعد يوم، وقفنا خلف بعضنا بعض في الحقل وحصدنا القمح بعشرة آلات في الوقت ذاته. كلّما انتهينا من مربّع وجعلناه مسطّحًا، انتقلنا إلى المربع التالي. هكذا جرت العملية، مرارًا وتكرارًا، وكان هناك عشرة عمال يسيرون خلفنا لكي يكدّسوا القمح. كان رئيس العمال يجلس في عربته دائمًا، واضعًا مسدّسًا في جيبه، لكي يراقبنا. كان يرهق حصانيه تحت أشعة الشمس كلّ يوم. إذا طرأ خطبٌ ما، إذا تعطلت إحدى الآلات، على سبيل المثال، شرع رئيس العمال بإصلاحها على الفور أو أمرنا بإعادتها إلى المبنى الرئيسي. لكنّه غالبا ما كان بعيدًا عنا، لذلك عندما كنا نواجه أيّ مشكلة، توجّب عليه أن يقود عربته عبر حقول القمح الكثيفة، ليتصبّب حصانيه عرقًا على طول الطريق.

مرّ سبتمبر وأكتوبر ببطء شديد، واستمرّت حرارة النهار بإجهادنا، إلّا أنّ الليالي كانت قد أصبحت في غاية البرودة، وتصلّبت أجسادنا بسبب الصقيع في كثير من الأحيان. لم نحظَ بنوم جيّد خلال هذه الفترة، إذ كانوا يوقظوننا في الثالثة صباحا أحيانًا، في الظلام الحالك، فنطعم الخيول، ونتناول طعامنا، ومن ثمّ ننطلق إلى مكان عملنا. كنا نصل عند سطوع ضوء النهار، فنرى المهمة بانتظارنا ونضرم النار في كومة من القش لتسخين الزيت الذي كنا نستخدمه في تشحيم الآلات، مستمدّين بعض الدفء من اللهب المتّقد، إلّا أنّ النار لا تدوم سوى بضع دقائق، ويتوجّب علينا تشغيل الآلات وحصد القمح مجدّدًا.

كنا نعمل حتّى في أيام السبت، يوم العطلة، ولم تختلف أيّام الأحد عن أيّام الإثنين بالنسبة لنا. لكن عند هطول المطر، نتوقف عن العمل ونستلقي في غرف الاستراحة. أحيانًا كنا نلعب القمار او نتبادل الأحاديث أو ننام.

كان بيننا رجلٌ أيرلنديٌّ أصابني بالحيرة الشديدة، ولم يعرف أحدٌ منّا شيئًا عن ماضيه. عند نزول المطر، كان دائمًا يستلقي على سريره ويقرأ الروايات التي كانت معه. كان رجلًا وسيمًا يبلغ من العمر 36 عامًا. يتحدّث الإنكليزية بلكنة جميلة، والألمانية أيضًا.

وصل هذا الرجل إلى المزرعة مرتديًا قميصًا حريريًا؛ في الواقع، دائمًا ما ارتدى القمصان الحريريّة خلال العمل، وكلّما اهترأ واحدٌ منها، جلب قميصًا جديدًا. لم يكن عاملا نشيطًا، حيث افتقر إلى

المهارة اللازمة، ولم يحسن استخدام يديه على أكمل وجه. لكنّه كان رجلًا استثنائيًّا.

كان اسمه "إيڤانز" Evans.

أمّا الرجلان النرويجيّان، فكانا شخصين عاديّين للغاية. أحدهما كان من "هادَلاند" Hadeland، وقد عاد أدراجه إلى النرويج لأنّه لم يستطع تحمّل مشاقّ العمل، بينما صمد الآخر، حيث كان رجلًا قرويًّا من "ڤالدريس" Valdres.

خلال دَرْسِ القمح، حاول الجميع الابتعاد قدر الإمكان عن المحرّك البخاري للدرّاسَة، حيث انبعث الغبار والرمل والقشر من كل زاويةٍ وشفرةٍ من تلك الآلة على شكل سحابة كبيرة. وقفتُ لفترة طويلة وسط هذه العاصفة، فطلبت من رئيس العمال أن يوكِلني بمهمة أخرى، وحصلت على ما أريد، حيث أمرني بنقل حزم القمح إلى العربات، وكنت حينها في موقع ممتاز بعيدًا عن الدرّاسة. في بداية تواجدنا في المزرعة، أسديت معروفًا لرئيس العمال لم ينسَه قط. وهذا ما حدث بالضبط:

كانت السترة التي ارتديتها سترة رسمية ذات أزرار لماعة تعود لتلك السنوات عندما عملت كمحصّلٍ للتذاكر على متن الترام في شيكاغو، وقد وقع رئيس العمال في حب هذه السترة وأزرارها الجميلة. كان كالطفل في تعلّقه بالأشياء الفاخرة، وهناك في تلك الصحراء لم تكن أشياء كهذه السترة في المتناول. أخبرته ذات يوم أنه يمكنه الحصول عليها، فعرض عليّ دفع ثمنها، وقال لي: "كم تريد مقابلها؟" عندما أخبرته أنّني لا أريد أيّ شيء، قال لي إنّه قد أصبح

مدينًا لي بهذا المعروف. بعد انتهاء الحصاد أعطاني سترة أخرى جيدة جدًّا، إذ انتبه إلى أنّني لم أكن أملك أيّ سترة مناسبة للسفر.

أتذكر حادثة حصلت عندما أُوكلت إليّ مهمّة تجميع القمح على شكل حزم لكي نضعها في الدرّاسة.

كان السويدي على متن العربة يكدّس تلك الحزم بعضَها فوق بعضٍ، مرتديًا حذاءً طويل العنق وقد دسَّ أسفل سرواله فيه. راح يعمل بسرعة هائلة، مما أجبرني على أن أجتهد كثيرًا لكي أجاري سرعته وأزوّده بالحزم بلا أيّ تأخير. حافظ على وتيرته السريعة المرهِقة، إلى أن شعرت بالغضب منه، وبدأت أعمل بالسرعة القصوى أيضًا.

تألّفت كل كومةٍ من القمح من ثماني حزم، وفي الأحوال العادية، كنا نضيف حزمة واحدة إلى الكومة كلّ مرة. لكنّي صرت حينها أضع أربع حزم في آنٍ واحدٍ معًا، مغرقًا السويديّ في العمل. ثم بينما كنت أزوّده بحملٍ آخر من تلك الأحمال الكبيرة، خرج من أحد الحزم ثعبان وانسلَ إلى حذائه؛ فجأةً راح يصرخ من شدّة الرعب، ثم ارتمى أرضًا بينما تدلّى الثعبان المرقّط من فردة حذائه، لكنّه لم يلدغه، وعندما اصطدم الرجل بالأرض، خرجٍ الثعبان من الحذاء واختفى بسرعة البرق في ثنايا الحقل. أمسك كلٌ منّا بمذراةٍ وحاولنا لحاقه لكننا لم نتمكن من العثور عليه. في تلك الأثناء، كان بَغْلا العربة يرتجفان من الخوف.

تردّدت في أذنيّ صرخات السويدي وهو يطير في الهواء بعد أن ألقى بنفسه من تلك العربة.

اتّفقنا بعد ذلك على أن نعمل بوتيرة معقولة، وصرت أزوّده بحزمة واحدة فقط في كل مرة. وتابعنا الحرث والحصد، فجززنا وجمعنا التبن وجزّزنا القمح ودَرَسْناه.

بعد أن انتهت مهمّتنا في المزرعة، كان الوقت قد حان لكي نحصل على أجرنا. بجيوب مليئة بالمال وأذهان خالية من الهموم، سرنا نحن العشرين رجلًا إلى أقرب مدينة لكي نعود إلى شرق البلاد على متن القطار، ورافقنا رئيس العمال أيضًا ليتناول المشروب للمرّة الأخيرة معنا، وكان يرتدي السترة ذات الأزرار اللمّاعة.

إنّ الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن تواجدوا بصحبة عمال السهوب الكبيرة وهم يقيمون حفلةً وداعيّةً لن يتمكّنوا من استيعاب كمّية المشروبات التي يتم استهلاكها في مثل هذه المناسبات: لقد قام كلّ واحدٍ منّا بشراء المشروب للمجموعة بأكملها، أي 20 كأسًا لكلّ رجلٍ منّا. لكنّ الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، إذ أنّ بعضنا شرب 5 كُؤوس في الوقت ذاته. وكان الله في عون حارس الحانة، فقد احتجّ قائلًا إنّ ما كنا نفعله أمرٌ غير معقول، فهددّناه بأن نطرده من حانته إذا استمرّ في الاحتجاج، مؤكّدين له أنّنا مجموعة من العمال المهاجرين الذين باستطاعتهم جزّ كلّ ما يعترض طريقهم. بعد أن شربنا الكأس الخامسة، أصبحنا أسياد المدينة، ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا خضعتْ لحكمنا بشكل مطلق، حتّى أنّ الشرطة المحلّية وقف عاجزةً أمامنا، وانضم بعض أفرادها إلينا وشربوا معنا. خلال اليومين التاليين، لم نفعل أيّ شيء سوى شرب الكحول ولعب القمار والشجار والصراخ.

كنا نتعامل مع بعضنا بعضًا بخالص اللطف والمودّة. غالبًا ما كانت هذه المشاعر المتبادلة غائبةً عنّا خلال الصيف الطويل، لكنّنا نسينا كل الضغائن القديمة خلال لحظات الوداع. وكلّما شربنا أكثر ازدادت المودّة فيما بيننا؛ شربنا حتّى أوشكنا على الإغماء، ثمّ عانق كلّ منا الآخر بدافع طيبة القلب والمحبّة. خلال هذه الساعات، أسرّ لي طبّاخنا بصوته الحاد -وهو رجل أحدب صغير غير ملتح- حين كان يحاول التخلّص من الحازوقة أنّه نرويجيّ الأصل أيضًا وأنّه امتنع عن ذكر ذلك سابقًا بسبب احتقار الأمريكيّين للنرويجيين. في كثير من الأحيان، سمعني أتحدّث عنه مع ذلك الرجل الذي جاء من "ڤالدريس"، لا سيما خلال وجبات الطعام، وكان يفهم كل كلمة. لكنّ هذا الوقت هو وقت التسامح والنسيان، وقد كنّا رجالًا رائعين حقًّا. "نعم، لقد جاء والداي إلى هنا من النرويج الجميلة، وأنا مولودٌ في ولاية "آيوا" Iowa في 22 يوليو، عام 1845". لذلك كان لا بدّ أن نبقى أصدقاء مقرّبين طالما أنّ اللغة النرويجية تتدفق من شفاهنا. ثمّ عانقني الطباخ قليلًا، وشعرتُ أنّ صداقتنا لن تموت أبدًا. عانق جميع العمال بعضهم بعضًا بقوةّ شديدة، بأذرعٍ متينة، ورقصنا في الحانة طوال الليل.

"ماذا تريد أن تشرب الآن؟ لك أن تشتهي ما شئت!" هكذا عاملنا بعضنا بعضًا. ثم وقفنا وراء المشرب بأنفسنا بحثًا عن أفخر المشروبات، واخترنا أغرب الزجاجات التي كانت في الرفوف العلوية، زجاجات عليها ملصقات جميلة. كانت موجودةً هناك للزينة فحسب، لكنّنا لم نمانع أن نشتريها لكي يشربَ جميعُ أفرادِ

المجموعة، غيرَ مبالين لحقيقةِ أنّنا حصلنا على أموالِنا بحرث الأرض وشقّ الأنفس.

أنفق "إيڤانز" الكثير من المال في شراءِ المشروب لرجال المجموعة، وكان آخر قميص حريري لديه قد أصبح في حالةٍ يُرثى لها، إذ بهتت ألوانُه الزّاهية بفعل الشمس والمطر واهترأت أكمامه. لكنّه لم يبالِ بذلك ووقف هناك شامخًا وفخورًا، وأمر الساقي بنبرةٍ حازمة بأن يملأ كؤوسنا بالمشروبات. تصرّف وكأنّ الحانة والعالم بأسره كان ملكه. كنا ندفع ثلاثة دولارات تقريبًا مقابل كلّ عشرين كأسًا، لكن عندما كان يحين دور "إيڤانز"، كلّفه الأمر ستة دولارات كلّ مرّة؛ فعلى حدِّ قوله، كان الرجال بصحبته يستحقّون شرب أفخم أنواع المشروبات في تلك الحانة التعيسة. عندها اضطررنا إلى إنزال تلك الزجاجات الغريبة من الرفوف العلوية لكي نحصل على أفضل ما كان عندهم...

حاول "إيڤانز" الودود جدًّا إقناعي بالذهاب معه إلى غابات "ويسكونسن" Wisconsin خلال فصل الشتاء لكي نقطع الأشجار ونكدّس الحطب، مؤكّدًا لي أنّه بمجرد أن يحصل على قمصان حريرية وسراويل جديدة وبعض الروايات التي لم يقرأها من قبل، سوف يعود إلى الغابات ويبقى هناك حتى الربيع. وبعد حلول الربيع سيتوجه إلى السهوب مرة أخرى. كانت تلك طبيعة حياته، وقد عاش على هذه النحو لمدّة 12 عامًا، بين السهوب والغابات، واعتاد على نمط العيش هذا بحيث أصبح يتّبعه من تلقاء نفسه.

لكن عندما سألته عن السبب الذي دفعه للعيش بهذه الطريقة لم يعطني جوابًا واضحًا. عادةً ما يسرد الرجل السكران قصة طويلة مثيرة للشفقة عن المتاعب التي تعرَض لها في حياته، لكنّ "إيڤانز" اكتفى بكلمة واحدة فقط، قائلًا إنّها "الظروف".

"هل يمكنك أن تخبرني عنها؟"

فأجابني: "قلت لك: إنّها الظروف!" كان واضحًا أنّه لن يتكلّم عنها مهما حصل.

في وقت لاحق من ذلك المساء، رأيته جالسًا في ملحق الحانة حيث كان الرجال يلعبون النرد. خسر "إيڤانز" رهاناته، وكان مخمورًا جدًّا لدرجة أنّه لم يكترث كثيرًا بالمال. عندما دخلت إلى الملحق، أخرج محفظته وقال لي:

"انظر: لم أخسر كلّ أموالي بعد".

قال له بعض الرجال إنّ عليه أن يكفّ عن اللعب، وألمح أحد مواطنيه - وهو أيرلنديٌّ يدعى "أوبراين" O-Brien إلى أنّ عليه أن يشتري تذكرة للسفر بما تبقّى معه من أموال، فشعر "إيڤانز" بالإهانة وقال: "كلّا، ما رأيك أن تقرضني ثمن التذكرة؟" رفض "أوبراين" ذلك، طبعًا، وغادر الغرفة.

غضب "إيڤانز"، وراهن بكلّ أمواله على رمية نردٍ واحدة، وخسر. لكنّه تعامل مع الأمر بهدوء تام، وأشعل سيجارًا، ثمّ ابتسم وقال لي:

"هلّا أقرضتني ثمن التذكرة؟".

كنت أنا أيضًا مخمورًا قليلًا بعد أن شربت من إحدى الزجاجات الفاخرة التي ذكرتها سابقًا، فقمت بحلّ أزرار معطفي وأعطيت محفظتي لـ"إيڤانز" بكامل محتوياتها. فعلت ذلك لكي أظهر له مدى استعدادي لإقراضه المال لكي يتمكّن من السفر، وانتظرت لكي يأخذ حاجته من المال. فنظر إلي، ثم نظر إلى المحفظة. شعرت أنّ بعض الأحاسيس الغريبة قد تملّكته لبرهة وجيزة. فتح المحفظة ولاحظ أنّها تحتوي على كلّ أموالي. أدار رأسه نحوي، فأومأت له برأسي ببساطة.

لكنه أساء فهم إيماءتي، واعتقد أنّني أردت إعطاءه المحفظة بأكملها.

فقال: "شكرًا جزيلًا لك!".

وبدأ يلعب القمار بأموالي، الأمر الذي بثّ الرعب في قلبي.

أردت في البداية أن أردعه عن ذلك، لكنّني تراجعت عن قراري، وقلت في نفسي: سوف أدعه ينفق ثمن التذكرة كما يحلو له، ثمّ بعد أن يخسر عشرات الدولارات، سأطالبه بإعادة المحفظة.

لكنّ "إيڤانز" لم يخسر. كان قد استفاق من آثار الخمر وراح يلعب بشكل حاسم وسريع، وأظهر ثقةً كبيرةً أمام العديد من رفاقه. جلس منتصبًا بصمتٍ على برميل الويسكي، ووضع رهاناته وفاز بها، وكلّما خسر واحدًا منها قام بمضاعفة الرهان في المرة القادمة. خسر ثلاث مرات متتالية وضاعف رهانه في كل مرة، محقّقًا المكاسب في رمية النرد الأخيرة. ثم راهن بخمسة دولارات كاملة وقال إنه إذا كسب هذه المرة فسوف يتوقف عن اللعب.

لكنه خسر واستمر في اللعب.

بعد مرور ساعة، أعاد لي محفظتي كما كانت. لم يخسر أيًّا من أموالي، إذ أنّه كان يحصي بدقّة المبالغ التي راهن بها طوال ذلك الوقت. والآن أصبح بحوزته رزمة ثخينة من الدولارات التي فاز بها.

تابع "إيڤانز" اللعب، ثم فجأةً قرر أن يراهن بكلّ ما لديه، مما جعل جميع من في الغرفة يتهامسون فيما بينهم.

"سواء أخسرت أو فزت، سوف أتوقّف عن اللعب بعد هذا الرهان".

فاز "إيڤانز"، ثم وقف وقال:

"أعطني أرباحي، من فضلك".

فأجابه مشرف اللعبة: "ستحصل عليها غدًا. ليس لدينا ما يكفي من الأموال هذه الليلة. سأجلبها لك غدًا".

"حسنا، غدًا إذن ...".

عندما هممنا بالمغادرة، دخل بعض الرجال إلى الحانة حاملين معهم جثَةً هامدة مشوهة مبتورة الساقين، جثّةُ الآيرلندي "أوبراين"، الرجل ذاته الذي رفض إقراض "إيڤانز" ثمن التذكرة؛ كان يمشي وسط الظلام عندما دهسه قطارٌ يحمل أطنانًا من القمح. وضع الرجال جثّته على الأرض وقاموا بتغطيتها ...

عندما حان وقت النوم، استلقى كلّ واحدٍ في المكان الذي راق له؛ اختار بعضنا النوم على أرضية الحانة، أمّا أنا وذلك الرجل من "ڤالدريس" فقد وجدنا مخزنًا للتبن في بقعة من بقاع المدينة وقضينا الليلة فيه.

في الصباح، جاء إلينا "إيڤانز".

"هل أعطاك مشرف اللعبة الأموال التي ربحتها؟" سأله الرجل من "ڤالدريس".

"ليس بعد"، أجابه "إيڤانز". "لقد عدت للتوّ من الحقل... حفرنا حفرةً من أجل رفيقنا".

دفنّا "أوبراين" على أطراف تلك المدينة، داخل صندوق وجدناه خارج أحد المنازل. نظرًا لأن الجثة كانت قصيرةً جدًّا، كان الصندوق كبيرًا بما يكفي لاحتوائها. لم نغنِّ أيّ أغنية ولم نتلُ أيّ صلوات، لكن حضر جميع الرجال ووقفوا دقيقة صمتٍ احترامًا لـ"أوبراين" وهم يحملون قبّعاتهم في أيديهم.

عندما ذهب "إيڤانز" للحصول على أمواله، اكتشف أنّ مشرف اللعبة الجبان كان قد هرب من المدينة. لكنّ "إيڤانز" تعامل مع الموقف بهدوء، تمامًا كما كان يتعامل مع كلّ شيء آخر في حياته. لم يكترث لما حصل بتاتًا. على أيّ حال، كان لديه ما يكفي المال لكي يشتري تذكرة القطار والقمصان والسراويل والروايات، ولم يكن بحاجةٍ أيّ شيء آخر من أجل أن يستعدّ لفصل الشتاء.

مكثنا في المدينة حتى مساء اليوم التالي. تابعنا ما كنّا نفعله وكأن شيئًا لم يكن، وشربنا كل زجاجة في الحانة، حتّى أن العديد من العمال أفلسوا قبل أن يغادروا المكان، لذلك لم يتمكنوا من دفع ثمن تذكرة القطار، فتسلّلوا على متن عربات الشحن واختبأوا تحت أكوام القمح. لكنّ الطباخ الأحدب الصغير، النرويجي من "آيوا"، لم يكن محظوظًا، رغم أنّه تمكن من إخفاء نفسه تحت القمح

دون أن يراه أحد، لكنّه لم يستطع الحفاظ على الهدوء، بما أنّه كان مخمورًا، وراح يغني الأغاني القذرة بصوته الحاد، لذا تم القبض عليه وطرده. عندما أفرغوا جيوب ذلك الخنزير الصغير، اتضح أنّه كان لديه ما يكفي من المال لشراء التذاكر لجميع العمّال. يا له من وغد لقيط!

كلٌّ منّا كان مسافرًا إلى وجهة معّينة. أخبرني الرجل من "ڤالدريس" أنّه اشترى ناديًا صغيرًا لألعاب الرماية في بلدةٍ ما في "مينيسوتا" Minnesota، أمّا الطباخ فتوجّه غربًا إلى ساحل المحيط الهادئ. وممّا لا شكّ فيه أنّ "إيڤانز" كان يرتدي قمصانه الحريرية ويبعثر أمواله هنا وهناك. عندما حلّ فصل الصيف، عاد إلى السهوب لكي يحصد القمح، وفي الشتاء سافر مجدّدًا إلى غابات ويسكونسن من أجل الحطب. تلك كانت حياته... حياةٌ لا تقلّ شأنًا عن حياةِ أيّ شخص في هذا العالم.

"زاكيوس"

سلامٌ عميقٌ يهيمنُ على السهوب الذهبية: لا يوجد أيّ منزل أو شجرة على امتداد أربعة أميال. لا شيء هناك سوى القمح والعشب الأخضر. في الأفق الفسيح الممتد، يمكن للمرء أن يرى الخيول والرجال وهم يعملون. كانوا بحجم الذباب من تلك المسافة البعيدة، كما جلس الحصّادون في آلات الحصد وراحوا يجزّون العشب على شكل أخاديد. الصوت الوحيد الذي كان طاغيًا على كلّ شيء هو صوت الجنادب. وعندما تهبّ الرياح في بعض الأحيان باتجاه الدرّاسات هناك في الأفق البعيد، تحمل معها الأزيز الحاد الذي تصدره تلك الآلات.

تُعرف هذه المزرعة باسم مزرعة "بيلي بوني" Billy Bonny. كانت تقع في مكان قصيّ جدًّا ليس فيه أيّ مزارع مجاورة، منعزلةً عن العالم الخارجيّ بشكل كامل. أقرب مدينة صغيرة من هذه المزرعة كانت تبعد عنّا عدّة أيام سيرًا على الأقدام. في بحر القمح الذي لا نهاية له، كانت غرف الاستراحة تبدو وكأنّها بضع شواطئ صخرية بسيطة فحسب، وخلال فصل الشتاء تكون المزرعة خاليةً من الناس تمامًا. لكن كلما حلّ فصل الربيع جاء إليها أكثر من 70 عاملًا ومكثوا فيها إلى شهر أكتوبر.

تصل الحرارة هنا إلى 102 فهرنهايت، فترتعد السماء والأرض من هول الحرّ الشديد. لا وجود للرياح الباردة المنعشة في هذا المكان. تبدو الشمس وكأنها مستنقعٌ يتأجّج نارًا.

يعمّ الهدوء في جميع مباني المزرعة أيضًا، لكن بإمكان المرء أن يسمع أصوات خطى الطباخ ومساعديه أثناء قيامهم بعملهم هناك في الكوخ الكبير المسقوف الذي تم تحويله إلى مطبخ وغرفة طعام. هناك يقومون بحرق العشب الجافّ في المواقد الضخمة، فيختلط الدخان الذي تتجشّأه المدخَنة بالشرّر واللهب في الخارج. عندما يصبح الطعام جاهزًا، يقومون بوضعه في قصعات كبيرة مصنوعةً من الزنك، ثمّ ينقلونه إلى العربات التي يقودها ثلاثة رجال، متّجهين نحو سهوب القمح.

الطباخ في هذه المزرعة هو رجلٌ أيرلنديٌّ ضخم، يبلغ من العمر 40 عامًا، شعره رمادي، ويتصرّف كالعسكر. يُمضي معظمَ وقته شبه عارٍ، بقميصٍ مفتوح، وصدرٍ يشبهُ البرميل. الجميعُ هنا ينادونه باسم "بولي" Polly لأنّه يشبه الببغاء.

كان "بولي" في السابق جنديًّا في أحد الحصون في جنوب البلاد. لكنّه رجلٌ يحبّ الأدب، ولديه كتاب مليءٌ بالأغنيات بالإضافة إلى نسخة من صحيفة قديمة. لا يسمح لأيّ شخص آخر بلمس هذه الأشياء، فهي بمثابة الكنوز بالنسبة له. كان يحتفظ بها على رف في المطبخ لكي تكون دائمًا في متناوله خلال ساعات الفراغ.

لكن مواطنه البائس "زاكيوس" Zachaeus - رجلٌ شبه أعمى يرتدي النظارات- أخذ صحيفة "بولي" ذات مرة لكي يطالعها، إذ لا يستطيع "زاكيوس" أن يقرأ الكتب لأنّ الخطّ الصغير فيها يجعل الكلمات ترقص أمام عينيه وسط غمامةٍ من الضباب. لذلك كان يستمتع كثيرًا بقراءة صحيفة "بولي" ويركّز على قراءة الإعلانات لأنّها تُطبع بأحرف كبيرة. لكنّ "بولي" تنبّه إلى فقدان كنزه في الحال، فذهب إلى "زاكيوس"، الذي كان جالسًا في سريره، واسترجع صحيفته. تلا تلك الحادثة جدالٌ عنيف مسلٍّ بين هذين الرجلين.

شتم "بولي" "زاكيوس" قائلًا إنّه "لصٌّ أسود القلب" "وابن عاهرة". خاطبه بأسوأ العبارات واحتقره بشكل واضح. "هل رأيت جنديًّا في حياتك من قبل؟ هل تعرف كيف تُبنى الحصون؟ كلّا، أنت لا تعرف شيئًا. لذلك كن حذرًا واخرس!"... "ما هو مرتّبك الشهري؟ هل لديك أيّ عقارٍ في واشنطن مثلي؟ هل أنجبت بقرتك عجلًا بالأمس؟"

لم يجب "زاكيوس" على أيٍّ من هذه الأسئلة. بدلًا من ذلك، اتّهم "بولي" بتقديم طعام غير ناضج للعمال، وبأنّ "بودنغ" الخبز* الذي كان يصنعه يحتوى على الذباب. "اذهب إلى الجحيم وخذ صحيفتك معك!" الحقيقة كانت أنّ "زاكيوس" رجلٌ صادقٌ، وكان سيعيد الصحيفة إلى مكانها بمجرّد أن ينتهي من قراءتها. "لا تقف هناك وتبصق على أرضية مضجعي، أيها الخنزير القذر!" جحظت

* Bread pudding: حلوى بسيطة تصنع من الخبز والحليب والبيض والزبدة والسكر. (المترجم).

عينا "زاكيوس" العمياوان مثل كرتين فولاذيتين صلبتين في وجهه الهائج. منذ ذلك اليوم، تشكّلت عداوةٌ كبيرة بين هذين الرجلين.

انتشرت عربات الطعام في السهوب؛ كانت كلّ واحدةٍ منها تحمل من الطعام ما يكفي لـ 25 رجلًا، وإذ بالعمال يهرعون نحو العربات من كلّ حدبٍ وصوب، يأخذون وجباتهم ويستلقون تحت العربات والبغال بحثًا عن الظل أثناء تناول الطعام. في غضون عشر دقائق، كان كلّ الطعام قد نفد، فأمر رئيس العمال الرجال بالعودة إلى العمل، وعادت العربات إلى مبنى المزرعة الرئيسي.

بينما همَّ عمّال المطبخ بتنظيف الأكواب والأواني، جلس "بولي" في الظل في الجزء الخلفي من المنزل وراح يقرأ -للمرة الألف- الأغاني وقصص الجنود من الكتاب الثمين الذي أحضره معه من حصن الجنوب. هكذا كان "بولي" يشعر بأنّه جنديٌّ مرة أخرى.

***

في المساء، بعد الغسق، تسير عربات القش السبع ببطء باتجاه المنزل حاملة العمّال على متنها. يقوم معظمهم بغسل أيديهم في الفناء استعدادًا لتناول وجبة العشاء، كما يمشط بعضهم الآخر شعرهم قبل الولوج إلى الداخل. ينحدر هؤلاء العمال من جميع الدول والأعراق، صغارًا وكبارًا، منهم من هاجر من أوروبا ومنهم أمريكيون ولدوا في الولايات المتحدة؛ كلّ واحد منهم لديه ماضٍ ملطّخ، وقد جاءوا إلى المزرعة لأنّ قطار حياتهم قد انحرف عن مساره الصحيح.

كان أكثر العمال ثراءً يحملون مسدسات في جيوبهم الخلفية. عادة ما ينتهي الجميع من تناول الطعام بسرعة، ولا يتبادلون أطراف الحديث خلال الوجبات. الكلّ هنا يحترم رئيس العمال، الذي يأكل معهم، وهو مسؤول عن انضباطهم. بعد العشاء، يذهب الرجال إلى النوم مباشرة.

لكن، في إحدى الأمسيات، بعد أن غابت الشمس تمامًا، أراد "زاكيوس" أن يغسل قميصه، إذ أصبح متيبّسًا من كثرة العرق وتسبّب له بالحكّة أثناء النهار تحت أشعة الشمس الحارقة التي كانت تسفع ظهره.

قبل انتصاف الليل بقليل، عندما كان الجميع نيامًا، صدر من المنزل الكبير صوت محادثات خافت.

ذهب "زاكيوس" إلى المطبخ حيث كانت هناك عدّة أحواض لحفظ مياه الأمطار عند الجدار، وكانت هذه المياه المتجمّعة للطباخ "بولي"، الذي حرص دائمًا على الاحتفاظ بها كلّما هطل المطر، لأن المياه في مزرعة "بيلي بوني" مليئةٌ بالمعادن والشوائب، ولا تصلح لغسل الملابس.

كانت أمسيةً هادئةً وباردة. أخذ "زاكيوس" حوضًا من تلك الأحواض، وخلع قميصه وشرع في غسله. مع أنّه ارتجف في مكانه، كان لا بدّ من غسل القميص. راح يصفّر قليلًا لكي يرفع معنوياته قليلًا.

فجأة فتح "بولي" باب المطبخ حاملًا مصباحًا في يده، ليوجّه شعاعه العريض نحو "زاكيوس".

"آها!" قال "بولي".

ثم وضع المصباح على الدرج، ومشى باتجاه "زاكيوس" مباشرة وقال:

"من أعطاك حوض الماء هذا؟".

"لقد أخذته بنفسي"، أجابه "زاكيوس".

"هذا الماء مائي أنا"، صرخ "بولي" في وجهه. "لقد أخذتَه مني، أيها العبد الكذاب، أيها اللص، يا ابن العاهرة".

لم يردّ "زاكيوس" على أيّ من هذه الإهانات، واكتفى بتكرار اتهاماته حول الذباب في الحلوى التي يصنعها "بولي".

على وقع الخلاف الدائر بين هذين الرجلين، جاء الرجال من المنزل وتجمهروا على شكل مجموعاتٍ وهم يرتجفون، واستمعوا إلى الجدال الحاصل بأكبر قدر من الاهتمام.

صرخ "بولي" مخاطبًا إيّاهم:

"ما رأيكم في هذا الوغد الصغير؟ لقد سرق الماء الخاص بي!"

فقال له "زاكيوس": "خذ ماءك. لم أعد بحاجته"، ثم قلب الحوض رأسًا على عقب.

فوضع الطباخ قبضته اليمنى أسفل ذقنه وقال: "هل ترى هذه؟"

"نعم"، أجاب "زاكيوس".

"ما رأيك أن أبرّحك ضربًا بها؟"

"لن تجرؤ على ذلك".

ثمّ راح الاثنان يتبادلان اللكمات، وعلى أثر صوتها هتف المتفرجون معربين عن سعادتهم وترحيبهم بالعراك.

لكن "زاكيوس" لم يصمد طويلًا؛ كان هذا الأيرلندي النحيف قصير النظر يقاتل كفأرٍ محاصر، ولم يتمكّن من إلحاق أيّ ضرر بالطباخ بسبب قصر ذراعيه. أخيرًا مشى مترنّحًا نحو الفناء وسقط على الأرض.

التفت الطباخ إلى المتفرجين وقال:

"ها هو هذا قد سقط. دعوه يرقد هناك، ليعلم الجميع أنّ جنديًّا هو الذي أرداه أرضًا".

"أعتقد أنه قد مات"، قال أحد الرجال، فهز الطباخ كتفيه غير مكترث، ثم قال بنبرة ساخرة:

"لا أرى مشكلة في ذلك!" شعر وكأنّه رجل قاهرٌ عظيم أمام هؤلاء الناس. رفع رأسه بكبرياء وعنجهية محاولًا أن يعزز من موقفه وقال:

"لا يهمّني أمره، فليرقد هناك وحيدًا. من يخال نفسه؟ "دانييل ويبستر*" Daniel Webster؟ يأتي إلى هنا ويريد أن يعلّمني كيف تُصنع الحلويات! يريد أن يعلّمني أنا! أنا الذي كنت أطبخ للجنرالات! هل يخال نفسه العقيد المسؤول عن هذه المزرعة؟"

أبدى الجميع إعجابهم بخطاب "بولي"، رغمًا عنهم.

فجأةً نهض "زاكيوس" وقال بصوت غاضبٍ متحدٍّ: "هيا أيها الأرنب الجبان!".

---

* محامي وسياسي أمريكي بارز (1782 - 1852). (المترجم).

فهتف العمال بسرور. لكن الطباخ ابتسم بتسامح وأجاب:

"يا لتفاهة هذا الأمر. لا فرق لديّ إذا عاركتك أنت أم عاركتُ هذا المصباح".

ثم أخذ مصباحه بكرامةٍ وعاد إلى غرفته ببطء.

حلّ الظلام على الفناء وعاد الرجال إلى المضاجع. التقط "زاكيوس" قميصه وعصره بعناية ثم ارتداه مجدّدًا ولحق بالآخرين لكي يعثر على سريره ويأخذ قسطًا من الراحة.

***

في اليوم التالي كان "زاكيوس" في السهوب جاثيًا على ركبتيه يدهن آلته بالزيت. كانت الشمس حادّة جدًّا، فغرقت عيناه في العرق خلف النظارات. فجأة أجفلت الخيول وتحرّكت إلى الأمام بضع خطوات. بدا أنّ شيئًا ما قد أخافها؛ ربّما كانت لدغة حشرة أو ما شابه، فصرخ "زاكيوس" وقفز عاليًا في الهواء، ثمّ راح يلوّح بيده اليسرى في الهواء وهو يمشي بسرعة جيئة وذهابًا، مرارًا وتكرارًا.

فتوقّف العامل الذي كان يقود حصّادة القش وسأله: "ما المشكلة؟"

فأجابه "زاكيوس":

"تعال إلى هنا وساعدني".

عندما وصل الرجل، أظهر "زاكيوس" يده الملطخة بالدماء وقال:

"لقد فقدت أحد أصابعي. حدث ذلك للتو. ساعدني في البحث عن الإصبع المقطوع، لا أستطيع رؤيته".

فبحث الرجل عن الإصبع ووجده ملقيًا على العشب؛ كان قد ذبل مثل جثة صغيرة وانتهى الأمر.

نظر "زاكيوس" إلى الإصبع متعرّفًا عليه وقال:

"نعم هذا هو. انتظر. أمسك به قليلًا".

أخرج ذيل قميصه من تحت خصر البنطال ومزّق جزءًا منه، صانعًا خرقتين، واحدةً لكي يلفّ يده بها والأخرى لكي يضع إصبعه فيها، ثم دسّ الإصبع في جيبه. شكر "زاكيوس" الرجل على مساعدته وعود للعمل على آلته.

صمد "زاكيوس" حتى استراحة بعد الظهر تقريبًا. لكن عندما سمع رئيس العمال عن الحادثة، وبّخه توبيخًا شديدًا وأرسله إلى المبنى الرئيسي في المزرعة على الفور.

أول شيء أراد "زاكيوس" فعله كان إخفاء إصبعه المقطوع: لم يكن بحوزته أيّ شرابٍ كحوليّ، لذلك وضع كمّية كافيةً من زيت المحرك في زجاجة ثمّ أغرق إصبعه فيها وأغلقها بإحكام شديد، ليخفي الزجاجة بعد ذلك تحت فرشة القش التي كان ينام عليها.

حصل "زاكيوس" على إجازةٍ لمدة أسبوع، وقاسى خلال هذه العطلة آلامًا مبرّحة. كان عليه ألّا يحرّك يده طوال الليل وطوال النهار. انتشر الالتهاب إلى رأسه، وأصيب بحمّى شديدة. كانت معاناته لا تطاق نهائيًا. لم يسبق له وأن أُجبر على ملازمة الفراش من قبل، ولا حتّى عندما أفقده ذلك الانفجار منذ عدّة سنوات قدرته على الرؤية بوضوح.

تفاقمت مصيبة "زاكيوس" لأنّ "بولي" الطباخ أصبح يحضر الطعام إلى سريره كل يوم، وينتهز الفرصة في مضايقة الرجل المريض. خلال هذا الوقت، وقعت الكثير من الخلافات بين هذين العدوين، وفي أكثر من مناسبة وجد "زاكيوس" نفسه مضطرًا إلى الاستدارة ومواجهة الحائط لأنه لم يكن بمقدوره فعلّ أيّ شيء لمجابهة العملاق. كان يكتفي بصرّ أسنانه في صمت.

تلاشت آلام "زاكيوس" ببطء شديد، وولّت أيّام تلك المعاناة المريرة. بمجرّد أن استعاد شيئًا من حيويته بدأ "زاكيوس" يجلس منتصبًا في سريره، ووسط حرّ النهار كان يترك الباب مفتوحًا أمام السهوب والسماء. غالبًا ما جلس بفم مفتوح وهو يستمع إلى صوت درّاسة القمح من مسافة بعيدة وتحدث بصوت عال إلى الخيول كما لو أنّها واقفةٌ هناك أمامه.

لكنّ "بولي" الشرير الظالم لم يتركه ينعم بالسلام. كان يغلق الباب عمدًا، قائلًا إنّ هناك تيارًا هوائيًا رهيبًا في المضجع وإنّ على "زاكيوس" ألّا يعرّض نفسه لهذه التيارات. أحيانًا كان "زاكيوس" ينزل عن سريره زاحفًا ويتجه نحو الباب بغضبٍ ليرمي يولي بحذاءٍ أو كرسيّ، ممنيًّا نفسه في إصابته بالشلل الدائم.

لكنه لم ينجح في ذلك، لأنّ بصره كان ضعيفًا جدًّا ولم يستطع التصويب بشكل صحيح. في الواقع، لم يتمكّن "زاكيوس" من إصابة "بولي" نهائيًّا.

في اليوم السابع، أعرب "زاكيوس" عن رغبته في تناول وجبته المسائية في المطبخ، لكنّ "بولي" عارض هذه الزيارة إلى مطبخه معارضةً شرسة، لذا كان على "زاكيوس" أن يأكل طعامه في السرير؛ جلس هناك وقد سيطر عليه البؤس والملل. ثم انطلق الطباخ ومساعدوه على متن عربات الطعام وهم يغنون ويصدرون الجلبة بغرض إغاظة "زاكيوس"، الذي أصبح يعرف الآن أنّ المطبخ خالٍ تمامًا.

خرج "زاكيوس" من سريره بعد عناءٍ كبير، ومشى مترنّحًا إلى المطبخ. نظر حوله ووجد الكتاب والصحيفة في مكانهما المعتاد، فأخذ الصحيفة وعاد إلى سريره. مسح نظارته وراح يقرأ الإعلانات ذات الأحرف الكبيرة بسرور كبير.

مرت ساعتان من الوقت بسرعة كبيرة. لكن، أخيرًا، عادت عربات الطعام وسمع "زاكيوس" صوت الطباخ وهو يأمر الآخرين بالبدء في غسل الأكواب والأطباق.

أدرك على الفور أنّ "بولي" سيتنبّه إلى أنّ صحيفته ليست في مكانها. فكّر "زاكيوس" قليلًا، ثمّ وضع الصحيفة تحت فراشه، لكنّه أخرجها بعد لحظات وأخفاها تحت قميصه، رافضًا أن يفترق عنها مرّة أخرى.

انقضت بضع دقائق على هذا الحال.

ثمّ سمع خطوات ثقيلة تقترب من مضجعه. كان راقدًا في مكانه يحدّق في السقف حين دخل "بولي" وقال:

"أين هي صحيفتي؟" كان واقفًا في منتصف المضجع.

"ليست بحوزتي"، أجابه "زاكيوس".

"بلى! إنّها بحوزتك!" زمجر الطباخ واقترب خطوة من السرير، فانتصب "زاكيوس" وقال بغضب:

"لا أعرف أين هي. اذهب إلى الجحيم!"

لكنّ "بولي" أمسك بالرجل المريض ورماه أرضًا ثمّ بدأ يبحث عن صحيفته. قلب فرشة القش الرقيقة رأسًا على عقب وهزّها عدة مرات، لكنه لم يجد ما كان يبحث عنه.

طوال هذا الوقت كان "بولي" يقول: "أعلم أنّها بحوزتك!" حتّى عندما غادر المضجع وأصبح في الفناء، استدار وقال: "لقد سرقتها. سوف تدفع الثمن غاليًا، يا صديقي العزيز!" ضحك "زاكيوس" بصوت عالٍ وقال: "حسنًا، أيها الوغد، لقد أخذتها. نعم. كنت بحاجة إليها". عندما سمع "بولي" ذلك، اكتسب وجهه الذي يشبه الببغاء اللون الأحمر القانئ ونظر إلى "زاكيوس" نظرةً مشؤومة فيها تهديد ووعيد، ثم تمتم: "سوف تدفع الثمن!"

***

في اليوم التالي كان الطقس سيّئًا جدًا. انهمرت الأمطار قارعةً على جدران المباني بالبَرَد. وبحلول الصباح الباكر، كانت أحواض الماء في المطبخ قد امتلأت. كان بعض العمّال يقومون برتْقِ أكياس القمح استعدادًا لفصل الشتاء، أمّا بعضهم الآخر فكانوا يصلحون الآلات والأدوات المعطلة، ويشحذون شفرات درّاسات القمح.

عندما رن "بولي" الجرس معلنًا عن وجبة العشاء، نهض "زاكيوس" من سريره واستعدّ للّحاق بالآخرين إلى غرفة الطعام، لكنّ "بولي" كان واقفًا عند الباب في انتظاره، حاملًا طعامه. فاعترض "زاكيوس" قائلًا إنّه من الآن فصاعدًا سوف يأكل طعامه بصحبة الآخرين. كانت يده بحالٍ أفضل، كما اختفت الحمّى التي أصابته سابقًا. فأجابه الطباخ قائلًا إنه إذا لم يأكل وجبة الطعام هذه فلن يحصل على وجبة أخرى، ثم وضع الطبق المعدنيّ على سرير "زاكيوس" وقال:

"هل تعتقد أنّ هذا الطعام لا يناسبك؟" فاستسلم "زاكيوس" وعاد إلى سريره. من الأفضل أن يتناول وجبة الطعام التي جلبها له "بولي".

"حسنًا، أيّ نوع من الفضلات قد طهوت اليوم؟" زمجر "زاكيوس" وهو يأكل.

"الدجاج"، أجابه الطباخ وهو ينظر إليه بعينين برّاقتين على غير العادة. ثمّ استدار وغادر المضجع.

"دجاج؟" تمتم "زاكيوس" لنفسه وهو يتفحّص الطعام ببصره الضعيف. "يا لك من كذّاب لعين! اذهب إلى الجحيم. هناك بعض اللحم والصلصة. لكنّ هذا ليس دجاجًا". ثم تابع الأكل.

حاول مضغ الطعام مرارًا وتكرّارًا -مع أنّه لا يعرف ماهيته- ولم يتمكّن من طحنه بأسنانه. كان يعضّ على عظمة محاطةٍ بخيوط لحمية رفيعة. أخيرًا، عندما استطاع قضم جانبٍ منها، أخرجها من فمه ونظر إليها عن كثب وتمتم قائلًا: "إنّه يعاملني كالكلب ويرمي

لي العظام". ثمّ مشى إلى الباب لكي يتفحّصها في الضوء. قلّبها ونظر إليها من جميع الزوايا. فجأةً هرع عائدًا إلى سريره وبحث عن الزجاجة التي وضع فيها إصبعه المقطوع سابقًا. وجد الزجاجة، لكن الإصبع لم يكن فيها.

مشى "زاكيوس" بسرعة إلى مضجع العمّال. كان قد شحب لونه وتشوّه وجهه خوفًا. عندما أصبح عند الباب، قال أمام الجميع وهو يحمل شيئًا في يده:

"أنت، يا "بولي"! أليس هذا إصبعي؟"

لكنّ "بولي" لم يجبه، ثمّ ضحك بصوت خافت وهو جالس في مكانه. أخرج "زاكيوس" شيئًا آخر من جيبه وقال:

"أليس هذا الظفر الذي كان على الإصبع، يا "بولي"؟ هل اعتقدت أنّني لن أراه؟".

كان جميع العمّال الجالسين عند الطاولة قد سمعوا أسئلة "زاكيوس" الغريبة، فنظروا إليه في دهشة من أمرهم.

"ما هو خطبك؟" سأله أحدهم.

"لقد وجدت إصبعي... الإصبع المقطوع... في وجبة الطعام"، أوضح له "زاكيوس". "لقد طهاها وقدّمها لي. وها هو الظفر أيضًا".

ما أن سمع العمال هذا حتى انفجروا ضاحكين بأعلى صوت، وتكلّم جميعهم في آن واحد:

"لقد طهى إصبعك وأطعمك إيّاه! يبدو أنّك قد تناولت جزءًا منه أيضًا. انظر. لقد اختفى ذلك الجانب بأكمله".

"بصري ضعيف جدًّا"، أجاب "زاكيوس". "لم أكن أعرف. لم يخطر ببالي انّه قد يفعل شيئًا كهذا...".

سكت فجأةً، ثمّ استدار وخرج من المضجع.

نهض رئيس العمال وأمر الجميع بالهدوء، ثمّ التفت إلى الطباخ وقال:

"هل طبخت هذا الإصبع مع سائر اللحم فعلًا، يا "بولي"؟"

"كلّا"، أجابه "بولي". "كلّا، أقسم بالله الذي في السماء. كيف لك أن تعتقد ذلك؟ لقد طبخته بمفرده مع القليل من الخضار...".

تحوّلت قصّة الإصبع المطبوخ إلى مصدرٍ للتسلية طوال ذلك المساء. تحدّث عنها جميع الرجال وضحكوا مثل المجانين. لقد كانت أعظم انتصارٍ شهده الطباخ طوال حياته. أما بالنسبة لـ"زاكيوس"، فقد غادر المبنى الرئيسي واتجه نحو السهوب، على الرغم من الطقس العاصف. لم يكن هناك مأوىً يلجأ إليه، لكنّه استمر في المشي. وضع يده المصابة في حمّالة وحاول حمايتها من المطر قدر المستطاع. أمّا ما تبقى من جسده فقد تبلّل بأكمله.

مشى "زاكيوس" بلا هوادة، إلى أن رأى الغسق، فتوقّف ونظر إلى ساعته تحت وميض البرق، ثم استدار وعاد أدراجه إلى المبنى الرئيسي. مشى عبر القمح بخطوات بطيئة مدروسة، كما لو أنه كان يحسب سرعته ويعدّ خطواته بدقّة متناهية. وصل إلى المضجع بحلول الثامنة مساءً، حين سيطر الظلام الحالك على المكان.

سمع الناس في غرفة الطعام وهم يتناولون وجبة العشاء، وعندما نظر من خلال النافذة، رأى الطباخ. بدا له أنّه كان في مزاج جيّدٍ جدًّا.

مشى "زاكيوس" بعيدًا باتجاه الإسطبل، ثمّ وقف هناك ليحتمي من المطر. كانت الجنادب صامتة. كلّ شيء صامت، لكنّ المطر انهمر بلا توقّف. حدّق "زاكيوس" في الظلام أمامه، وبين الحين والآخر، كان البرق يشقّ السماء بلونه الكبريتي ويضرب السهوب مثل السوط.

أخيرًا، سمع الرجال يغادرون مائدة العشاء ويتجهون نحو المضجع، وهم يشتمون الطقس ويركضون لكيلا يبتلّوا. انتظر "زاكيوس" بصبر لمدة ساعة أخرى، ثم توجّه نحو المطبخ.

كان الضوء مشتعلًا هناك؛ دخل بهدوءٍ ورأى شخصًا واقفًا بجانب الموقد.

"مساء الخير"، قال "زاكيوس".

فحدّق الطباخ به مذهولًا.

"لقد نفد الطعام لهذا اليوم".

فأجابه "زاكيوس": "لا بأس. أعطني صابونةً، يا "بولي". لم أتمكن من تنظيف قميصي ذلك اليوم. يجب أن أغسله مرة أخرى".

"لن أسمح لك أن تستعمل أحواض الماء الخاصة بي"، قال "بولي".

"بلى. لقد وضعت حوضًا في الخارج، عند الزاوية".

"أحذّرك، يا "زاكيوس". إيّاك أن تفعل ذلك".

"هل ستعطيني الصابون؟"

"لن أعطيك شيئًا! اخرج من هنا!" فخرج "زاكيوس" وذهب إلى الزاوية بجوار نافذة المطبخ، ثم راح يصدر أصواتًا عاليةً في حوض المياه. سمع "بولي" تلك الضجة المقلقة وخرج لكي يرى مصدرها.

في ذلك اليوم، كان "بولي" يشعر بقوةٍ وعظمةٍ لا تقهران، أكثر أي وقت مضى. شمّر عن ساعديه ومشى باتجاه "زاكيوس" مباشرة. ثم قال له بحزم وغضب:

"ماذا تخال نفسك فاعلًا؟"

"لا شيء يذكر. أغسل قميصي فحسب".

"مستخدمًا مائي أنا؟"

"بالطبع".

اقترب الطباخ منه وانحنى فوق الحوض لكي يتأكّد أنّه ملكه فعلًا، ثم وضع يده في الماء بحثًا عن القميص.

في هذه اللحظة، أخرج "زاكيوس" مسدّسًا كان قد خبّأه في حمالة ذراعه، ليوجّهه نحو أذن الطباخ ويطلق النار...

شقّ صوت الرصاصة الليل المبتلّ بالأمطار.

***

في وقت لاحقٍ من تلك الليلة، عندما عاد "زاكيوس" إلى المضجع ليأخذ قسطًا من الراحة، استيقظ اثنان من زملائه العمال وسألوه عمّا كان يفعله، ولماذا استغرق منه وقتًا طويلًا.

أجاب "زاكيوس":

"لا شيء يذكر. بالمناسبة، لقد أطلقت النار على "بولي"".

فارتكز زميلاه كلّ منهما على مرفقيه لكي يتمكّنا من سماعه بشكل أفضل. "أطلقت النار عليه؟"

"نعم".

"يا للعنة! أين أصبته؟"

"في الرأس. أطلقت النار في أذنه، موجّهًا فوّهة المسدّس إلى الأعلى".

"أكاد لا أصدّقك. وأين دفنته؟"

"غرب السهوب. لقد وضعت صحيفته بين يديه".

"حقًّا؟ لا أصدّقك".

ثم خلدا للنوم مرة أخرى. بعد لحظات سأله أحدهما:

"هل مات على الفور؟"

فأجابه "زاكيوس": "نعم، على الفور تقريبًا، فقد اخترقت الرصاصة دماغه".

"نعم، تلك أفضل طريقة لقتل أحدهم"، قال الآخر. "إذا عبرت الرصاصة دماغه، فهو حتمًا في عداد الموتى".

بعد ذلك عمّ الهدوء في المضجع ونام الجميع.

في اليوم التالي كان على رئيس العمال تعيين طباخ جديد، فوقع اختياره على أحد مساعدي "بولي". لذا يمكن القول إنّ مقتل "بولي" صبّ في مصلحته.

استمر العمل في السهوب حتّى فصل الخريف، ونسي الجميع أمر "بولي". لم يعد أحدٌ من العمال يذكر اسمه حتّى. لقد مات ذلك الوغد المسكين ودفن في مكان ما في حقول القمح. هذا كلّ ما في الأمر.

في شهر أكتوبر، غادر العمال مزرعة "بيلي بوني" متّجهين إلى أقرب مدينة لكي يقيموا حفلة وداعية قبل أن يذهب كلّ واحد منهم في طريقه. خلال هذه الحفلات، يصبح الرجال أكثر مودّة تجاه بعضهم بعضًا (على غير العادة). كانوا يتعانقون ويشترون المشروبات من نفقتهم لكي يشرب الجميع.

"إلى أين أنت ذاهب الآن، يا "زاكيوس"؟"

"إلى غرب البلاد" أجابه "زاكيوس". "'إلى "وايومنغ" Wyoming، على ما أعتقد. عندما يحلّ الشتاء، سأقطع الأشجار من أجل الحطب مجدّدًا".

"أراك هناك إذن! مع السلامة! أراك لاحقًا يا "زاكيوس". أتمنى لك رحلة جيدة!".

ثمّ انتشر الرجال في كلّ أرجاء أمريكا العظيمة. وبالفعل، سافر "زاكيوس" إلى "وايومنغ".

هناك، خلف هؤلاء الرجال، كانت السهوب الشاسعة شامخةً مكانها، كبحرٍ سرمديٍّ تنيره أشعة الشمس العمودية الطويلة في شهر أكتوبر.

على الضفاف

تمضي الأشهرُ والفصولُ؛ نستلقي عند الضّفاف ونصطادُ سمك القُدّ. ينتهي الصيفُ، ويحلّ الشتاء وينتهي. كنا دائمًا في المكان ذاته، وسط المحيط، على الحدود بين عالمين، بين أوروبا وأمريكا. في ذلك العام، اتجهنا أربع أو خمس مرات إلى ميناء "ميكلون" Miquelon لكي نبيع ما صدناه ونتزوّد بالمؤن قبل أن نعود إلى البحر مرة أخرى، لكي نستلقي في البقعة ذاتها ونصطاد سمك القد، ثم نتوجه إلى ميناء "ميكلون" مجدّدًا. لم أذهب إلى الشاطئ هناك قط، إذ أنّني لم أجد سببًا مقنعًا يدفعني لزيارته. كما كانت هناك قلة قليلةٌ من الناس في تلك البؤرة الاستيطانية الصغيرة: حفنة من الصيادين وبعض متعهّدي لوازم السفن، لا أكثر ولا أقل من ذلك.

كانت سفينتنا سفينة روسية قديمة تدعى "الكونغو" The Congo؛ في أيّامها الخوالي، كانت زورقًا حربيًّا مزوّدًا بالمدافع، وما تزال المنافذ التي برزت منها تلك المدافع واضحة للعيان. كان طاقمنا مكوّنًا من ثمانية أفراد: هولنديّان وروسيّان وفرنسيٌّ وأنا، واثنان من إفريقيا.

كان لدينا أربعة زوارق صغيرة على متن السفينة. في الساعة الثالثة صباحًا، عند الفجر في الشتاء، كنا نركبها ونجدّف إلى مكاننا المعتاد لنسحب شباك الصيد من المحيط، ثم نعيد نصبها في المساء مرة أخرى، دائمًا في المكان ذاته، على عمق سبعمائة أو ثمانمائة قامَةٍ على الجنوب الغربي من سفينة "الكونغو".

تتوالى الأيّام على هذا النحو، ولا تتغير طبيعة حياتنا؛ لم يكن فيها أيّ شيء مختلف عن هذا الروتين الوجودي. في كثير من الأحيان كنا بالكاد نميّز أيّام الاثنين من أيّام الأحد. الشيء الوحيد الذي ميّزنا عن سائر الصيّادين على ضفاف "نيوفاوندلاند" Newfoundland هو أنّ ربّان سفينتنا قد اصطحب زوجته معه: كانت شابة مثيرة للاشمئزاز بسبب الثآليل على كلتا يديها، وجسمها الصغير الهزيل الأعجف. اعتدنا أن نراها كل صباح تقريبًا عندما غادرنا السفينة، عند استيقاظها من النوم. كانت دائمًا شعثاء ولا تعتني بمظهرها الخارجي، ناهيك عن قلّة حيائها حين تقف منتصبة وتباعد بين ساقيها وترفع تنورتها ثم ... حسنًا، من الأفضل ألّا أخوض في هذا الحديث. لكن على الرغم من أنّها كانت قذرةً جدًّا وأنّها لم تتحدّث إلينا، كنّا معجبين بها. كلّ واحدٍ منّا كان معجبًا بها، كلٌّ بطريقته الخاصة، لدرجةِ أنّنا لم نستطع تصوّر حياتنا دونها.

طبعًا، نحن لم نكن رجالًا بحّارة، بل مجموعة صيّادين فحسب، إذ أنّ البحّار دائم التنقل والسفر، يصل إلى مكان ما وتنتهي رحلته بغضّ النظر عن المدة التي قد تستغرقها؛ أمّا نحن فلم نغادر هذا المكان: كانت جميع مراسينا مدفونةً في الضفاف. استمرّ الحال

على هذا النحو لفترة طويلة لدرجة أنّنا نسينا كيف تبدو الأرض الجافة. لقد تغيّرنا كثيرًا. بسبب هذه الراحة الدائمة، أصابنا اكتئاب غريبٌ وشديد: لم ترَ أعيننا سوى البحر والضباب، ولم تسمع آذاننا صوتًا سوى صوت الرياح وتقلّب الطقس. فقدنا الاهتمام بكلّ شيء ونادرًا ما كلّفنا أنفسنا عناء التفكير بأيّ شيء. ولماذا علينا أن نفكر؟ بسبب تواصلنا الأبدي مع الأسماك، أصبحنا مثلها تمامًا. لقد تحوّلنا إلى مخلوقات بحرية غريبة لحميّة تسلّلت إلى متن هذه السفينة وتحدثت لغة خاصة بها.

لم نقرأ أيّ شيءٍ أيضًا، إذ أنّ الضباب المالح الذي تنفسّناه يوميًا، واحتكاكنا الدائم بالأسماك النيئة، ومكوثنا الذي لا نهاية له على الضفاف، قد جرّدونا من أيّ رغبة في القراءة. لم نستطع تلقّي الرسائل أيضًا لأنّنا كنا في عرض البحر. كانت حياتنا عبارةً عن أكل ونوم وعمل. الشخص الوحيد الذي لم يفقد عقله كليًا والذي ما انفكّ يحاول أن يكون ندًّا للوضع الراهن هو الفرنسي. اعتاد أن يدعوني كلّ شهر كي أقف معه على سطح السفينة ليقول لي بصوته الجاد:

"هل تعتقد أنّ هناك حربًا ما دائرةً الآن في الوطن؟".

أصبحنا غير مبالين بأمرنا لدرجة أنّنا لم نعد نكلف أنفسنا عناء التحدث فيما بيننا. كنا نعرف كيف ستكون الإجابات بغض النظر عن الأسئلة. بالإضافة إلى ذلك، غالبًا ما واجهنا صعوبة كبيرة في فهم بعضنا بعضًا بسبب اختلاف اللغات. مع أنّ الإنكليزية كانت اللغة الرسمية على متن السفينة، لم يرغب الهولنديّان والفرنسيّ في تعلّمها بسبب عنادهم وغبائهم، وحتّى عندما حاول الروسيّان قول بضع

جمل طويلة في الإنكليزية، فشلا في تشكيلها، واضطرا إلى التحدّث بالروسيّة مجدّدًا. لم يتكلّم أحدٌ منا الروسيّة، طبعًا. بشكل عام، كنا مجموعة رجالٍ مغلوبين على أمرهم، معزولين عن العالم الحقيقي.

أحيانا عندما كنا نخرج شبكات الصيد من المحيط، كانت السفن المهاجرة تمرّ بنا: سفنٌ عملاقةٌ ثقيلةٌ داكنةٌ تظهر فجأة وسط الضباب ثم تختفي مرة أخرى مطلقةً أبواقها. كلّما رأينا هذه الوحوش الهائلة التي كشفت عن نفسها لنا للحظة ثم اختفت، شعرنا بشيء مشؤوم. وعندما حدث ذلك في الظلام -عندما كانت أضواء السفن تحدّق بنا بعيون مستديرة متوهجة تشبه عيون البقرة- غالبًا ما صرخنا من الخوف والذهول. أحيانًا يكون الطقس هادئًا، فنشعر بتدفق الرياح المنبعثة من تلك الأشباح المهولة، وتهتزّ قواربنا لوقت طويل على أثر ذلك.

في بعض الأحيان، عند زوال الضباب، كان "ڤان تاتزل" van Tatzel -زميلي الصياد الذي رافقني على متن الزورق- يرى السفن الشراعية تطفو في الأفق. لكنّها كانت بعيدةً جدًّا عنا، لذلك لم نتمكّن من رؤية أيّ شخص على متنها. لم نرَ أحدًا في البحر سوى أفراد طاقمنا: طبّاخٌ وثمانية صيادين وربّان مصاب بالتهاب المفاصل... وزوجته.

بين الآونة والأخرى، سيطرت علينا حالات مزاجية غريبة حين كنا نجلس ونصارع شبكات الصيد، فنصبح بالكاد قادرين على سحبها إلى أعلى: بالنسبة لنا، كنا نتصوّر أنّ شبكاتنا عالقةٌ في قبضةِ أيدٍ خفيةٍ في أعماق المحيط، وأنّ هذه الأيدي تحاول أن تقلب

زوارقنا رأسًا على عقب، فننادي على بعضنا بعضًا، غاضبين، بأسنانٍ تصطكّ من الخوف؛ في هذه اللحظات، ننسى من نحن وماذا كنا نفعل، مضطربين ومرتبكين بسبب نضالنا ضد تلك القوى الخفية في قاع المحيط التي كانت ترفض أن تحرّرنا من قبضتها. عندما يهاجم هذا المزاج الغامض الصيادين وهم على الضفاف، فإنّهم "يغنّون من أجل أن يتحسّن الطقس"، حسب قول الناس. إذ كان يُعتقد أنّ الضباب هو المسؤول عن الحالة هذه. في بعض الأحيان، خلال سحبنا للشبكات، كنا نرى أشكالًا غريبة تومئ لنا في الضباب، برؤوسها الشعثاء الكبيرة، تطفو بلا جسد، ثم تختفي مرة أخرى. كما كنا نرى داخل كتل الضباب البيضاء أشكالًا تشبه العفاريت تمشي بطيئة متثاقلة، بأقدام مثل الجبال، تطفو بخطوات عملاقة أينما هبّت الرياحِ، وتطير في الهواء بأطرافها المكسوّة بالريش، تاركةً وراءها خيوطًا شاسعة. ذات مرة، وسط الظلام، رأيت أنا و"ڤان تاتزل" شيئًا جعل أجسادنا تتخشب من أثر الخوف. كنا ننصب شِباكنا عندما رأينا شكلًا ما يتحرّك صعودًا وهبوطًا في السماء. كان رأسه مشتعلًا بأكمله ويتنفس وكأنّه عاصفةٌ هوجاء. كلانا سمع صوته. ثم مرّت بقربنا سفينة بخارية بسرعة كبيرة، فرحنا نصيح بأعلى صوتنا. عندما أطلقت السفينة بوقها، اختفى ذلك الشكل.

مساء كلّ يوم، بعد أن ننتهي من سحب الشباك، اعتدنا أن نستلقي بجانب سفينة "الكونغو" وزوارقنا المحملة بالأسماك. كلّما كان صيدنا ناجحًا يعني أنّنا تخطّينا أصعب جزء من عملنا، ودبّ فينا حماسٌ مميّزٌ وصرنا نتصرّف بغباء. غالبًا ما وجدنا متعة غريبة وغير

طبيعية في العبث بالأسماك، كان الروسيان -على وجه الخصوص- يستمتعان بشكل مقرف بالإساءة إلى الأسماك. أمسكا ذات مرّة برأس السمكة الكبيرة، وأدخلا أصابعهما في عينيها الطرية وحملاها في الهواء على هذا النحو، وهما يضحكان بفظاظة ويحدّقان بها؛ حتّى أنّني رأيت ذات يوم واحدًا منهما يعضّ سمكة نيّئة، غارزًا أسنانه في أحشائها لمدّة دقّيقتين بعينين مغلقتين بإحكام. لقد تركت تلك الأسماك السمينة أثرًا كبيرًا فينا. كنا نفتح بطونها الملساء بإثارة ونقطّعها وهي على قيد الحياة، وتعمّدنا الاستهتار في تمزيق أمعائها بأيدينا ولطّخنا أنفسنا بالدماء أكثر مّما ينبغي. طبعًا، لم يشارك الفرنسي في هذه الجلسات الوحشية قط. لكنّه كان متيّمًا بجنونٍ بزوجة القبطان. لم يستطع إخفاء رغبته هذه، واعترف بذلك علانية. كان يقول كلّ يوم عدة مرات: "أحبها، يا إلهي، كم أنا متيّمٌ بها!" كما كان أحد الأفارقة قد أحبّها بشغف. كنّا نسميه "الطبيب" لأنه كان طالبًا في كليّة الطب في شبابه، لكنّه ترك الجامعة. عندما أقرّ لي بذلك رغبت بضربه حتّى الموت من الغيرة، فأنا أيضًا كنت أحبّها.

كانت تعيش حياتها على متن السفينة بجسدها النحيل الكسول القذر. لم تظهر اهتمامًا بأيّ شيء، ولم تنظر إلينا نهائيًّا. ذات مرة، عندما كنت أعمل في الجزء الخلفي من السفينة -حيث اعتادت الجلوس على كرسي من القماش لكي تحدّق في الأفق- تعثّرت بحبلٍ ملقيّ على الأرض وكدت أسقط. ذهلتُ من ذلك لدرجة أنّني استدرت وبدأت أحدق في ذلك الحبل بنظرة غبية فارغة، بدلًا من أن أتابع المشي. لا بدّ أنّني بدوت سخيفًا جدًّا بالنسبة للناظر من

بعيد. لكن زوجة القبطان لم تضحك. لماذا نظرت إليّ مطوّلًا من دون أن تضحك؟ لم تتفاعل مع الحادثة على الإطلاق، لا بل ظلّ وجهها جامدًا. ثمّ مشت بعيدًا عني! ما زلت أذكر حين قال لي "ڤان تاتزل"، بلغته الإنكليزية السيّئة: "يا إلهي، إنها تمشي بعيدًا!".

ومع ذلك، كنا متيّمين بها. لم نستطع أن نتصوّر حياتنا دونها.

بمجرد أن ننتهي من تنظيف الأسماك ونصب الشباك مرة أخرى، يكون عملنا قد انتهى، فنجلس ولا نفعل شيئًا لمدّة ساعة أو ساعتين ثم نتناول الطعام وندخّن. وأخيرًا نخلد للنوم.

أحيانًا لم نكن نشعر بالإرهاق، فنتحدّث قليلًا مع بعضنا بعضًا، وقد يقصّ أحدنا قصّة من نسج الخيال بلغة فجّة تعيسة مليئة بالشتائم. في يوم من الأيام، روى الفرنسي قصّةً عن رجل "لا يستطيع النظر إلى أيّ امرأة دون أن يصبح هائمًا بها". رواها أكثر من مرّة على مر الأيّام، وكان دائمًا يسردها بنجاح. أحبّها الروسيّان كثيرًا وضحكا في كل مرّة قصّها على مسامعنا. كانت المتعة التي وجداها في تلك الحكاية الفظة متعة صادقة بريئة تشبه براءة الأطفال. دائمًا ما ظهرت على وجه كلّ واحد منهما شتّى المشاعر حين كان يرويها. "حسنًا، وثمّ ماذا؟"... "ماذا حدث بعد ذلك؟" هذه هي الأسئلة التي طرحاها على الفرنسي وهما جالسان كلٌّ على سريره، يحرّكان جذعهما العلوي إلى الأمام والخلف من أثر الحماس، مع أنّهما كانا يعرفان "ماذا حدث بعد ذلك". الجميع أصبح يعرف.

من ناحية أخرى، فشل "ڤان تاتزل" في رواية قصته الخاصة به، على عكس الفرنسيّ، لذلك لم نستمع إليه في كثير من الأحيان. كان من الصعب جدًّا علينا أن نفهم كلامه، إذ لم يتحدّث اللغة الإنكليزية كما يجب، لا بل إنّ إنكليزيّته كانت مشوّهةً تمامًا. كلّما حاول أن يقول شيئًا ما كان يتوقّف فجأةً عن الكلام لعدم قدرته على تشكيل الجملة، فينظر إلينا بوجهه المتجعد، عاجزًا عن إخراج نفسه من المأزق. كان الأمر مثيرًا للشفقة.

كان "ڤان تاتزل" أكبر سنًّا من الهولنديّ الآخر: كان رجلًا عجوزًا أصمَّ إلى حدٍّ ما، لكنّه دمث الخلق ويحبّ مساعدة الناس. دائمًا ما وضع سدادات كبيرة من الصوف القطني في أذنيه -في الصيف والشتاء على حد سواء- وقد أصبحت صفراء وقذرة مع مرور الوقت. كان رجلًا ضخمًا بشكل استثنائي، لكنّ البحر جعل منه طفلًا لا يستطيع استيعاب أبسط الأمور. مستلقيًا على سريره وهو يدخن تبغًا قوي الرائحة ويبصق أينما شاء، كان يبدأ حكايته دائمًا على النحو التالي:

"ذات مرة، ذات أمسية في أمستردام، كنت قد انضممت إلى الطاقم لتوّي خلال آخر ليلة لي على الشاطئ. لا أتذكّر كم كانت الساعة، لكنّ الوقت كان متأخّرًا جدًّا. غادرت الحانة وتوجّهت إلى السفينة. أردت أن أشمّر عن ساقي أوّلًا، لكنّني كنت مخمورًا جدًّا، فسقطت أرضًا أثناء ذلك. ثم نهضت ومشيت مترنّحًا إلى أن وصلت إلى شارع "ليوبولد" Leopold. ثمّ... ثمّ حدث شيء ما. صحيحٌ أنّي كنت سكرانًا إلّا أنّني استطعت رؤيتها. كان هناك امرأةٌ تقف

خلفي مباشرة، في منتصف الشارع. قد لا تصدّقون ما أقوله، ولا بأس في ذلك، لكن هذا ما حدث".

ثم ينتصب الأحمق العجوز على سريره وينظر إلينا. "كانت سيدة حقيقية!" ثم يصمت. لا تسعفه الإنكليزية لإكمال القصة، فيصبح كمن تقطعت به السبل.

"هل أنت صادق حقًّا؟ هل تبعتك امرأة في شوارع أمستردام؟" يسأله "الطبيب" ممازحًا وهو مستلقٍ في سريره. "نعم، نعم، امرأةٌ حقيقية!" يقول مسرورًا بصوت ضاحك، ثم يقسم مرتين لكي يثبت صحة كلامه، بينما ضحك الجميع ساخرين منه. يحاول متابعة حكايته، ثم يتوقّف مرة أخرى. يدرك "ڤان تاتزل" أخيرًا أنّه لن يستطيع المتابعة. يصارع دماغه المسنّ ويكافح للعثور على الكلمات اللازمة، لكنّه يبقى عاجزًا عن نطق كلمةٍ إنكليزية واحدة. كان من المهم جدًّا بالنسبة له أن يخبرنا بهذه النقطة على وجه الخصوص. تغمره ذكرى تلك المرأة، فيتيه فكره بسبب عدم قدرته على التعبير عن نفسه. فجأةً يتابع السرد باللغة الهولنديّة، بكلمات غريبة لا يفهمها أحد منّا باستثناء مواطنه، الذي كان نائمًا وهو يشخر في السرير المجاور.

تلك كانت قصة "ڤان تاتزل"، القصة الوحيدة التي عرفها، والتي انتهت دائمًا عند هذا الحد. سمعناها مرات عديدة. دائمًا ما بدأها بالطريقة ذاتها: "ذات أمسية في أمستردام". بدت حكاية معقولة، ولم يشكّ أيّ منّا في صحتها.

استلقينا وفكرنا في هذه القصة، تحت ضوء المصباح المتمايل داخل قفصه النحاسي، على وقع زئير البحر في الخارج وصوت الحذاء الخشبي للمراقب الليلي أثناء مشيه على سطح السفينة فوقنا. ثمّ حلّ الليل.

بين الحين والآخر، كنت أستيقظ في منتصف الليل تقريبًا وأنا أعاني من ضيق في التنفس بسبب الدخان المتصاعد من كتل اللحم البشرية المحيطة بي التي كانت تتقلّب من اليمين إلى اليسار وسط أحلام جامحة وتركل بطانياتها بعيدًا عنها. رأيت تلك الأشكال المنتفخة بزيّها الرمادي بفضل نور المصباح: كان الروسيان بشواربهما الناعمة وأقدامهما العارية السمينة مثل الزعانف يشبهان الفقمة. صدرت أصوات التنهد من كل سرير وكان كل واحدٍ منهما يتمتم بعض الكلمات خلال نومه. استلقى الإفريقيّان بفاهين مفتوحين يُظهران أسنانهما البيضاء. كانا يتحدّثان في نومهما، يقولان اسم شخصٍ ما، وينفثان الهواء من خدودهما السوداء. سمعت الهولنديّ الأصغَر سنًّا ينطق الاسم نفسه وهو يقرقر ضحكًا ويشخر ويتأوّه تأوّهاتٍ قصيرة. الاسم الذي همس الجميع به في النوم كان اسم زوجة الربان: يا لهم من مجموعة وحوش مجبولةٍ بالعواطف. لم يستطيعوا نسيانها حتى أثناء النوم: تحدّث كل واحدٍ منهم عنها بلغته الخاصة، بعيون مغلقة، كلماتهم بذيئة، ابتساماتهم شتّى، وألسنتهم تلهو خارج أفواههم. الشخص الوحيد الذي نام بهدوءٍ وعمقٍ، مثل حيوان أبله، كان "ڤان تاتزل".

هواء المضجع الثقيل، ودخان التبغ، ورائحة العرق البشري والأسماك المكدسة في عنبر الشحن، اجتمعت كلّ هذه الروائح على شكل ضباب كثيف منوّم أجبرني على إغلاق عينيّ بمجرّد أن أفتحها. عدت إلى النوم، ورًأيتُ كابوسًا حول زهرة ضخمة قد أحاطت بي وامتصّتني إلى داخل أوراقها المبللة، وخنقتني، ببطء، بثبات، إلى أن ساد الصمت حولي واختفى العالم بأسره.

ثم جاء الحارس وأيقظنا من نومنا.

ليلةُ عيد الميلاد على التل

تساقطت الكثير من الثلوج في عيد الميلاد ذلك وغطّت المنزل الصغير على التل بأكمله ما عدا السقف والدّعامتين الخشبيّتين في الأعلى. في الحقيقة، كان ذلك المنزل بحجم الكوخ، وكان في فنائه الأمامي بقرة وخروف وعجل. عاشت الأسرة المالكة له بمفردها هناك، في الصيف والشتاء.

اسم الزوج "تور" Tor وزوجته اسمها "كيرستي" Kirsti. كان لديهما خمسة أطفال: أربعة صبية ("تيميان" Timian و"كالديا" Kaldea و"ديدريك" Didrik و"رينالدوس" Rinaldus) وفتاة ("توميلينا" Tomelena). كان "كالديا" يعمل كخادم في القرية، أمّا "تيميان" فقد كافح معظم حياته لكي يستطيع السفر إلى أمريكا. الأطفال الثلاثة الذين ما زالوا يعيشون في المنزل هم "رينالدوس" و "ديدريك" و"توميلينا" (الذي كان الجميع يلقّبها بـ"لينا"، عوضًا عن اسمها الكامل).

كما ذكرتُ سابقًا، تساقطت الثلوج بكمّيات كبيرة في عيد الميلاد الذي أتحدّث عنه، فاضطر "تور" إلى جرفه بعيدًا بالرفش طوال اليوم، فأصيب بالإرهاق الشديد. بمجرد أن قرأ الصلوات المخصصة لعشية عيد الميلاد في كتاب الصلاة، استلقى على سريره

وراح يدخّن الغليون، بينما قامت زوجته بطبخ العشاء وإضرام النار في الموقد. كانت دائمة الانشغال وتحرّكت باستمرار في الغرفة.

"هل أطعمتِ الحيوانات؟" سألها "تور".

"نعم، بالطبع"، أجابت زوجته.

استمر "تور" في التدخين لفترة وجيزة ثم قال وهو يبتسم من خلال لحيته الكثيفة:

"يا امرأة، ما الذي تفعلينه هناك في المطبخ؟ تطبخين وتقلين طوال الوقت؟ من أين لك بكلّ هذا الطعام؟ لا أعرف حقيقةً".

"أوه، أنا أغنى مما تعتقد"، أجابت "كيرستي"، وهي تضحك على نكتته.

تناولت العائلة شرابًا غير كحوليّ مع وجبة العشاء؛ كان ذلك تقليدًا عائليًا، ودائمًا ما أوكلت مهمة ملء الكؤوس إلى "رينالدوس". كانت لحظة مهيبة بالنسبة له، إذ حدّقت كلّ العيون به عندما حمل في يديه الصغيرتين ذلك الإبريق المزيّن بالورود الكبيرة الملوّنة.

فقال والده: "يجب أن تمسك الزجاجة بيدك اليسرى عندما تقدّم الشراب لمن هم أكبر منك. لقد أصبحتَ كبيرًا بما يكفي ولا بدّ أن تتعلّم الطريقة الصحيحة".

فأمسك "رينالدوس" الزجاجة بيده اليسرى، وراح يسكب بعناية شديدة، مبرزًا لسانه ومميلًا رأسه إلى اليمين. كان منظرًا مؤلمًا في الحقيقة.

الطعام الذي حضّرته الزوجة لم يكن طعامًا اعتياديًا: فقد أعدّت الفطائر المحلّاة والدبس والزبدة، وسلقت بيضةً لكلّ فرد من أفراد العائلة. يمكن لأي أحدٍ أن يعرف أنّ هذا كان طعامًا خاصًّا بعيد الميلاد.

قرأ "تور" بصوت عال صلوات الشكر من كتابٍ لـ"مارتن لوثر"* Martin Luther.

بعد انتهاء وجبة العشاء، أخطأ "ديدريك" الصغير عندما أراد مغادرة مائدة الطعام، حيث صافح والده ووالدته وشكرهما على إطعامه. انتظر "تور" إلى أن انتهى ابنه من شكرهما، ثم قال له:

"لم يكن واجبًا عليك أن تشكرنا على الطعام هذا المساء، يا "ديدريك". لا حرج في ذلك طبعًا، لكن ليلة رأس السنة الجديدة هي المناسبة الوحيدة التي يفترض أن تشكرنا فيها على الطعام".

شعر "ديدريك" بإحراج كبير لدرجة أنّه انكمش على نفسه وكاد يبكي عندما بدأ شقيقه وأخته بالضحك سخريةً منه.

تمدّد "تور" مرة أخرى على سريره واضعًا غليونه في فمه، بينما قامت زوجته بغسل الأطباق.

"يا لهذا الكم الهائل من الثلوج. أمر لا يعقل"، قالت "كيرستي".

---

* عالم لاهوت ومؤلف ألماني (1483 - 1546)؛ مؤسس حركة الإصلاح البروتستانتي. (المترجم).

"ولا تنسَ أنّ الأمر لم ينتهِ بعد"، أجابها "تور". "هناك حلقة حول القمر*، كما أنّ طيور العقعق تحلّق على ارتفاع منخفض**".

"إذن من الواضح أنّنا لن نذهب إلى الكنيسة غدًا، أليس كذلك؟".

"أصبت، رحمكِ الله. لا بدّ أنّك خمنّتِ حال الطقس غدًا قبل أن تقرئي التقويم".

"ما هي التوقّعات إذن؟".

"ليست أفضل بكثير من ولادة عجل بلا أرجل. حقيقةً، لا أجرؤ على إخبارك بكامل التفاصيل".

"أوه! حقًّا؟ هل سيكون الطقس سيّئًا إلى هذه الدرجة؟" قالت "كيرستي".

"أحضر لي نظارتي، يا "رينالدوس"" تابع "تور". "ولا تسقطها على الأرض". مرّة أخرى، قرأ التوقّعات الخطيرة بتمعّن، ثم قال لزوجته "ألقي نظرة بنفسك".

"يا إلهي. أدعو الله أن ينقذنا جميعاً!" قالت "كيرستي" وقد وضعت يديها معًا. "هذا يعني سوء الأحوال الجوية، أليس كذلك؟".

"بكلّ تأكيد، نعم. سيكون الطقس كارثيًا! لكنّ هذا لا يقارن بالتوقّعات المشؤومة لـ 5 فبراير... كأنّ المسيح الدجال نفسه، بقرنيه الكبيرين، سيظهر ذلك اليوم".

---

* تظهر الهالة القمرية lunar halo عندما تكون الحرارة منخفضة جدًا في الطبقات العليا، وتكون أحيانًا دليلًا على حدوث تقلبات جوية وهطول المطر. (المترجم).

** عندما تنخفض درجات الحرارة بشدة في الطبقات العليا تحلق بعض الطيور على ارتفاع منخفض ابتعادًا عن البرد والعواصف القادمة. (المترجم).

"يا الله! أرجوك احفظنا وارعَنا جميعًا! وكن مع "تيميان" في أمريكا أيضًا!".

ساد الهدوء في تلك الغرفة الصغيرة لبعض الوقت. ثم بدأت الرياح تهب في الخارج وتجرف الثلج معها. كان الأولاد يثرثرون مع بعضهم بعضًا ويسلّون أنفسهم بشتّى الطرق، بينما تنقّلت القطة بينهم، مستمتعة بتمسيدهم لها.

"أتساءل حقًّا، ماذا يأكل الملك عشية عيد الميلاد؟" قال "ديدريك".

"أراهن أنّه يأكل قطعًا من الزبدة النقية وقوالب الحلوى"، أجابت "لينا" الصغيرة، التي كانت تبلغ من العمر ثماني سنوات فقط. تلك كانت أفضل الأطعمة في نظرها.

"ياه! قالب حلوى، وعليه زبدةٌ أيضًا!" قال "ديدريك". "وأعتقد أنّ الملك يشرب زجاجة كاملة من الشراب بمفرده".

لكن "رينالدوس" الذي كان الأكبرَ سنًّا وقد قرأ الكثير عن هذا الموضوع في الموسوعة أخذ يضحك عندما سمع ما قاله "ديدريك" ثم قال:

"زجاجة واحدة فقط؟ ها! إنّ الملك يشرب ما لا يقل عن عشرين زجاجة من الشراب".

"عشرون؟".

"عشرون على الأقل".

"كفاك عبثًا، يا "رينالدوس"! من المحال أن يستطيع الملك شرب أكثر من زجاجتين"، قالت والدته التي كانت واقفةً في المطبخ.

ثم انضمّ "تور" إلى المحادثة: "عمّاذا تثرثرون، يا جماعة؟ هل تعتقدون أنّ الملك يتناول مشروبات رديئة مثلنا؟ كلّا. إنّ الملك يشرب شيئًا يسمى "شامبانيا"، بسعر خمسة أو ستة كرونات للزجاجة الواحدة، وفقًا للسعر في إنكلترا، طبعًا. يشرب الملك هذا المشروب في الصباح الباكر وقبل النوم: "شامبانيا" ولا شيء غير الـ"شامبانيا". وكلّما يفرغ كأسه يلقيه على الحائط محطّمًا إيّاه بالكامل ثم يقول للأميرة: ضعيها في القمامة!".

"ولكن لماذا يحطم كلّ هذه الكؤوس، بحق الله!" تسأل "كيرستي".

"يا له من سؤال سخيف! هل تعتقدين أنّ رجلًا كهذا يطيق الشرب من الكأس ذاتها يومًا بعد يوم؟".

ساد الصمت قليلًا.

"دائمًا ما أفكر في كلّ الأشياء التي تعرفها، يا "تور""، تقول زوجته بهدوء، "وأتساءل كيف استطعت الحصول على كلّ هذه المعلومات".

"هذا صحيح، لكنّي لا أعرف كلّ شيء،" يجيب "تور". "على أيّ حال، عندما كنت شابًّا، لم يكن التحدّث إلى الكاهن أمرًا سهلًا كما هو الحال الآن: إمّا أن يحسن المرء التحدّث أو فليلزم الصمت. هكذا كانت الأيّام الخوالي".

ثم نهض "تور" ووضع غليونه جانبًا، ثمّ سأل زوجته عن مكان مسحوق البارود، مع أنّه كان يعرف مكانه تمام المعرفة، فهو الذي أخفاه تحت فراش السرير بنفسه عندما عاد من المتجر مؤخّرًا. لكنّه سألها عن مكانه، فصمت جميع أفراد العائلة. أخرج "تور" المسحوق وقسّمه إلى ثلاثة أجزاء متساوية، واضعًا كلّ جزء منها داخل قصاصة ورقيّة مثلثة الشكل، ثم ارتدى قبّعته، واحتشد الأطفال حوله وتوسلوا إليه لكي يسمح لهم بالذهاب معه، لأنهم كانوا يعرفون ماذا سيحدث بعد قليل. غادر الأولاد والأب وبقيت "كيرستي" في الغرفة بمفردها.

مشى "تور" والأطفال إلى الحظيرة، حيث سيقوم والدهم بإشعالِ البارود. تساقطت الثلوج حولهم على شكل دوامات صغيرة. صلّى "تور" ثمّ فتح باب الحظيرة، ثمّ صلّى مرة أخرى بمجرد أن أصبح في الداخل. كان الظلام دامسًا هناك، وساد الهدوء. الصوت الوحيد الذي كان مسموعًا هو صوت مضغ البقرة لطعامها. أشعل "تور" مصباحًا، وأضرم بلهبه رُزمَ البارود الثلاث: واحدة للبقرة وواحدة للخروف وواحدة للعجل. شاهد الأطفال الحدث متعجّبين، دون أن يصدروا أيّ صوت. لم يتفوّه أحدٌ منهم بحرف واحد. ثم صلّى "تور" للمرة الأخيرة قبل أن يغادر الحظيرة، بينما بقيت "لينا" الصغيرة لكي تداعب العجل، فنادى عليها والدها: "من الأفضل أن تسرعي، يا "لينا" " ثم عاد الجميع إلى المنزل.

"يا لسوء الطقس! لقد غطّت الثلوج جميع أنحاء التل"، قال "تور".

ثمّ استلقى على السرير مرة أخرى إلى أن أعدّت زوجته القهوة، بينما راح الأطفال يلعبون بألعابهم الصغيرة على الطاولة. شيئًا فشيئًا ازداد حماسهم وأصبح كلّ شيء يضحكهم.

تحدّث "تور" إلى زوجته وهو مستلقٍ على السرير، بينما جلست هي في الجزء المقابل من الغرفة.

"كنت أتساءل... يا لهذه الضّجّة التي يُحدثها أولادك. لا أستطيع التفكير بهدوء... على أي حال، كنت أتساءل في سرّي: ماذا سأشتغل في المستقبل؟".

سكبت زوجته القهوة ثمّ أجابت: "لا تقلق. ستعثر على وظيفة ما، بعون الله".

"يمكنني العمل في درس القمح أو الحنطة في القرية".

"بالتأكيد، ستعثر على عملٍ ما دونَ أدنى شك... والآن، تعال واشرب قهوتك".

شرب "تور" قهوته وأشعل غليونه مرة أخرى. بعد قليل، اتجه نحو الباب ونادى على زوجته لكي تقف معه هناك ثمّ همس شيئًا في أذنها. حاول الأولاد أن يسترقوا السمع، حتّى أنّ "لينا" دسّت رأسها الصغير الفضولي بين ساقي والديها، فوبّخها والدها على الفور. فقال لها إخوتها بنبرة مرحة خبيثة:

"تستحقّين ذلك!".

لكن "لينا" الصغيرة كانت طفلة لطيفة جدًّا، ولم يستطع إخوتها الاستمرار في إغاظتها. بعد ذلك مباشرة أعطاها "رينالدوس" زرًّا كبيرًا برّاقًا: هديّة متواضعة أسعدت تلك الطفلة ورسمت ابتسامةً على وجهها.

بعد لحظات، أخرج الأب من الخزانة طردًا كان في داخله شيء أرسله "تيميان" من أمريكا: وشاحٌ مصنوعٌ من الفرو، مبطّن بجلد أسود ناعم، مزيّنٌ بالهُدَب. لا شك أنّ "تيميان" تذكر كم كان الجوّ باردًا على سفح التلّ في فصل الشتاء، فأرسل هذا الوشاح إلى عائلته. كان أفضلَ وشاحٍ رآه على الإطلاق، ولا بدّ أنّه كلّفه الكثير من المال.

ولكن من سيحظى بالوشاح؟ حيّر هذا السؤال "تور" وزوجته كثيرًا، لكنّهما قرّرا أن يعطياه لـ "رينالدوس"، فهو الأكبر سنًّا بين إخوته، وهو الذي يجلب حاجيّات المنزل من القرية، لذلك كان بحاجة إلى الوشاح لكي يشعر بالدّفء.

""رينالدوس"، تعال إلى هنا!" قال "تور". "خذ هذا الوشاح. لقد أرسله إلينا "تيميان". إنه وشاح مميّزٌ ولائقٌ جدًّا؛ يمكنك أن ترتديه حول رقبتك عندما يحين موعد تثبيتك*. لذا عليك أن تعتني به. هاك. ضعه حول رقبتك". أثار الوشاح الناعم إعجاب ودهشة

* Confirmation: سر التثبيت أو سر الميرون هو طقس ديني لدى الكنائس الكاثوليكية والأنجليكانية والأرثوذكسية حيث يتم تثبيت الإيمان الذي تلقاه الفرد عند التعميد، غالبًا ما يحصل التثبيت بين سن 12 و17 في الغرب وأمريكا، وبعد التعميد مباشرةً في الكنائس الشرقية. (المترجم).

الأولاد، وأخذوا يتفحّصونه ويتحسّسونه لمدة نصف ساعة كاملة؛ لم تتعب "لينا" الصغيرة من تمسيده بيديها الزرقاوين الصغيرتين. لكنّ "رينالدوس" لم يسمح لها بارتداء الوشاح، نعم، فهي صغيرة جدًّا. الهدية التي حصلت عليها كانت شمعةً بسيطة. أشعلتها لعدة ثوانٍ ثم أطفأتها مباشرة لكي تحافظ عليها. أمّا "ديدريك" فلم يحصل على أيّ شيء، لكنّ والده وعده أنه سيشتري له قصة جديدة من الكتاب المقدس بعد أن يعثر على عمل في القرية.

استمر الثلج في التراكم على النافذة، وكان أحيانًا يتساقط عبر المدخنة ليحطّ على حفرة النار مباشرةً. تأخر الوقت جدًّا وقد حان موعد النوم بالنسبة لعائلة التل؛ لا بدّ أن ينال "تور" قسطًا من الراحة لأنّ يوم غدٍ سيكون شاقًّا، مثل البارحة، وسيتعيّن عليه إزالة الثلوج مرّة أخرى.

"هيّا يا أولاد. إلى الغرفة العلوية. لا تنسوا تلاوة صلواتكم قبل النوم"، قال الوالد.

واحدًا تلو الآخر، صعد الأولاد السلّم إلى الطابق العلويّ. سمح "تور" لـ"رينالدوس" أن يأخذ الوشاح معه إلى غرفة النوم شريطةَ أن يبقيه ملفوفًا بالورق. تبعته "لينا" حاملةً شمعتها.

عند منتصف الليل، لما كان الجميع نيامًا، استيقظت الأم على صوت حركة في الطابق فوقها، فنادت: "من منكم مستيقظ؟" لكنها لم تلقَ جوابًا، ثم اختفى الصوت. بعد لحظات قليلة، سمعت صوت أقدام صغيرة تمشي على الألواح الخشبية: كانت "لينا" الصغيرة قد مشت خلسةً باتجاه فراش "رينالدوس" لكي ترتدي الوشاح في

الظلام، مع أنها كانت خائفة جدًّا من أن يستيقظ ويلقي القبض عليها بالجرم المشهود.

نعم، لقد كان وشاحًا أخّاذًا! لم يسبق لتلك العائلة في ذلك المنزل الصغير على التل أن رأت شيئًا أنعم منه قط. ارتداه "رينالدوس" مرتين في الأسبوع فقط، عندما كان يذهب إلى الكنيسة، واعتنى به قدر المستطاع. على الرغم من ذلك، بدأ الفراء يتساقط منه بمجرّد أن حلّ الصيف، وظهرت الديدان على الهُدَبِ الجانبية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحياة في بلدة صغيرة

عندما لا ينهمر المطر بغزارة، كما جرت العادة، يمكنك سماع صوت المطارق تدقّ المسامير والصوامِل* بتواترٍ وتناغم في ساحات صناعة القوارب. هكذا كان الحال، طوال الأسبوع، من الفجر حتى الغسق. صوت المطارق هذا كان الصوت الوحيد الذي دلّ على وجودِ أيّ نمطٍ ما من أنماط المجتمع في هذه البلدة. سمعه الجميع في كل مكان وفي كل منزل.

إنّها بلدة صغيرة هادئة، يعيش فيها أناس محافظون. فيها ربابنة وبائعو خمور، وحراس ليليّون يقضون معظم وقتهم دون أن يقوموا بأيّ عمل يذكر. فيها كنيسةٌ أيضًا. نادرًا ما وقعت الشجارات هنا، ونادرًا ما أساء أحدهم التصرّف لدرجة أنّ الغرباء عن هذا المكان يستغربون من النظام السائد فيه. وإذا أسرف بعض عمال السفينة أو المتسكّعين في الشرب وبدأوا في الغناء والتفوّه بالشتائم في الشارع، كان الهدوء المطلق في البلدة يغرق أصواتهم كلّيًا. يسير الحراس في الشوارع في صمت، ولا يكلّفون أنفسهم عناء تحريك رؤوسهم يمنة أو يسرة، لأنه لم يكن هناك داعٍ لذلك.

---

* الصامولة: قطعة حديد مستديرة أو مضلّعة، جوفها مسنَّن على شكل حلزونيّ، تُثبَّت في طرف مسمار مُسنَّن مثلها لإحكام تثبيته. (المترجم).

يحلّ المساء وتنام البلدة نومًا عميقًا. لا أحد من سكّانها يسهر الليل، ولا أحد منهم يقيم الحفلات. يلتقي الحارسان الليليان في سوق سمك "الماكريل"، إذ كانت هذه نقطة انطلاقهما. يلقيان التحية على بعضهما بعضًا، ويمشيان قليلًا، ثمّ يجلسان ويدخنان بعض السجائر، ثم يمشيان لبضع ياردات أخرى. هكذا كانا يقضيان كلّ الليل. يعرفان الجميع، والجميع يعرفهما. إذا صادفا أحد السكان في طريقه إلى المنزل في وقت متأخّر من الليل، كانا يعرفان على الفور ما إذا كان عائدًا من تعميد أحدهم أو من حفلة توديع العزوبية لأحد الشباب في البلدة. لا يمكن لأحدٍ أن يخدعهما. وإذا ما مرّت عربة من أمامهما -كما يحدث أحيانًا في الليل المظلم الساكن- فيها امرأة ترتدي قبعة في المقعد الأمامي ورجل في المقعد خلفها، فإنهما يعرفان من أين أتت تلك العربة أيضًا؛ يهمسان لبعضهما بعضًا ويومئان برأسيهما كالنساء المسنّات؛ كان التفاهم بينهما لا تشوبه شائبة. في تمام السادسة صباحًا، يذهب كلّ منهما في سبيله وينبئ جميع من استيقظ من النوم بأخبار البلدة: "لقد وصلت القابلة منذ ساعتين، وأنجبت زوجة القبطان "غابريلسن" Gabrielsen طفلًا واحدًا".

تفتخر هذه البلدة أيضًا بخيّاطين اثنين، ومتسول، وجيش الخلاص، وميناء السفن البخارية، ومكتب الجمارك، وبنك الادخار. فيها كلّ شيء. وفي وسط البلدة، هناك مبنى اتحاد العمال، والمكتبة العامة، حيث يتجمع رجال المدينة في المساء ليقرأوا الصحف اليومية، لكنّهم لا يقرأون إلّا الأخبار الضرورية. بالإضافة إلى الكتب المدرسية وكتب الصلاة، تبيع المكتبة أيضًا مختلف

الأشياء، من الأمشاط إلى ألواح الشوكولا. يقول أهل البلدة إنّ رجلًا يعيش هنا قد قرأ قصيدة "بيدر بارس"* Peder Paars بأكملها في شبابه، لكنها لم تنفعه كثيرًا، فقد آل به الأمر أن أصبح رجلًا عازبًا عاطلًا عن العمل، فضلًا عن كونه ساذجًا بعض الشيء. اسمه "تونيس أولاي" Tønnes Olai؛ لا أحد يعرف كيف يتدبّر هذا الرجل أموره المعيشية، كما لا يراه أحدٌ في أوقات الوجبات، لذلك لا بدّ أن يكون لديه بعض الطعام في منزله القديم الذي يعيش فيه على مدار السنة، منعزلًا عن الجميع. باستثناء أوقات الوجبات، كان دائمًا في الشوارع. "تونيس أولاي" رجلٌ صغير البنية، أصهب الشعر واللحية، غير جذّاب، وفقيرٌ أيضًا. لكن لاحظ الجميع أنّه قد استعاد صحّته في الآونة الأخيرة. دائمًا ما كان "تونيس أولاي" هادئًا، فهو يفكّر مليًا بكل شيء. في الواقع، كانت لديه حدبة صغيرة من كثرة التفكير والتأمّل. نظرًا لأنه يعرف كل شخص في المدينة، كان يشعر بأنه ملزم بإلقاء التحية عليهم جميعًا، وعادةً ما يبادله الآخرون التحية على أكمل وجه، باستثناء القنصل الذي كان يكتفي بوضع سبّابته قرب قبّعته.

لا شكّ في أنّ "تونيس أولاي" تمتّع بشهرة محليّة بارزة؛ يفخر الصيادون العاديون وعمال الميناء بمعرفته ويرون أنّهم يحتلّون المكانة الاجتماعية ذاتها التي احتلّها هو. يعتقد هؤلاء أنّ "تونيس أولاي" يكسب رزقه بشكل سرّي، عن طريق وظيفة تتطلّب منه

---

* قصيدة ملحمية طويلة للأديب النرويجي لودفيغ هولبرغ (1684 - 1754) Ludvig Holberg. (المترجم).

التفكير العميق، فهو خارق الذكاء في نظرهم. يعلم الجميع أنّه عاطلٌ عن العمل، لكنّه كان يعيش في أحسن حال، لا بل أصبح من الواضح أنّه يزداد ثراءً بين الحين والآخر. إذن لا بدّ أنّه "يستخدم رأسه" لكسب المال.

لكن "تونيس أولاي" كذّب جميع هذه الأقاويل، مؤكّدًا أنّه يقضي كل وقته في الشوارع؛ إنّه يعرف تلك البلدة مثلما يعرف جيب بنطاله ...

في أيّام الأحد، يختفي صوت المطارق الجماعي في ساحة صنع القوارب، ويرتدي سكان البلدة أفضل ملابسهم ويتوجهون إلى الكنيسة، خصوصًا إذا توقّف المطر عن الهطول.

الطريق إلى الكنيسة طريق رمليٌّ متعرّجٌ يقود إلى أعلى التلة؛ الأرجلُ التي داسته لا تعدّ ولا تُحصى، كما سحقت الأحذية الثقيلة التي يرتديها الربابنة الضخام حصى هذا الطريق محوّلةً إيّاه إلى رمال، وبمجرّد أن يهبّ الهواء، تتطاير هذه الرمال يمنة ويسرة، لكنّ زوجة الربان "أندرسن" Andersen الغنية لم تتوقف عن ارتداء فستانها الطويل ذاته الذي كانت ترتديه في شبابها، فتنبعث الرمال خلفها كلّما جرجرت ذيل الفستان في طريقها إلى الكنيسة. كان الكثير من الناس يعبّرون عن امتعاضهم بسبب ذلك.

تمشي الفتيات بملابسهن الزاهية، بينما ارتدت النساء المتزوجات ثيابًا داكنة؛ ولا ننسَ ذكر "ينسن" Jensen الذي يعمل لدى التاجر "بيرغ" Berg، الكيميائي، و"أولسن" Olsen موظف الجمارك، والمصور "روسن" Rosen ذو الساق الواحدة الذي لم يحقّق هدفه

في الحياة بعد. لكن عندما يأتي القنصل، يسمو بمظهره البهيّ فوقهم جميعًا، بشعره الداكن والزهرة الحمراء في عروة الزرّ العلوي لبدلته، على الرغم من أن لديه ثلاثة أولاد بالغين.

يسير الربابنة الضخام معًا في مجموعات، منهم من عادوا للتو من رحلةٍ ما ومنهم من هجروا البحرَ إلى الأبد، لكنّ بشرة كلِّ واحد منهم كانت قد اكتسبت لونًا بنّيًا. يسيرون مثلَ خيول العربات التي تجرّ وراءها حمولة ثقيلة، لكنّ محادثاتِهم كانت مليئة بالحيويّة ووجوههم خالية من الهموم.

عندما حلّ المساء، أقنع أحد الربابنة ربّانًا آخر بالسير معه على رصيف الميناء، بالقرب من مكتب الجمارك، وسرعان ما تجمّع كل الربابنة هناك. تتشكل بعض المجموعات ثمّ تنحلّ ثم تتشكّل من جديد؛ يتنقل الربابنة من مجموعة إلى أخرى. كانوا يتحدّثون عن "الماكريل" الطازج و"الماكريل" المملّح و"الماكريل" المخلل، وكلّما استطاعوا الانتهاء من هذه المحادثات بحلول الساعة السادسة صباحًا، كانوا يعتبرون أنّها محادثات مثمرة. حتى لو لم يتّفقوا في وجهات النظر، كانوا يتوقفون عن الدردشة في تمام السادسة، أي بمجرّد أن يسمعوا صافرة الباخرة في المضيق البحري. منذ تلك اللحظة فصاعدًا تصبح كلمة "الماكريل" كلمةً لا يطيق أحد منهم سماعها مرة أخرى.

بعد ذلك بقليل، يصل قارب البريد إلى البلدة مترنّحًا فوق الأمواج، فيسارع الجميع إلى رصيف القوارب البخارية. كانت الساعة السادسة لحظةً عظيمة في هذه البلدة الصغيرة، حتّى أنّ

المسنّين يأتون مسرعين بعكاكيزهم، بينما يأتي بعضهم الآخر على الكراسي المتحركة إلى الرصيف كلّما وصل قارب البريد إلى الميناء. يقف أربعة رجال على أهبة الاستعداد ممسكين بحبلٍ لكي يربطوا القارب.

أتت ستّ شابّات لإرسال رسائلهنّ عبر البريد، كما انتظر سربٌ من زوجات الرّبابنة وصولَ البائع المتجوّل. عناصرُ جيش الخلاص كانوا هناك أيضًا، مرتدين بزّاتهم الحمراء، حاملين منشورات كُتب عليها: "صلاة جماعية واجتماعٌ بخصوص عيد الشكر في تمام الساعة 7.30"، وقد وقّع عليها المجنّد "أولسن" والرائد "أ. س. ثورغرسن" A. S. Thorgersen. كما كانت هناك ملحوظة تقول: "استعدّوا للقاءٍ مع خالقكم!".

يرنّ جرس القارب أول مرة، ثم يرنّ مرّة أخرى بعد بضع لحظات. تصل امرأة في وقت متأخّرٍ بعض الشيء، لكنّها حضرت لئلّا يفوتها الحدث الكبير، فأتت تهرول على طول الرصيف ممسكة بطرف تنوّرتها بكلتا يديها، وتصبّبت عرقًا وهي تحاول التقاط أنفاسها.

"هل ستسافرين معنا؟" سألها رجل واقف في مقدمة إحدى السفن. "كلا"، أجابته وهي تلهث.

"لقد أتيت إلى الميناء لكي أشهد هذه اللحظة العظيمة، حالي حال الجميع. والحمد لله، لقد وصلت في الوقت المناسب"، أضافت السيدة. بعد لحظات، قام عمال الميناء بوضع صندوقين من الجعة مخصّصين لفندق البلدة على الشاطئ.

يرن الجرس للمرة الثالثة، ومعه يتم وصل القارب بالميناء عن طريق السلم.

تتقلّص الحشود المجتمعة، بعد أن انقضت "اللحظة العظيمة"، وينتشر الناس في جميع أنحاء المدينة، تاركين وراءهم المهتمين بمحتويات حقيبة البريد، والشابات اللواتي يترقّبن بعض الرسائل، والسادة الذين ينتظرون شراء نسخةٍ من صحيفة "الأخبار الغربية" Western News. تمر ساعة كاملة مليئة بالأمل والإثارة والشك، إلى أن تم توزيع كل شيء. ثم عاد عمال قارب البريد إلى منازلهم أيضًا.

بعد العشاء، يتوجّه أبرز رجال المدينة إلى مبنى الاتحاد لكي يقرأوا الصحف التي وصلت مؤخّرًا.

هذا هو يوم الأحد في هذه البلدة الصغيرة. يمر يوم الاثنين هكذا أيضًا، بهدوء وسلام. في الواقع، لا تختلف طبيعة الحياة هنا بين العام والآخر قط.

لكنّ شيئًا مروَعًا حدث فيها في يوم من الأيّام، حدثٌ زعزع المدينة بأكملها. لقد كان عامًا تعيسًا لم تسلم منه سوى الكنيسة ومؤسستين أخريين.

***

هذا ما حصل بكل بساطة: قام المصور "روسن"، ذلك الرجل ذو الساق الواحدة الذي لم يحقق هدفه، بشنق نفسه. عندما كان على قيد الحياة، تنقّل من منزل إلى آخر في المدينة، غير قادرٍ على

الاستقرار في أيّ من هذه المنازل، لأنه كان مدينًا بالمال لكثير من الناس. في نهايةٍ المطاف، باع جميع معدَاته واشترى بثمنها الخمر، ثم شربه كلّه وشنق نفسه. لكنّه قبل أن يقدم على ذلك، كان على وشك أن يتزوّج من ابنة أحد تجار البلدة. أصبحت خطيبته هذه تتصرّف مثل السيدات بعد أن عرض عليها الزواج، وترتدي قبعة وتحمل مظلة على الدوام، مع أنها كانت تبلغ من العمر 30 عامًا. يحكى أيضًا أنّها ساعدت خطيبها المصوّر على الخروج من المآزق الماديّة في مناسبتين اثنتين، لذلك لم يتبقَّ لديها الكثير من المال لتعتني بنفسها. قالت سيدات أخريات عازبات - في الثلاثين من أعمارهنّ أيضًا- إنها جنت على نفسها: "ماذا دهاها؟ كيف لها أن تتصرّف على هذا النحو؟" كما قلن إنّ المصوّر المسكين قد شنق نفسه كي يتجنّب الزواج منها، فقد كان رجلًا محترمًا ذكيًا ولا شك أنّه أدرك أخيرًا معنى الزواج من المرأة التي أعطته المال لكي يسدّد ديونه.

اتّضح لاحقًا أنّ انتحار "روسن" المصور قد سلّط الضوء على "أولسن" رجل الجمارك، الأمر الذي قضى على حياة هذا الأخير كليًا. صحيحٌ أنّ "أولسن" لم يشنق نفسه، لكنّ مصيبة كبيرة حلّت به ودمّرت حياته إلى الأبد. هذا ما يحدث للأشخاص العاديين الذين يحاولون العيش مثل أصحاب الطبقة العليا مع أنّ دخلهم لا يسمح بذلك: كان "أولسن" يختلس من أموال الجمارك، وقد سرق 300 كرونة عدًّا ونقدًا. لقد شك الكثير من الناس في أمره وكانوا يعرفون أنّ عاقبته ستكون وخيمة. أحبّ "أولسن" ارتداء البدلات الفخمة قشديّة اللون وقبّعات القش عندما يحلّ الربيع؛ كما كان الرجل

الوحيد في البلدة الذي يحلو له حمل عصا ووضع منديلٍ حريريٍّ في جيب صدره. لكنّ جميع الناس يعرفون والدته، تلك الأرملة العجوز الفقيرة التي اشتغلت في تنظيف منازل الأغنياء في عيد الفصح وعيد الميلاد. إلّا أنّ "أولسن" أراد أن يظهر بمظهر يليق بوظيفته، ففي رأيه، هو لا يقل شأنًا عن أي موظّف حكوميّ آخر. كما اختار أن يصبح صديقًا لـ"روسن" المصور وغيره من الذين أنفقوا أموالهم على الأواني الفاخرة والجعة وارتدوا الأحذية الصفراء في الصيف. طبعًا، لم تكن نهاية "أولسن" نهايةً سارّة، فقد طُردَ من وظيفته في الجمارك.

ضجت البلدة بالشائعات والقيل والقال، وقام "ينسن" -موظَّف "بيرغ"- بتأليف قصيدة صغيرة عن هذين الحدثين، الأمر الذي دفع القنصل إلى التدخل. صحيحٌ أن "ينسن" كان يعمل لدى التاجر "بيرغ"، وليس لدى القنصل، إلا أنّ "بيرغ" استهجن الأبيات الفظّة التي ألّفها "ينسن". قال القنصل على الملأ إنّ "ينسن" لا يختلف كثيرًا عن "روسن" المصور و"أولسن" رجل الجمارك، وبذلك قضي الأمر. كان "ينسن" يعتقد أنّ قصيدته ستحسّن من سمعته في البلدة، لكنّ ما حصل هو عكس ذلك تمامًا.

ثم بدأ الناس يتحدثون عن الشابة "أولاڤا" Olava، زوجة القبطان "ڤولرتسن" Wollertsen، التي لم يرها أحد لفترة طويلة. صحيحٌ أنّها لم تكن ملزمة بالتواجد في الأماكن العامة، إلّا أنّها لم تذهب حتى إلى الخباز أو المتجر، ولم تلتق بصديقتها أيضًا. هل كان من الضروري أن تنقطع عن البلدة بأسرها؟ لقد لزمت "أولاڤا

فـولرتسن" المنزل ولم تغادره قط. إذن ماذا كانت تفعل هناك طوال الوقت؟

كانت شابة جميلة، وقد تزوجت قبل ثلاث سنوات، لكنّ زوجها ذهب في رحلة بحريّة على متن إحدى سفن القنصل منذ عامين ولم يعد بعد. لديهما طفل واحد، وكان منزلهما الصغير نظيفًا ومريحًا جدًّا، كما كانا قد وضعا أوانيَ من الزهور على عتبات نوافذه. لذا فإنّ فكرة حدوث المشاكل داخل ذلك المنزل كانت غير منطقية. سأل أهل البلدة الشابة التي كانت تنظّف منزل "أولاڤـا" عن حال هذه الأخيرة: "هل أصبحت امرأةً متديّنة؟ هل انضمّت إلى جيش الخلاص؟" لكنّ تلك الشابة لم تملك أيّ جوابٍ شاف، مؤكّدةً أنّ "أولاڤـا" تصدّ الجميع وترفض أن تقابل الناس.

مرت الأيّام والأسابيع على هذا الحال. أصبح الطقس هادئًا وكان موسم صيد "الماكريل" جيّدًا جدًا. لكن العواصف قد اجتاحت البحار اجتياحًا، وفي صباح أحد الأيام جاء قبطانان إلى المرفأ على متن سفينة بثلاثة أشرعة؛ كانوا قد وجدوها تحت جناح الليل بعيدًا عن المنارة، تنجرف نحو المحيط. لا بد أن طاقمها قد تخلّى عنها معتقدًا أنّها كانت على وشك الغرق. "لحسن حظّنا أنّنا أنقذناها. يا لها من سفينة هائلة جميلة!" قال أحد الربابنة.

بالفعل، لقد سحرت تلك السفينة المذهلة عيون الناظرين عندما رست في المرفأ. كانت الشابة "إلسا" Else تمشي مع اثنين من صديقاتها على طول المرفأ وكانت أوّل من رآها.

"انظرا هناك!" صاحت وهي تشير إلى السفينة، مدركةً على الفور أنّها ليست من سفن البلدة. وتابعت قائلة: "لا بد أنهم عثروا عليها الليلة الماضية. سوف يحصلون على مكافأةٍ مقابل إنقاذها!*".

أقرّت صديقتاها بانّها كانت على حق، وقلن في أنفسهنّ: "يا لها من فتاة مدهشة. صحيحٌ أنّ "إلسا" كانت يافعة إلّا أنّها تعرف الكثير عن هذه الحياة".

"لنذهب ونخبر زوجات الربابنة"، قالت "إلسا"، وهذا ما فعلته الفتيات فعلًا. كانت "إلسا" فخورة جدًّا بنفسها، وكأنّها هي من أنقذ السفينة. ثم حاولت جاهدةً إخبار صديقتيها بأشياء تبعث على المفاجأة. كانت مختالة فعلًا.

"هل تذكرن "ينسن" الذي يعمل لدى "بيرغ"؟ لقد تلطّخ سرواله الجديد ببقعة من الطلاء!".

لكنّها لم تأتِ بشيء جديد. فقد أصبح بإمكان الجميع أن يسخر من "ينسن" ما إن وقف القنصل ضده.

"أصحيحٌ هذا؟ لم نسمع بذلك من قبل"، قالت إحداهن.

"نعم، كما قلت لكما. هذا ما يستحقه، فعلًا. إنّه رجلٌ مغرورٌ جدًّا". وضحكت الفتيات الثلاث بصوت عالٍ.

"بالمناسبة، هل تعرفان أنّ أولاڤا ڤولرتسن قد أصبحت...".

"ماذا أصبحت؟"

---

* ينص القانون البحري Maritime law على تقديم المكافآت للبحارة الذين ينقذون المراكب والسفن من الغرق أو الدمار. (المترجم).

"هكذا!" قالت "إلسا"، ثم نفخت بطنها وأمسكت به.

صفقّت صديقتاها من الدهشة ثم قالتا إنّهما لا يصدّقانها. "لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، أليس كذلك؟" قالت إحداهن.

أكّدت "إلسا" ما قالته: "بلى. ما أقوله صحيحٌ مائة بالمائة".

"لكن زوجها غادر منذ عامين ولم يعد. هذا مستحيل"، قالت الأخرى.

"حسنًا. سواء أصدّقتماني أم لا، هذه هي الحقيقة. وستذكران ما قلته لاحقًا".

لم تستطع الفتاتان فهم قصدها، لكن بما أنّ القبطان "ڤولرتسن" لم يرَ زوجته منذ عامين، فمن المحال أن يكون هذا طفله. أرادت الشابة "إلسا" أن تدهشهما وأن تُظهر لهما أنّها تعرف كل شيء، إلا أنّها هي أيضًا لم تستطع تفسير ما قالته.

توجّهت الفتيات من منازل الربابنة إلى الميناء مباشرة حيث تم ربط السفينة التي أُنقذت البارحة. كان عمّال المرفأ يفرغون طوابقها السفلية من الماء عبر المضخات خشية أن تغرق.

ثم صعد القنصل على متنها. كان جميع سكان البلدة قد تجمهروا حول السفينة وأخذوا يراقبون تحرّكات القنصل، حتّى أن بعض الأغبياء اعترضوا طريقه، فطلب منهم بكل أدبٍ أن يتنحّوا جانبًا.

بدا القنصل مميّزًا عن الجميع بشعره الدّاكنِ وملابسِه الزّاهية والزّهرة في عروة بدلته. أخذ معه دفترًا كبيرًا ليدوّن فيه الملاحظات بينما كان يتفقّد جميع أرجاء السفينة، كما دوّن كلّ شيء أخبره به

الربابنة الثلاثة. استدعى القنصل رجلًا من الحشد المتجمهر على رصيف الميناء لكي يحمل علبة الحبر نيابةً عنه بينما تجوّل في السفينة وأعدّ تقريره.

كان ذلك العام غريبًا لدرجة أنّ حادثةً جديدةً وغريبةً وقعت كلّ شهر في البلدة. خذ على سبيل المثال الحريق الذي شبّ في منزل المدرّس "إلياسن" Eliassen؛ لم يكن ذلك أمرًا شائعا بأيّ حال من الأحوال. يمكن القول إنّ "إلياسن" قد استفاد حقًّا من رؤيته للمستقبل، إذ أنّه كان قد أبرم عقد تأمينٍ على منزله قبل عام واحد فقط -بمحتوياته وأثاثه وجميع مرافقه الخارجية- مقابل مبلغ هائلٍ من المال. والآن قد اشتعلت النيران في كلّ شبرٍ من عقاره. كان "إلياسن" أمينَ صندوق اتّحاد العمّال، إضافةً إلى عمله كمدرّس، أي أنّ جميع الأموال التي كان مؤتمنًا عليها -حوالي 200 كرونة- أصبحت رمادًا بسبب الحريق. يا له من أمرٍ مؤسف حقًا. خلال اجتماع مجلس البلدية التالي، تم إعفاؤه من تحمّل أيّ مسؤولية جرّاء احتراق هذه الأموال. عندما سمع "إلياسن" هذا القرار، وقف وقال بغصّةٍ مؤلمةٍ إنّه يفضل أن يرى نفسه وزوجته وأطفاله عراة في الشارع على أن تتمّ تبرئته من أيّ كرونة. "لقد منحني الاتحادُ شرفًا عظيمًا عندما أوكلني بهذه المهمّة، وأنا أعرف تمامًا أين يكمن واجبي".

بعد ذلك، دبّ الحماس الشديد في قاعة الاجتماع، وقام أعضاء الاتحاد بالتبرّع بـ200 كرونة لكي يتمكّن "إلياسن" من شراء أثاث جديد لمنزله.

***

جاء الخريف، ومعه اشتدّ البرد، وأصبحت الليالي أكثرَ ظلمةً. كما جرت العادة، يلتقي الحارسان الليليّان في سوق "الماكريل" وسط الليل الحالك، يتبادلان التحيّات وأطرافَ الحديث، ثم يمشيان الهوينى في الشوارع، تحت الضوء الخافت لمصباح الفندق. فجأةً يمسك أحدهما الآخر من ذراعه ويوقفه.

كان "تونيس أولاي" يسير في الشارع أمامهما، بهدوئه المعتاد، ثم يصعد الدرج الذي يقود إلى مكتب القنصل. المدهش في الأمر أنّ الوقت كان منتصف الليل! يصل إلى أعلى الدرج ويتوقف لحظة، ثم يحني رأسه إلى الأسفل قليلًا، ربّما لأنّ الأفكار كانت تثقل كاهله. كان الحارسان على وشك التقدم نحوه لكي يطرحا عليه بعض الأسئلة التي تعبّر عن حيرتهما عندما شاهدا أنّ القنصل بنفسه قد فتح الباب لكي يسمح لـ"تونيس أولاي" بالدخول. خلال الـ15 سنة الماضية التي راقب فيها الحارسان هذه البلدة، كان ذلك أكثرَ شيءٍ مذهلٍ شاهداه على الإطلاق، دون منازع، لدرجةِ أنّهما تسمّرا في مكانهما غيرَ قادرين على التحرّك من أثر الذّهول.

دخل "تونيس أولاي" بهدوء وصمت. ثم سار بصحبة القنصل إلى آخر غرفة في المكتب. كان الباب قد أُغلقَ بإحكامٍ خلفهما.

"لا أعتقد أنّنا بحاجةٍ إلى إنارة الغرفة"، قال القنصل. "يكفينا الضوء القادم من الفندق... على أيّ حال، تفضّل بالجلوس. اجلس هنا".

جلس "تونيس أولاي" باحترام على حافة المقعد.

قال القنصل: "لقد استدعيتك لكي أتحدّث إليك عن أمرٍ واحد فقط: الجميع هنا يعرف أنّك ملمٌّ بكل شيء. فأنت تجوبُ البلدة بأكملها في الليل. أعلم أنّك رأيتني عدة مرات. لكن هل لك أن تقول كم مرة رأيتني بالضبط؟".

"سبع مرات، يا سيدي القنصل"، يجيب "تونيس أولاي".

"سبع مرَات؟ كلّا. لم أذهب إلى منزلها سبع مرات قط"، يقول القنصل. "نعم، زرتها بضع مرات فقط، أعترف بذلك... بضع زيارات قصيرة فحسب".

فيجيب "تونيس أولاي":

"سبع مرات، يا سيدي القنصل. أعتذر عن ذكر الرقم".

يشعل القنصل سيجارًا دون أن يقدّم سيجارًا لضيفه.

"حسنًا، أيًا كان"، يقول القنصل وهو ينفث سحابة كبيرةً من الدخان. "لكنني آمل أن نتوصّل إلى اتفاق معين، يا عزيزي "يانسن" Jahnsen".

لكنّ "تونيس أولاي" لم يسمح لنفسه أن يقع في هذا الفخ، إذ كان القنصل يحاول التقرّب منه.

"يكفي أن تناديني بـ"تونيس أولاي"، يا سيدي القنصل".

يومئ القنصل برأسه وينفخ الدخان مجدّدًا.

"حسنًا... لا بأس. لقد أخبرتَها أنَك رأيتني أغادر منزلها. هذا أوّلًا. ثانيًا، لقد أخبرتَها أنّي سوف أعطيك المال مقابل التكتّم عن الأمر." قدّم القنصل سيجارًا لضيفه ثم قال "كم تريد إذن؟"

لكنّ "تونيس أولاي" يرفض السيجار، رغم إلحاح القنصل على ذلك.

"كم أريد؟ لا بدّ أنت تعرف أنّني أعيش حياة بسيطة جدًّا لا تتطلب الكثير من المال. ضع ذلك في الاعتبار".

"كم هو المبلغ الذي تريده؟".

"لك حرية التصرف في هذا الأمر، يا سيدي القنصل".

'ممم، نعم، نعم، أعتقد أنّك على حق. حقيقةً، لا أرغب في التوصل إلى أي نوع من الاتفاق معك، يا "تونيس أولاي"، لكنني أرفض أن يغتابني الناس وأن يروّجوا الحكايات الكاذبة عني. فأنا ربّ منزل ولديّ مسؤولياتٌ عائلية. ما أريده هو شراءُ صمتك، بصراحة تامة".

يقول "تونيس أولاي" باحترام:

"من سيكون أب الطفل، يا سيدي القنصل؟".

يجيب القنصل:

"من سيكون الأب؟ ألا تعتقد أنّ بإمكانها اتخاذ هذا القرار بنفسها؟".

"ليس من السهل على سيدة بمفردها أن تقرر شيئًا كهذا"، يقول "تونيس أولاي". "يجب على سيدي القنصل أن يضع ذلك في عين الاعتبار".

"حسنًا، إلامَ تلمّح؟".

يلهو "تونيس أولاي" بقبعته التي كانت في يده وهو يفكر ثم يقول: "يمكنك أن تقول للناس إنّني أنا الأب، يا سيدي القنصل، بشريطة أن ترضى السيدة نفسها بذلك".

يحدق القنصل في وجه ضيفه وسط الظلام. بدا له على الفور أنّ هذا الاقتراح مفيد.

"لطالما قلت لك إنّك حاد الذكاء، يا "يانسن". أتمنى لو كان لديّ رأسك".

مرة أخرى، لم يظهر "تونيس أولاي" أي علامة على تأثره بإطراءات القنصل.

"لا أحد يخاطبني باسم "يانسن"، يا سيدي القنصل. ينطوي هذا اللقب على شيء من المبالغة. إنّ اسمي المتعارف عليه بين الناس هو "تونيس أولاي"".

"حسنًا، حسنًا، لا بأس، "تونيس أولاي"، كما تريد. لقد تمنيت في كثير من الأحيان لو كان لديَ رأسك. على أيَ حال، أعتقد أنَ اقتراحك قيّمٌ جدًّا... أي من الناحية المادية البحتة. كم هو المبلغ الذي تريده؟".

يفكر "تونيس أولاي" قليلًا.

"ألف كرونة".

شهق القنصل متعجّبًا.

"بالله عليك، يا رجل، ألا تدرك أن لديّ عائلة؟ كن جادًّا فيما تقوله".

"عذرًا، يا سيدي القنصل. لكن ما أريده هو ألف كرونة".

"مستحيل!" يقف القنصل وينظر من النافذة ويفكر. ثم يعود إلى "تونيس أولاي" ويقرر الأمر: "حسنًا، يبدو أنّنا لن نتوصّل إلى أي اتفاق. أعتذر على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر من الليل. سأطلب من شخص آخر أن يقوم بذلك".

"وماذا ينوي سيدي القنصل أن يفعل بشأني؟".

يقول "تونيس أولاي" بعد أن نهض من كرسيّه.

"ماذا سأفعل بشأنك؟" فجأةً يرتجف القنصل غضبًا. "ماذا سأفعل بشأنك، أيها الوغد؟ سأقوم باعتقالك غدًا. اخرج من هنا!".

يفتح القنصل الباب ويسرع "تونيس أولاي" بالخروج، ثم يقول عند الباب بنبرة ودودة، مشيرًا بيده كالحمل الوديع:

"أعتقد أنّك ستجد الفائدة الكبيرة في استخدامي، يا سيدي القنصل. دعني أشرح لك ما أقصده...".

يدرك القنصل أن "تونيس أولاي" على حق. لكنه كان غاضبًا.

"كما قلت لك، سأطلب من شخص آخر أن ينفذ هذه المهمة. انتهى النقاش."

لكن من الواضح تمامًا أنّ "تونيس أولاي" كان محقًّا فيما يقوله؛ في اللحظة التي شارف فيها على المغادرة، يمسك به القنصل ويقوده إلى المكتب مرة أخرى ويغلق الباب.

"قلت إنّك تريد شرح قصدك. تفضل: اشرح".

"هل يعقل أن يصعُبَ على رجل ثريٍّ دفع ألف كرونة!" يقول "تونيس أولاي".

"حسنًا، رغم أنّ هذا ليس من شأنك، لكن يمكن القول إنّني لست فقيرًا... وأعتقد أنّ جميع الناس يعرفون أنّ لديّ نصيبًا لا بأس به من الخيرات الدنيوية، أليس كذلك؟".

"نعم، بالتأكيد!".

"لكن من المحال أن أعطيك ألف كرونة. كلّا وألف كلّا".

"يمكننا تدبير الأمر على نحوٍ يعفيك من المتاعب نوعًا ما".

"كيف ذلك؟ هل تقصد أن أعطيك المبلغ على دفعات صغيرة؟ هل هذا ما ترمي إليه؟".

يحتجّ "تونيس أولاي" مستغربًا:

"دفعات صغيرة؟ كلّا، يا سيدي القنصل! ليت الربّ يقبض روحي على الفور إذا كان هذا ...".

"حسنًا، حسنًا، لا عليك. لقد أسأتُ الفهم".

"ما أقصده هو أنّه ليس من الضروري أن تتحمّل هذه الأعباء وحدك. إذا كنت غير قادرٍ على تسديد المبلغ بأكمله، اطلب منها أن تعطيك نصفه. بإمكانكما تقاسم المسؤولية، إذا جاز التعبير. أعتقد أنّ لديها ما يكفي من المال".

ينهض القنصل من كرسيه مرة أخرى ويصرخ:

"اخرج من هنا! هيّا... اخرج"، ثم يصمت لبرهة قبل أن يقول: "بالمناسبة، هل ناقشت هذا الأمر معها؟".

"نعم...".

يجلس القنصل مرة أخرى ويفكّر قليلًا.

"ليكن بعلمك، أنا لم أرفض إعطاءك ألف كرونة لأنّني عاجزٌ عن ذلك... هناك فرق شاسع بين قدرة المرء على فعل شيء ما ورغبته في تنفيذه. إذا أعطيتك هذا المبلغ سيكون الأمر أشبه بالتّخلّي عن أموال أطفالي... هل ذكرتُ لك المبلغ الذي تستطيعُ أن تساهم به؟".

"لم تقل شيئًا. لكنّها امرأة طيبة القلب، ويجب على سيدي القنصل أن يضع ذلك في عين الاعتبار. كلّي ثقة أنها لن تفكّر في سفاسف الأمور هذه".

"إذن فلتدفعِ النصف فقط!" يقول القنصل بحزم. "هل تعتقد أنّني أنا من يفكر في سفاسف الأمور؟ لن أسمح لها أن تدفع أكثر من النصف!"

وهذا ما تم الاتفاق عليه.

"يمكنك الحصول على المال غدًا أو بعد غد؛ علينا أن ننتظر قدوم أمين الصندوق الخاص بي، فهو الذي بحوزته مفاتيح الخزنة".

رافق القنصل "تونيس أولاي" إلى الباب ثم عاد إلى الداخل مرة أخرى. أشعل المصباح وجلس يدخّن ويتأمّل ويحسب كمّية أمواله...

كان الحارسان واقفينِ في المكان ذاته. لم يحرّكا ساكنًا طوال ذلك الوقت. لقد شاهدا كلَّ شيء: دخول "تونيس أولاي" وخروجه من مكتب القنصل. لكنهما لم يسمعا كلمةً واحدة من المحادثة

التي دارت هناك في الداخل، ولم يتمكّنا من تخمين سبب قدوم "تونيس أولاي" إلى هذا المكتب، فحاولا اللحاق به، لكنهما أخفقا في هذه المهمة، فقد رآهما "تونيس أولاي" من بعيدٍ ومشى في الاتجاه المعاكس لهما، متجاوزًا الفندق مباشرة، مبتعدًا عن الضوء الخافت، حيث لا يمكن لمخلوق أن يراه.

***

مرة أخرى، التقى الحارسان في المساء ليدخّنا ويدردشا ويمشيا في شوارع البلدة.

"لقد وجدت نفسي مضطرًا لتدخين رقائق التبغ مجدّدًا".

"وأنا أيضًا. لقد ارتفع سعر التبغ الناعم كثيرًا، لا بل إنّ سعره يرتفع يوميًّا".

"لا يمكنك أن تفكر في شرائه في ظلّ هذه الظروف".

"في الواقع. أعتقد أنّنا سنصبح عاجزين عن تحمّل تكاليف العيش قريبًا؛ لقد أخذت أسعار كل المنتجات بالارتفاع. قريبًا ستصبح أساسيّاتُ الحياة أشبهَ بالحلم، أم أنّني مخطئ؟".

"كلّا، لستَ مخطئًا. عندما يتعلقُ الأمر بضروريّات الحياة، لا يسعُني سوى أن أتذكّرَ الحكمة القائلة: احفظ قرشك الأبيض ليومك الأسود. كان موعد "تثبيت" ابنتي الصغرى في الربيع الفائت، لكنّنا لم نتمكّن من شراء فستان لها من أجل هذه المناسبة، فاضطرت إلى أن تستعير فستان أختها".

"يحسدنا الناس لأنّنا موظفون حكوميون؛ يقولون إنّنا نتمتّع بالأمان الوظيفي. لكن دعني أسألك، يا "ماركوسن" Marcussen، ما فائدة أن نكون موظّفين لدى الحكومة ونحن غير قادرين على شراء ضروريات الحياة الباهظة؟ ما فائدة هذه الوظيفة ونحن لا نستطيع تحمّل تكاليف العيش؟ ما إن أحصل على مرتّبي الشهري حتى يتلاشى على الفور. يكاد المال يكون سرابًا".

"إذا كان هناك شخصٌ واحد يعرف معنى ما تقوله، فهو أنا، يا "ثوبيسن" Thobiesen. يختفي المال بين يدينا ونحن ننظر إليه. كلا، لا يمكننا تحمل تكاليف العيش".

"صحيحٌ أنّ موسم "الماكريل" كان جيّدًا هذا العام، لكن الجميع يشتكي من الظروف الراهنة. سمعت أن البنك سيقوم بالحجز على ممتلكات العديد من السكان في البلدة".

"حقًّا؟ من هم؟"

"العديد منهم، يا "ماركوسن"، لا أعرف أسماءهم. سوف لن ينجو من هذه الأزمة سوى القنصل".

"نعم، القنصل. لقد أصبت. لديه استثمارات في كل حدب وصوب. وإذا عانى من بعض المتاعب كل ما عليه فعله هو أخذ بعض الأموال من هذه الاستثمارات. ولا تنس أنّ لديه بعض السفن".

يمشي الحارسان على طول الشارع. فجأةً تمر عربة بالقرب منهما.

"يبدو أنّها في الخارج مجدّدًا".

يقفان ويشاهدان القابلة وهي تعبر الشارع. يقول "ماركوسن": "لنرى إلى أين ستذهب".

"كنت على وشك أن أقول الشيء نفسه"، يجيبه "ثوبيسن".

"لقد انعطفت يسارًا بعد مصباح الفندق، باتجاه شارع "مايرن" Myren. لا بدّ أنّها ذاهبة إلى منزل "أولاڤا ڤولرتسن"".

"تلك العاهرة. لقد تصرفت كالحيوانات، وهي امرأة متزوجة وربة منزل. كيف سيكون موقف "ڤولرتسن"، يا ترى؟".

"دعك من ذلك!".

"ولديها الجرأة على استدعاء القابلة أيضًا. يا لوقاحتها!".

"لا أطيق التحدث عن هذا الموضوع... لقد رحل "ڤولرتسن" منذ عامين ولم يعد بعد...".

فعلًا، ذهبت القابلة إلى منزل "أولاڤا ڤولرتسن"، وبحلول الصباح، كان الخبر قد انتشر في جميع أرجاء البلدة بأكملها. لم يعد بمقدور "أولاڤا" إخفاء حقيقة الأمر. لكنّها امرأةٌ ماكرةٌ دون أدنى شك، فقد تمكّنت من الحفاظ على سرّها طوال هذا الوقت من خلال الانعزال عن الناس!

لكن من هو أب ذلك الطفل؟ سؤال محيّر.

إلّا أنّ "تونيس أولاي" أخبر الجميع بأنّه هو الأب، الأمر الذي أربك سكان البلدة لفترة طويلة جدًّا. لم يستطع أحدٌ فهم هذه القصة: "لنفترض أنّها كانت نزوة جامحة، لنفترض أنّ قلبها قد أضلّها - ففي نهاية المطاف، "أولاڤا" شابة جميلة- لكن هل يعقل أنّها اختارت

"تونيس أولاي"؟ لا بدّ أنّها كانت تعيش لحظات شهوانيّة خالصة أفقدتها صوابها".

اعترف "تونيس أولاي" أنّه حتى هو لم يستطع فهم سبب إعجابها به. لكنه دافع عنها، قائلًا إنّ السيدات المثاليّات مثل "أولاڤا" غالبًا ما يتصرّفن بشكل غريب يصعب فهمه؛ بين الحين والآخر، قد يجدن أنفسهنّ منجذباتٍ إلى أشخاص ينتمون إلى طبقة اجتماعية متدنية. وهذا ما حدث معه. لا شكّ أنّه أمرٌ يستحق التفكير العميق.

لكن حتى بعد تلك الحادثة، استمر "تونيس أولاي" في التجول في أرجاء البلدة بهدوء كما كان يفعل من قبل. واتّضح أنّ ما حصل لم يلحق الضّرر بسمعته. على العكس تمامًا، راح معارفه يقولون إنّه رجل محظوظ وحصان أسود. لم يستبعدوا أيضًا أن يستخدم اسم "يانسن" ويفتتح متجرًا صغيرًا، فهو ذكيّ بما فيه الكفاية، حتّى أنه يشبه التجار فعلًا، ويبدو ثريًّا مثلهم.

***

في أواخر الشتاء، تفاقمت الأمور في البلدة كثيرًا لدرجة أنّ كلّ ما حدث في السابق أصبح لا يُقارن بهذه الكارثة... كارثة إفلاس القنصل.

خلال أحد الاجتماعات في البنك، عبّر الحاضرون عن قلقهم بشأنِ بعض الأسماءِ التي استخدمها القنصل في ضمان قروضه، ولم يكن هذا الاجتماعُ الأوّلَ من نوعه. بعد نقاش مطول وأخذٍ وردّ، اقترح التاجر "بيرغ" أن يرفض البنك تجديد أحد قروض القنصل، على أن يتمّ استبدال الضامن بشخص آخر ذي مكانة اجتماعية

أعلى. لكنّ القنصل شعر بإهانة كبيرة إزاء اقتراح من هذا النوع، مؤكّدًا أنّ الرّجل الذي اختاره ضامنًا لقرضه جديرٌ بالثقة، ولا يحقّ لـ"بيرغ" التشكيكُ في حكمة القنصل. باختصار شديد، تمّ رفضُ اقتراح "بيرغ".

خلال هذه الحادثة البشعة في البنك، كاد القنصل أن ينهار كليًّا. لكنّه تمكن من السيطرة على نفسه والحفاظ على هدوئه أمام الناس، متشبّثًا بآخر آماله، حيث كان ينتظر وصول برقية خاصة من القبطان "ڤولرتسن" (الذي كان يبحر على متن سفينة للقنصل ومعه شحنة من الفواكه)، برقيّةٌ تتعلق بصفقة له مع شركة شحن بحرية في "نيويورك".

"يرغب السيد "بيرغ" أن يكون ضامنُ قرضي ذا مكانة اجتماعية أفضل. لكن، في رأيي المتواضع، إن إدراج هذه الأسماء هو إجراءٌ شكليّ بحت. في الاجتماع القادم، سيكون لي شرفُ سَداد القرض بالكامل".

يمكن القولُ إنّ القنصل تمكّن من توبيخ "بيرغ" بطريقة محترمة.

لكنّه لم يسدّد القرض في الاجتماع التالي. في الواقع، لقد توقف القنصل عن سدادِ أيّ من قروضه. لم تجلب له برقية "ڤولرتسن" الأخبار السعيدة قطٍ، لا بل إنّه لم يفهم محتواها جيّدًا: باختصار، كتب له "ڤولرتسن" قائلًا إنّ بعض الرسائل التي تلقاها من البلدة حملت له أخبارًا مروّعة، وقد غادر سفينته وكان في طريق العودة إلى المنزل.

هنا وجد القنصل نفسه عاجزًا تمامًا.

نهض من كرسيّه، ونفضَ الغبار عن طيّة صدر بدلته، مدركًا أنّ عليه نقل أخباره السيئة إلى السادة الشرفاء في مجلس الإدارة: "لقد تعرّضت لخسائر فادحة، ولم تنجح سفني التجارية في مهامها، ناهيكم عن كساد الأسواق..." لذلك، لم يعد بإمكانه الحفاظ على منصبه. تم إبلاغ الجهات الدائنة التي اقترض المال منها واستقال بموجب هذا من منصبه كرئيس فخري لمجلس إدارة البنك.

انفضّ الاجتماعُ على الفور.

انتشرت هذه الأخبار في جميع أنحاء البلدة، كما لو أنّ قنبلة قد انفجرت في هذا المجتمع الصغير وهزّت أركان كلّ منزل فيه، حتّى أنّ النساء أخذن بالبكاء: لقد بثّ خبرُ إفلاس القنصل الرّعبَ في قلوب الجميع، فقد كان أغنى رجل في البلدة وحجرَ أساسها: من منهم إذن سيخرج سالمًا من هذه الأزمة الاقتصادية؟ لقد كان استبداديًا وطموحًا للغاية لدرجة أنّ الجميع كان يقول إنّ الله وحده هو القادر على الوقوف في وجهه. والآن قد وقف الله في وجهه حقًّا ووجّه له ضربة ساحقة، وسرعان ما اتّضح أن الكثيرين سيُسحقون مثله قريبًا.

لقد كانت المصيبة مهولةً، وقد أصاب وقعُها كلّ شيء في الصّميم، حتى أنّ صوت المطارق في ساحة صناعة السفن قد توقّف. صحيحٌ أنّ التاجر "بيرغ" تمكّن من توظيف مجموعة من العمّال لبناء بعض السفن، لكنّ المطارق لم تعد تعمل بالتناغم والسرعة ذاتها: لقد تغيّر صوتها المعهود كليًا.

أصيبت المدينة بأكملها بالشلل. فقد كان القنصل، في منزله وعمله، يمثلُ روحَ هذا المكان وفخرَه وجماله. أصبح من المثير للشفقة أن يراه الناس يتوقفُ في الشارع عند ملمّع الأحذية ليُخرجَ محفظته شبهَ الفارغة ويعطيه 25 أورة كما كان يفعل في السابق. يا للكوميديا السّوداء في هذا المشهد... يا لسخرية القدر.

لقد سقط الجميع سقوطًا مدويًّا، ولم تكن الشابة "إلسا" في منأًى عن هذه الكارثة. بما أنّ مستقبل البلدة أضحى مبهمًا، أعادت "إلسا" التفكير في عرض الزواج من "ينسن"، موظّف "بيرغ"، مع أنّه لا يستحقّ أن تكون هذه الشابة زوجته. كم كان مشهدًا مؤلمًا أن يتحطّم كبرياؤها وهي تجرجر نفسها في مذبح الكنيسة يوم زفافها منه.

كانت الكنيسة هي المؤسسة الوحيدة التي نجت ممّا أصاب البلدة. وكما جرت العادة، استمرّت زوجة القبطان "أندرسن" في نثر الغبار وراءها على طول الطريق الرملي مرتديةً فستانها الطويل ذا الطراز القديم ذاته، لأنها ما تزال تتمتع بالصحة الكافية، ولديها ما يكفي من المال أيضًا. شيئًا فشيئًا، سطع نجم التاجر "بيرغ" وتصدّر المشهد في البلدة، خصوصًا بعد تولّيه منصب العمدة، كما أصبح مديرًا للبنك. لكنّه لم يصبح قنصلًا، لأنّه من خلفية متواضعة ولا يملك الحنكة والخبرة الكافية التي يتطلّبها هذا المنصب. لقد كان حضوره سيّئًا للغاية لدرجة أنه جعل من نفسه أضحوكةً كلّما خاطب أهل البلدة بصفته الرسمية؛ لم يستطع "بيرغ" إلقاء الخطابات بطلاقة حتّى لو كانت حياته معلّقةً على هذا الأمر. لقد تدرّب كثيرًا على الانحناء أمام الناس وإلقاء التحية عليهم وعلى التعبير

عن نفسه جيّدًا، لكنّ محاولاته باءت بالفشل، ولم يتمكّن يومًا من التحدّث والتصرّف مثل القنصل. على سبيل المثال، كان القنصل يقول: "تسعدني رؤيتك يا عزيزي!" عندما زاره أحد من البلدة، فهو رجلٌ نبيل؛ أمّا "بيرغ"، كان ينحني إلى الأمام مثل الحصان ويتفوّه بعباراتٍ متكلّفة مثل: "طاب يومكم. إنّ التعرّف عليكم هو من دواعي سروري!"

أضِف إلى ذلك أنّ زوجته لم تتأقلم مع مكانتها الاجتماعية الجديدة. لقد كانت جريئةً بشكل أثار استغراب الناس. أصبحت الرسائل التي كانت تتلقاها موجّهةً إلى "مدام "بيرغ""، مما أثار حيرة مدير مكتب البريد، الذي أكّد أنّه لفترة طويلة لم يكن يعرف من هي "مدام "بيرغ"". لكن مع مرور الوقت اعتاد الناس على هذه التطوّرات. أصبح التاجر "بيرغ" رجلًا ثريًا للغاية. ومع مرور السنين، استحوذ على المزيد من الشركات، كما أصبح قنصلًا في نهاية المطاف، وأصبح الجميع ينادي زوجته بمدام "بيرغ". باختصار، شهد الجيل التالي ازدهار البلدة مرة أخرى تحت رعاية السلالة الحاكمة الجديدة.

أما بالنسبة للقنصل -أي القنصل القديم- فقد أنشأ وكالة لبيع سمك "الماكريل" وشركة للتأمين على الحياة؛ جرت هذه التطورات في البلدة ذاتها التي كان يُعامل فيها كالأمير في الماضي! لكنّ الله قد رحمه بعد الذل الذي لحق به، حيث تزوّجت ابنته "كورديليا" Cordelia من رجلٍ غني، وكانت قرّة عين زوجها وأبرز داعمٍ له.

"ريرسن" قبطان نجمة الجنوب

تنزلق نحو الخليج سفينة شراعية قديمة على متنها الأسماك المجففة، تجرّ وراءها زورقًا صغيرًا. اسمها نجمة الجنوب Southern Star، واسم قبطانها "ريرسن" Reiersen. جميع الربابنة في الخليج يعرفون هذا القبطان وسفينته الشراعية، فقد استقرّ هنا منذ زمن طويل جدًا. يعمل "ريرسن" في تجفيف الأسماك في "سالتن" Salten ويبيعها للإسبان الذين أطلقوا عليها اسم "باكالاو" bacalaos.

لم يكن هناك أحد يشاهد "ريرسن" وسفينته على أيّ من التلال المحيطة. باستثناء بضعة أطفال يلعبون على حافة الخليج بجوار القوارب، خلا المكان كلّيًا من الناس. لكنّ الحال كان مختلفًا قبل عشرين عامًا، عندما رست نجمة الجنوب لأول مرة قبالة مناطق تجفيف الأسماك. حينها وقفت النساء والأطفال على كل تلة يبدون إعجابهم بنجمة الجنوب بينما قام الصيّادون واحدًا تلو الآخر بالتجديف نحوها لاستقبال قبطانها وسماع آخر الأخبار منه.

يقف الآن أربعة رجال على سطح السفينة، وقد تولّى "ريرسن" عجلة القيادة، كما يفعل دائمًا في المناسبات المهمة، وكما كان الحال في الأيام الخوالي، ما يزال "ريرسن" يقود سفينته الشراعية

الصغيرة بجدّية كبيرة كما لو كانت قاربًا بخاريًّا كبيرًا. اصطبغ شعره ولحيته باللون الرماديّ، بعد أن كان لونهما أسودَ، قبل عشرين عامًا، حين جاء "ريرسن" في أوج شبابه إلى "سالتن" لأول مرة؛ كما اهترأت سترته، وفقدت سمعته بريقها السابق. لكنّه كان أميرال سفينته، ولم يتوقّف عن الزئير مثل الأسد كلّما أصدر الأوامر لبحّارته:

"أنزلوا المرساة!".

صحيحٌ أنّ قعقعة السلسلة الحديدية تنافست مع صوت هذا الرجل الضخم، لكن الزمن قد تغير فعلًا، وأصبحت البواخر البريدية هي التي تقدم الخدمات لهذا المكان التجاري؛ لم يعد الناس يهتّمون لأمرِ سفنِ الصيد الشراعيّة القديمة. عندما سمع الأطفال الذين كانوا يلعبون بجوار القوارب صوت إنزال المرساة، نظروا في اتجاهها لبضع ثوانٍ ثم تابعوا اللعب، فقد اعتادوا على مشهد "ريرسن" ومركبته الشراعية.

بعد أن انتهى رجال نجمة الجنوب من العمل لهذا اليوم، ذهبوا إلى المضاجع وخلدوا إلى النوم، بينما جلس القبطان على سطح السفينة وتأمّل الخليج. كانت ليلة معتدلة لطيفة، وقد رسمت الشمس خيوطها الذهبية فوق الماء قبيل الغروب. كان "ريرسن" يعرف كلّ الشواطئ الصخريّة في الخليج ويجمعه بكلّ واحد منها العديد من الذكريات. لقد أمضى أسعد أوقات شبابه هنا خلال أشهر الصيف، حين كان يستلقي ويجفّف الأسماك. برز القبطان "ريرسن" في هذه الشواطئ في تلك الأيام، وكان يفعل دائمًا ما يريد ويحصل على كلّ شيء يرغب به. في أيام الأحد، كان يذهب إلى الكنيسة، لأنّها

المكان الذي يتجمّع فيه الناس، وفي طريقه إلى المنزل بعد القداس كان دائمًا يمشي بصحبة الفتيات اليافعات. وكلّما أقام الصيادون الشباب الحفلات الراقصة في ليالي الصيف، جاء "ريرسن" على متن زورقه، واقفًا منتصبًا في المؤخرة بحذائه اللامع، بينما قام الطباخ أو أيّ رجل آخر من طاقمه بتجديف الزورق. كان يرقص مثل الأسد، ودائمًا ما نالت رائحة ملابسه الزرقاء الجميلة استحسان الفتيات. نعم، كان "ريرسن" شابًّا متعدد المواهب، وكان صديق الجميع. أينما حلّ "ريرسن" الشاب، كان يتغلّب على الفتية المحلّيين في جذب الفتيات، لكنهم لم يتسبّبوا بأي مشاكل حول هذا الموضوع، بل كانوا يختبئون خلف الجدران ويبكون بصمت.

أما الآن، فقد أصبح "ريرسن" ربّ منزلٍ ولديه خمسة أطفال في مقاطعة "أوفوتين" Ofoten.

***

البحر هادئ، كمرآة فارغة، وقد حلّ الليل. لكن ما يزال الربان "ريرسن" جالسًا مكانه يفكّر في الأيام الخوالي، وفي الفتيات الفاتنات اللواتي حظي بصحبتهنّ! لقد كنّ أجمل نساء الخليج كله! تذكّر السنة الأولى التي جاء فيها إلى هذا المكان، حين التقى بفتاة في السادسة عشر من العمر تقريبًا، ذات شعر داكن وعينين سوداويتين. تذكّر كيف قضى كلّ ساعة من النهار والليل بصحبة تلك الشابة اللطيفة، مع أنّ الكثير من الناس كانوا يعتقدون أنّ على كل واحدٍ منهما أن يمضي في حال سبيله. لكن عندما اقترب موعد مغادرته، انتهت علاقتهما، وكفّ "ريرسن" عن الرقص معها. ثمّ

التقى بصيادة في مكان بعيدٍ عن الخليج قليلًا. كان لديها غمازات كبيرة وأسنان بيضاء، واسمها "إلين هيلينه" Ellen Helene.

"آه... يا حسرتي على "إلين هيلينه""، قال "ريرسن" في نفسه.

استمرّت علاقتهما سنة كاملة، مع أنّ معظم علاقات "ريرسن" كانت تنتهي خلال وقت وجيز، ولهذا السبب قال الناس حينها إنّ "إلين هيلينه" قد سيطرت على "ريرسن" وإنّه سيتزوّجها لا محالة. ضحك "ريرسن" كثيرًا حين سمع تلك الإشاعة، مع أنّه كان يدلّعها بـ "حبيبتي الحلوة" على مسامع جميع الناس، ممّا أفسد خطوبة "إلين هيلينه" من الحدّاد.

في العام التالي، جاء إلى مناطق تجفيف الأسماك، حيث كان لديه كوخ صغير فيه الكثير من البضائع، مثل الدقيق والقهوة والأوشحة الصوفية والكتان، والخواتم والقفازات باهظة الثمن. كان يعتبر ذلك الكوخ بمثابة متجرٍ خاص بنجمة الجنوب. يتذكر "ريرسن" تلك الأيام بدقة، حيث ازدادت عظمته فيها أكثر فأكثر. تكفّل حينها بسداد إيجار مناطق التجفيف، كما أعطى الفتيات العاملات في تجفيف الأسماك أجورهنّ على شكل بضائع بدلًا من المال، وأهداهنّ الكثير من الأوشحة ودبابيس الزينة المرصّعة بأحجار برّاقة. لم تمانع "إلين هيلينه" ذلك، إذ لم يكن الجدال مع "ريرسن" أمرًا مجديًا.

لكن رغم تساهلها الكبير معه، لم تستطع "إلين هيلينه" تجنّب مصيرها المحتم، حيث تغلّبت عليها الشابة اللّعوب "ياكوبين" Jacobine في التعامل مع أسماك "ريرسن" وكانت سعيدةً جدًّا في

عملها. فهل يعقل أن تكون "إلين هيلينه" الفتاة الوحيدة التي يمكن أن يحظى بها "ريرسن" قبطان نجمة الجنوب؟ ذلك الخريف، عندما حان وقت شحن الأسماك، كانت "ياكوبين" تعمل وحدها في غرفة التعبئة، فجلب لها القبطان مشروبًا باردًا، وعندما غادرت السفينة الشراعية أمَرَ رجلين من رجاله باصطحابها إلى الشاطئ على متن الزورق. حينها انفصل "ريرسن" عن "إلين هيلينه" بشكل كامل، الأمر الذي أغضب والدها، "ينس أولسن" Jens Olsen، واصفًا القبطان العظيم بالمخادع، ومهدّدًا إيّاه بقبضته الكبيرة وهو يسأله الكثير من الأسئلة الوقحة.

لكنّ "ريرسن" كان خصمًا عنيدًا في تلك الأيام، ولم يسمح لأحدٍ أن يهدّده بهذه الطريقة، فراح يلوّح بقبضته أيضًا وهو يقول: "إذا كنت تعتقد أنّك قادرٌ على المساس بي، يا عزيزي "ينس أولسن"، فسوف يلقنّك "ريرسن" قبطان نجمة الجنوب درسًا لن تنساه. يبدو أنّك تجهل حقيقة الرجل الذي تحاول الاقتراب منه".

لكن حتى "ياكوبين" اللّعوب عجزت عن الظفر بقلب القبطان "ريرسن" متقلّب المزاج. في ليلة هادئة مثل هذه الليلة، كان "ريرسن" يمشي ذهابًا وإيابًا على سطح سفينته، عندما سمع صوت قارب آتٍ من بعيد تقوده فتاة معها سلة من البيض.

نادى عليها "ريرسن": "اقتربي إلى هنا، يا صغيرتي".

"أنا لست "حبيبتك الحلوة"، بالمناسبة." أجابته الفتاة من القارب.

"أعرف من أنت"، قال "ريرسن". "هل بحوزتك البيض على متن قاربك؟".

يقترب القارب أكثر.

أجابته الفتاة: "نعم، إذا كنت تريد البيض، فلا أمانع أن أعطيك القليل منه".

لم يقل "ريرسن" شيئًا، ثمّ ركب في زورقه واتجه نحو قارب الفتاة.

ما أن أصبح بقربها قال لها: "أنا "ريرسن". لا بدّ أنّك تعرفين من أنا".

ثمّ أخذ المجاديف منها وجدّف القارب إلى المرفأ. لم يكن هناك أحدٌ وسط الليل اللطيف المَليء بالأسرار.

"حسنًا، فلنرسُ بالقارب الآن"، قال "ريرسن" بمجرد أن وصلا إلى الشاطئ.

فأجابت الفتاة:

"أنت لطيف جدًّا".

في الحقيقة، كان "ريرسن" قد جدّف بها إلى المرفأ لغاية أخرى في نفسه. آه، كم كان "ريرسن" الشاب خبيثًا. أمّا تلك الفتاة، فقد كانت بلهاء وساذجة، ولم تخف مطلقًا من تواجدها مع "ريرسن" في الظلام عند المرفأ.

عندما افترقا قالت له:

"كيف ستعود إلى متن سفينتك؟".

"سباحةً"، أجاب "ريرسن".

عندما بدأ في السباحة، قالت له الفتاة: "اسمي "بولين" Pauline..."

لكن يا للحسرة... لقد ولّى عهد صديقاته: الأولى أصبحت في عداد الموتى، والثانية سافرت إلى أمريكا، والأخرى تزوجت. أصبحت كلّ تلك العلاقات وغيرها عبارةً عن مجموعةٍ من الذكريات فحسب. تعيش "بولين" اليوم على الخليج، وما تزال عزباء كما كانت من قبل؛ لكنّها تعرَضت لحادثة مؤسفة فقدت في إثرها إحدى عينيها. حصل ذلك قبل عامين، وبسبب تلك الحادثة أصبحت "بولين" امرأةً متديّنة لا يهمّها أيّ شيء سوى الحياة الروحية.

هكذا إذن انتهى عالم "ريرسن" الشاب، بزوجة وخمسة أطفال في "أوفوتين".

دقّت الساعة الواحدة. بعد قليل، سوف تستيقظ جميع الطيور البحرية. تثاءب "ريرسن" بصوتٍ عالٍ ونظر الى السماء. "حسنًا، من الأفضل أن أخلد إلى النوم". لقد أصبح قبطان نجمة الجنوب مسنًّا ومهترئًا بعد أن أنهكته السنين. في الصباح الباكر، ستبدأ عملية تنظيف أسماكه، أي سوف يكون على متن سفينته نساءٌ ورجالٌ يرتدون الأحذية البحرية والمعاطف الشمعية، وشابّات لهن أجسادٌ منمّشة وضحكات جميلة؛ جميعهم أناس بسطاء حقيقيون، وكان "ريرسن" يعرف كلّ واحدٍ منهم.

وسط الصمت المطبق، ألقى رجل العائلة الأشيب نظرةً على انعكاس وجهه في غطاء البوصلة الزجاجي قبل أن ينسلّ إلى مقصورته ذات الرائحة الكريهة، ثم استلقى على فراشه وخلد إلى النوم.

***

أتت قوارب العمال في الصباح الباكر، بينما كان "ريرسن" يتبختر كالسيّد على سطح سفينته جيئة وذهابًا، مرتديًا أفضل ملابسه، وتدلّت من صدره ساعة فاخرة ذات سلسلة مصنوعة من الشعر. هل كان القبطان بحاجة إلى عمال تنظيف الأسماك؟ نعم، كان بحاجة إليهم بكلّ تأكيد. حاول القبطان الاتفاق معهم على تكلفة التنظيف وتحديد بعض الشروط، لكن الصيّادين اعتادوا على المماحكة مع "ريرسن" -ويا لها من عادة فظّة- وطالبوه بستة شلنات إضافةً للمبلغ الذي عرضه عليهم. نعم، كانوا يساومونه بكل وقاحة؛ لم يعد أحد يحترم "ريرسن" قبطان نجمة الجنوب، فقد تغيّر الزمن، وانقضى عصره الذهبي. في هذه الأيام، أصبح المجد في أيدي ربابنة البواخر البريدية ذوي المراتب المرموقة.

قدّم "ريرسن" للعمال الويسكي والمعجّنات التي اشتراها من السوق سابقًا، فشربوا وشكروه على حسن ضيافته. ثم قام بقرص الفتيات ممازحًا، فدفعنه وهنّ يضحكن سخريةً منه، ونظرن بوقاحة إلى مقصورته من خلال فتحة السقف وتصرّفن كما يحلو لهن. "حسنًا، هل غيرت رأيك؟ هل ستعطينا الشلنات الست الإضافية؟"

شعر القبطان بالإهانة الشديدة ورفض طلبهم على الفور، ثم مشى باتجاه مؤخرة السفينة، ووقف في مكانه المعتاد، أي بجانب دفة

القيادة، حيث يكون هو الآمر الناهي. اعتقد "ريرسن" أنّ كلّ شيء سيجري كما في الأيام الخوالي. "اسمعوا! هل تريدون أن تحظوا بوظيفة تنظيف الأسماك؟" نظر إليه الصيادون في دهشة من أمرهم وقالوا "طبعًا". "نعم!" قال "ريرسن" "ولن أدفع لكم أيّ مبلغ إضافي. هيّا! ابدؤوا في عدّ الأسماك. هيا بنا!".

لكنّ القبطان كان مخطئًا: فقد ولّت الأيام الخوالي، ولم تسر الأمور كما كان يريد. رفض الصيادون عرضه وعادوا إلى قواربهم، وعندما ابتعدوا عن نجمة الجنوب وهم في طريقهم إلى العودة، وجد "ريرسن" نفسه مجبرًا على أن يستسلم لطلبهم: "حسناً، كما تشاؤون. سأعطيكم الشلنات الست. من قال إنّي آبه لأمر المال!" فعاد الصيادون مرة أخرى وفتح "ريرسن" العنبر الرئيسي في نجمة الجنوب حيث كانت الأسماك مخزّنة في المحلول الملحي. استغرق تنظيفها أيّامًا عديدة، والعمل على مدار الساعة. لم يتوقّف الصيادون عن العمل سوى لتناول الطعام والنوم. كانت مناطق التجفيف تعجّ بهم: بعضهم ينظّف الأسماك، والبعضُ الآخر ينقلها على الألواح الخشبية بينما قام آخرون بمدّها فوق الصخور المستديرة كي تجفّ تحت أشعة الشمس. مع مرور الأيّام، أُفرغت نجمة الجنوب من حمولتها بالكامل وطفت على الماء مجدّدًا بعد أن قاموا بغسلها بشكل جيّد.

في هذه الأيام، أصبحت حياة "ريرسن" حياةً خاملة. كان يوظّف العمّال لكشط طلاء سفينته القديم وطليها مجدّدًا من أعلى إلى أسفل، بينما تجوّل هو على طول الشاطئ، واضعًا يديه في جيوب بنطاله،

وتحدّث إلى عمال التجفيف ومازح الفتيات. لكنّه تجنّب "بولين"، التي أصبحت في سنّ الأربعين تقريبًا، وانطلاقًا من معتقداتها الدينية لم تتكلّم كثيرًا مع سائر الناس؛ لكن كلّما تعارض سلوك "ريرسن" أمام الفتيات مع قناعتها الروحية، نظرت إليه بعينها الوحيدة نظرةً توبيخية، ولم تقل له أيّ شيء، كعادتها. استمرّ "ريرسن" في التودّد إلى الفتيات لأسابيع، لكنّه فشل في تحقيق مبتغاه مع أيّ منهنّ. لقد تقدّم في السنّ كثيرًا، وأصبح فتية الخليج هم أسياد الموقف. كلّما حاول التقرّب من الفتيات، عبّرن بكل صراحة عن عدم اهتمامهنّ به.

لكنّ لـ"ريرسن" رأيٌ آخر: بالنسبة له، لم يكن لِتقدّمه في السنّ أثرٌ سلبيّ على نشاطه، فهو ما يزال القبطانَ "ريرسن" ذاتَه الذي لطالما عرفه الجميع. لقد أبحر على متن نجمة الجنوب من السّاحل إلى السّاحل، من المحيط إلى الخليج، دون أن يُحدث أيَّ ثقبٍ فيها؛ لقد اشتغل في شراء الأسماك وتجفيفها، وسدّد جميع الفواتير المترتّبة عليه، مهما بلغ حجمُها، واحتفظ بسجلٍ يوثّق كلّ فواتيره بدقّة متناهية، حتّى أنّ الشيطان نفسَه لا يسعُه أن يفهم كيف استطاع "ريرسن" فعل كلّ ذلك. لكن للأسف، لم يعد أحدٌ يكنّ للقبطان الاحترامَ الواجب.

"نظّف المقصورة بعناية!" قال "ريرسن" للطبّاخ. ثمّ ذهب إلى الشاطئ وأخبر العمال والصيّادين أنّه بحاجةٍ إلى فتاتين لكي تقوما ببعض الإصلاحات على متن سفينته، بما في ذلك ترقيعُ علم نجمة الجنوب المهترئ قليلًا. كانت هذه خطّة أراد تنفيذها منذ عدة أيّام.

لكن لم تبدِ أيٌّ من الفتيات استعدادها للصعود على متن سفينته، وتقطّعت به السّبلُ مرة أخرى. كرّر محاولته على امتداد يومين دون أن ينجح. أخيرًا، سمع صوت امرأة تقول: "بإمكاني أن أمدّ لك يد العون إذا أردتَ ذلك". كان هذا صوت "بولين". لقد أشفقت عليه في نهاية المطاف.

فكر "ريرسن" في الأمر لحظة بينما نظرت إليه "بولين" بعينها الوحيدة. قال في نفسه "ما الفائدة من اختيار "بولين"؟ ماذا يمكنها أن تقدّم لي؟" لكنّه اختارها فعلًا. "شكرًا لك، يا "بولين"". وصعد الاثنان إلى القارب وعادا إلى السفينة. أمّا الفتيات اللواتي بقين على الشاطئ فرحن يضحكن بصوتٍ منخفض.

لكنّ "ريرسن" كان صادقًا مع نفسه، ويعلم أنّه عندما نزل إلى الشاطئ بحثًا عن الفتيات لم يكن ينوي أن يجلب إلى مقصورته امرأةً متديّنة مملّة؛ بل كان يريد أن يحْيي ريعان شبابِه مع الفتيات الضّحوكات والويسكي والمعجّنات. ماذا عساه أن يفعل الآن؟

فتح "ريرسن" الخزائن والصناديق وأخرج علم السفينة من بين ملابسه القديمة المهترئة، لتمسك به "بولين" وتشرع بإصلاحه، دون أن تتحدّث إلى "ريرسن" على الإطلاق.

بعد بضع لحظات، صبّ لها مشروبًا باردًا، فشربته في صمت وتابعت عملها.

"أتعلمين، يا "بولين"" قال "ريرسن" مستجديًا رضاها، "لقد أصبحتِ في أحسن حالٍ بعد أن أصلحت علاقتك مع الخالق".

فأجابت: "نعم، أعتقد ذلك. لقد حان الوقت لكي تصلح علاقتك معه أنت أيضًا".

"قد لا أكون بعيدًا عنه في هذه الأيّام كما كنت في السابق".

"هل هذا صحيح؟" سألته "بولين".

"نعم، أشعر أنّ حياتي تحسنت قليلًا في الآونة الأخيرة".

"الحمد لله على ذلك".

لكنّها لم تكتف بهذا الرد، فما إن ذكر "ريرسن" حياتها الدينية حتى انطلق لسانها كالسيدات العجائز في الحديث عن الدين. حقيقةً، شعر "ريرسن" بالندم لأنّه أثار هذا الموضوع. لقد أصابه بالملل، وسرعان ما فرغ من الأسباب التي جعلته في رأيه أقرب إلى الله مما كان عليه من قبل، ثم قال: "كان مجرّد شعورٍ اعتراني".

فتوسّلت "بولين" قائلةً: "افتح قلبك له. أرجوك. افتح قلبك له".

قدّم لها "ريرسن" المزيد من الشراب والمعجّنات ثمّ قال:

"لقد ضحكت الفتيات على الشاطئ بعد أن صعدنا سويًّا على متن القارب. لكن يمكنك الآن إخبارهنّ بأنّني اعتنيت بك كثيرًا في سفينتي".

لكنّه كلّما حاول الحديث عن الأمور الدنيوية، تابعت "بولين" الخياطة بشكل أسرع من أي وقت مضى وتجاهلت محاولاته. لم يجرؤ على تذكيرها بالأيام الجميلة التي عاشاها معًا قبل عشرين عامًا؛ كان على وشك أن يتكلّم عن تلك الأيّام الخوالي لكنه لم يتفوّه بحرفٍ واحد.

مع مرور الوقت، ازداد شعورُه بالملل أكثرَ فأكثر. بعد عدة ساعاتٍ، انتهت "بولين" من ترقيع العلم. لكن "ريرسن" لم يستمتع بوقته نهائيًا.

"حسنًا، لقد عملتِ بما فيه الكفاية لهذا اليوم"، قال "ريرسن" بعد أن ضاق ذرعًا بها. وضع ملابسه القديمة في الصناديق والخزائن مرة أخرى ثمّ أعاد "بولين" إلى الشاطئ.

كانت قد أفسدت يومه وقضت على خطّته بالكامل.

***

اقترب فصل الخريف. بعد أسبوعين من لقائه بـ"بولين"، كانت الأسماك قد جفّت ووَجب تحميلُها على متن السفينة مرة أخرى من أجل تعبئتها، واختار "ريرسن" صباحًا دافئًا من أجل هذه المهمّة. بعد أن أتخم الصيادون قواربهم الكبيرة بالأسماك، جدّفوا بها إلى نجمة الجنوب.

تقول إحدى العادات القديمة إنّ تعبئة الأسماك هي مهمّة تقع على عاتق أربع فتيات. لكن من هنّ الفتيات اللواتي سيتم اختيارهنّ هذا العام؟ فقد رفض جميعهنّ هذه الوظيفة. المسؤول عن اختيار الفتيات هو رئيسُ العمال، "إندري بولدن" Endre Polden؛ لم يتدخّل القبطان "ريرسن" في مهمّته بتاتًا، لكنّ وقاحة الفتيات هذه أغضبته كثيرًا، وراح يعضّ على شفته بمرارة. مرة أخرى، أشفقت عليه "بولين" وقالت إنها مستعدة لتعبئة الأسماك شريطة أن تنضّم إليها ثلاثة فتيات أخريات. منزعجًا من هذا الموقف، أدار "ريرسن" ظهره وصعد بخطوات سريعة على متن سفينته.

نزل إلى مقصورته وراح يشرب الويسكي بلا توقّف. ماذا عساه أن يفعل في ظل هذه الظروف؟ لقد طفح الكيل! "حسنًا، سوف لن أبحر بنجمة الجنوب إلى هذا المكان القذر بعد هذا العام. هناك العديد من مناطق تجفيف الأسماك في "سالتن". يعتقدون أنّني أصبحت مسنًّا؟ لا بأس. سوف نرى حقيقة ذلك قريبًا. بصحّتكم!".

شرب "ريرسن" عدّة كؤوس من الويسكي لكي يستعيد نشاطه. بعد نصف ساعة، تحسّن مزاجه كثيرًا لدرجة أنّه صار بإمكانه جَلْدُ أيّ موظف مرموق على متن قوارب البريد. فجأةً سمع أصوات خطوات على سطح السفينة. شرب كأسًا آخر ثمّ خرج من مقصورته متسائلًا إن كانت تلك الأصوات صادرة من غرفة التعبئة.

نظر إلى أسفل، وإذ به يرى أربع فتيات هناك يعملن بجد. اتّضح له أنّ "إندري بولدن" قد استخدم سلطته كرئيس للعمال أخيرًا وأجبر هؤلاء الفتيات على الصعود على متن السفينة. "ممتاز!" والآن، أراد "ريرسن" أن يفعل شيئًا حيال تصرّف الفتيات سابقًا. "فليراقب الجميع ما سأفعله! سوف ألقّنهن درسًا!" ثمّ سمع صدى ضحكات الفتيات وثرثرتهن يملأ السفينة الفارغة. قال في نفسه: "تابعن عملكّن! إيّاكن أن تتوقّفن" طبعًا، كانت "بولين" صامتة كعادتها.

تقول عادةٌ راسخة أخرى إنّه بعد تحميل الأسماك على متن السفينة، يجب أن يقدم "ريرسن" المشروب للعاملات في غرفة التعبئة. لكنّه اتّخذ قرارًا حازمًا بأن يخالف العادة هذه المرة.

صاح "ريرسن": ""بولين"! أود أن أتحدث إليك في مقصورتي".

صعدت "بولين" من غرفة التعبئة وذهبت إلى مقصورة القبطان.

"أنت الوحيدة التي لم ترفض الصعود على متن السفينة، ولا بدّ أن أحسن ضيافتك".

فأجابت: "لا داعي لأن تتكبّد أيّ عناء".

لكنّه كان مصرًّا. "أيها الطباخ! أشعل النار واصنع لنا بعض القهوة!" ثمّ قدّم "ريرسن" "البراندي" والمعجنات لـ"بولين"؛ شعرت كأنّها ضيف في وليمة كبيرة.

"أخبري الفتيات عندما تعودين إلى غرفة التعبئة أنّني أحسنت استقبالك".

شرب الاثنان وحظيا بوقت جيد. ربّت "ريرسن" على كتف "بولين"، فوقفت وقالت إنّ عليها متابعة العمل.

"امكثي قليلًا. دعينا نجلس هنا لبعض الوقت. هذه هي المرة الأخيرة التي آتي فيها إلى هنا لتجفيف أسماكي".

"لا بدّ أنّك تمزح".

فأومأ "ريرسن" برأسه وقال:

"بل هي آخر مرة".

خفق قلب "بولين" متأثّرًا بهذا الخبر. حنت رأسها وسألته:

"متى ستغادر إذن؟".

"عندما تنتهي تعبئة الأسماك. ليلة الغد أو الليلة التي تليها".

جلست مرة أخرى.

"كان الله في عونك!"

"لنشرب نخب ذلك." قال "ريرسن". أراد أن يتجنب المحادثات الدينيّة بأي ثمن، فسألها مباشرة: "متى ستتزوجين، يا "بولين""؟"

حدّقت به مباشرة من دون أن يطرف لها جفن وقالت:

"هل تسخر مني؟".

"أسخر منك؟ ما الذي جعلك تعتقدين هذا؟"

"ومن سيتزوّج بامرأةٍ مثلي بعين واحدة فقط؟"

شخر "ريرسن" ثمّ أجاب:

"ولم لا؟ إنه مجرد تشوه بسيط".

شعرت "بولين" بالامتنان العميق له على هذه الكلمات. كانت تعرف أنه على حق. صحيحٌ أنّها فقدت عينها، لكنها ما تزال امرأةً كاملة. كلّ ما في الأمر أنّ الحظ لم يحالفها، فقد قام طفلٌ ما بغرز عينها بإبرة الحياكة. وهكذا مرت السنوات دون أيّ معينٍ إلا الله. تبكي "بولين" من حين لآخر على فقدان تلك العين. لكنّها امرأة صلبة، وما تزال تتمتّع بصحة جيدة.

ملأ "ريرسن" كأسي الشراب مرّة أخرى ثم مدّ يده ليعطيها كأسها، فرفضت. لكنّه أصرّ: "هذه هي آخر رحلة لي إلى هذا المكان؛ لن أعود إليه مجدّدًا. الإنسان الوحيد الذي لطالما وقف بجانبي هو أنتِ، ولن أنسى ذلك ما حييت". تأثّر كلاهما بكلامه كثيرًا. أمسك "ريرسن" بيدها بينما جلست هي بصمت وحزمٍ مثل حصان صغير. فجأة، وضع ذراعه حول رقبتها وقال:

"هل تذكرين تلك الليلة عند مرفأ القوارب؟ قبل عشرين عامًا؟"،

"نعم"، أجابت بصوت منخفض مختنق. ما تزال ذراعه حول رقبتها ولم تقاومها بعد. ثم تابعت: "أفكر فيك دائمًا وأسال الله أن يغفر لي خطيئتي".

حاول التودّد إليها أكثر وهو يقول في نفسه: "سنرى الآن من منّا الذي أوهنته السنين!".

"ماذا تخال نفسك فاعلًا!" قالت "بولين" في دهشة ممّا حاول فعله. "ماذا دهاك! هل فقدت عقلك؟ أنت رجل متزوّج!" لكنّ توبيخها لم يجدِ نفعًا، فما كان بها إلّا أن ضربته على رأسه بقبضتها الكبيرة، فسقط على الأرض وتدحرج نحو الحائط الأصفر. "لو كنت أعرف أنّ هذا ما كنت تنوي فعله لما وطأت قدمي مقصورتك قط!" قالت "بولين" وقد استشاطت غضبًا. "والله لم يسبق لي وأن رأيت شيئًا مثل هذا! أنت رجلٌ متزوّج!".

خرجت من مقصورته وتوجّهت إلى غرفة تعبئة الأسماك مجدّدًا. لقد تحطّمت الصورة المثالية التي كانت قد شكّلتها عن "ريرسن". أصبحت تعرف أيّ نوع من الرجال هو. لن تفكر فيه بعد اليوم؛ لن تتذكّر شعره الأسود الطويل عندما كان شابًّا. فهو لا يحترم نفسه، ولا يحترم الله. كيف له أن يذكّرها بتلك الليلة عند مرفأ القوارب قبل عشرين عامًا! كان الأمر مختلفًا تمامًا حينئذ، ولم يكن أيٌّ منهما متزوّجًا.

لكن من الآن فصاعدًا، انتهى أمر القبطان "ريرسن": لن تقبل به أي امرأة بعد اليوم، حتّى هذه الساحرة الشمطاء ذات العين الواحدة التي بلغ عمرها 40 عامًا. نعم، كان في غابر الزمان شابًّا يستطيع أن يحظى بأي فتاة في الخليج؛ لكنّه أصبح مسنًّا كهلًا وقد أدركه الزمن.

قد ينتهي به الأمر مثلها في نهاية المطاف؛ ربّما سيستشعر جدّية تقدّمه في السن ويخاف من الله قليلًا. لا بدّ أن يلجأ إلى الله عندما تتداعى حياته وتفشل محاولاته. بعد أن استيقظ "ريرسن"، تذكّر بعض أفكاره وقال لنفسه: "يومًا بعد يوم، أصبحت شخصًا أفضل. عليّ أن آخذ خطوات صغيرة وأمضي قدمًا في هذا الطريق. قد تكون "بولين" على حق. لقد حان الوقت لكي أصبح مثلها".

عندما جاء "إندري بولدن" على متن السفينة في ذلك المساء وأبلغ "ريرسن" أن عملية التحميل والتعبئة ستنتهي بحلول بعد ظهر الغد، أجابه القبطان بجدية:

"سبّحوا الرب".

مكتبة
t.me/soramnqraa

فنظر إليه "إندري بولدن" مستغربًا وسأله:

"متى ستبحر؟"

أجاب القبطان "ليلة الغد، إن شاء الله". مرة أخرى، استغرب "إندري بولدن" من ردّ القبطان.

وشاء الله أن غادر "ريرسن" كما هو مخطّط له، وأبحر بعيدًا عن الخليج. ضجّ ذهنه بآلاف الأفكار. كان يعرف كل جزيرة صغيرة في هذا المكان؛ تجمعه بها الكثير من المغامرات والذكريات. لكن يا للحسرة، كان ذلك في ريعان شبابه. لقد انتهى كلّ شيء الآن.

وقف "ريرسن" بجانب دفة القيادة، ونظر إلى انعكاس وجهه في غطاء البوصلة الزجاجي. فجأةً، وقف منتصبًا مثل الأدميرال وقال في نفسه:

"سأذهب إلى مكان آخر في العام المقبل. لا زلتُ شابًّا. لم يدركني العمر بعد، ولتحلّ اللعنة عليّ لو حصل ذلك".

جزيرة الرجل الأزرق

يوجد العديد من الجزر المأهولة بالسكان في مناطق الصيد، من بينها جزيرة صغيرة تسمى "جزيرة الرجل الأزرق" Blue Man's Island، وهي موطن لحوالي مئة شخص، لكنّ الجزيرة المجاورة -"جزيرة الكنيسة" Church Island- أكبر منها، ويبلغ عدد سكانها ثلاثمئة أو أربعمئة نسمة، بما في ذلك الكاهن والعمدة. في السنوات التي تلت طفولتي، أصبحت جزيرة الكنيسة مزوّدةً بخدمة البريد والتلغراف.

يعمل كل الناس هنا، على امتداد أميال، في صيد الأسماك. كلما التقى سكان الجزر المختلفة ببعضهم بعضًا، أجمعوا على أنّ الانتماء إلى الجزيرة الأكبر كان أمرًا مرموقًا، حتى أنّ سكان جزيرة الكنيسة لم يكنّوا أيّ احترام لسكان اليابسة، مع أنّ سكان اليابسة هم الذين يشكّلون الغالبية العظمى من البلاد.

جزيرة الرجل الأزرق نائيةٌ جدًّا لدرجة أنّ مياه المحيط الأطلسي بأكملها تصل إلى شواطئها، وترتفع تلالها بشكلٍ حادٍّ جدًّا عن مستوى البحر لدرجة أنّ تسلّقها من ثلاث جهات (الشمال والشرق والغرب) أمرٌ محال؛ أمّا في الجنوب، حيث تسطع الشمس بوضوحٍ في منتصف النهار، فقد قام رجال الجزيرة -بعون الله- بصنع طريقٍ

مكوّن من مئتي درجة على طول المنحدرات. كل عاصفة تنزل بالجزيرة تجلب معها أغصان الأشجار والألواح الخشبية وحطام السفن والقوارب، فيصنع منها الصيادون قواربهم؛ يحملون الخشب إلى قمة التلة من الجهة الجنوبية، ويبنون القوارب بجوار منازلهم، ثم ينتظرون الشتاء، حين تصبح المنحدرات على الجانب الشمالي مغطّاة بالجليد الزَّلْق، ثمّ يُنزلون قواربهم أسفل هذا المنحدر الجليدي إلى البحر مباشرة. رأيت كيف يفعلون ذلك عندما كنت صغيرًا: يقف رجلان في الأعلى ويمسكان بالحبال المربوطة بالقوارب، بينما يجلس رجل آخر في القارب ليحول دون انحرافه عن المسار أو توقّفه. كانت عملية شجاعة وحذرة جدًّا، تخلّلتها التعليمات والتحذيرات من البداية حتى النهاية. عندما يصل القارب أخيرًا إلى سطح الماء، يصيح الرجل الجالس في القارب لرفاقه في الأعلى مؤكّدًا لهم أنَه أصبح في الأسفل. كان ذلك بمثابة الإعلان عن أخبار عظيمة: لقد نجحت عملية الإطلاق نجاحًا باهرًا.

كان الرجل الذي يمتلك أكبر منزل في جزيرة الرجل الأزرق صانع قوارب مسنّ يدعى "يواكيم" Joachim، وقد عُرف عن هذا الرجل بأنّه يثق بالناس بسهولة. كانت رقصة عيد الميلاد تقام في غرفة الاستقبال بمنزله كل عام، حيث تكفي المساحة لاحتواء ستة أزواج راقصة تقريبًا في وقت واحد. موسيقى الكمان حاضرةٌ دائمًا في هذه الرقصات، وبجانب عازف الكمان يجلس رجل موسيقيّ بارع اسمه "ديدريك"، يهزج ويدندن ويضبط الإيقاع بقدميه بضربات مدروسة، بينما يرقص الفتيان مرتدين القمصان.

عادة ما يمشي فتًى يافع بين الضيوف أثناء الرقص، كمضيف للحفل. كان هذا "مارسيليوس" Marcelius، الابن الأصغر لصانع القوارب، وقد حذا حذو والده في صناعتها أيضًا. يحظى باحترام كبير بسبب حرفيّته وذكائه، وتعرفه كلّ فتاة في هذه الجزيرة وفي جزيرة الكنيسة أيضًا. لكنّ بالنسبة لـ"مارسيليوس"، لم يكن مهتّمًا إلّا بـ"فريدريكه" Fredrikke ابنة المعلم، مع أنّها كانت راقيةً وفصيحةً وجميلةً جدًّا لدرجة أنّها لا يمكن أن تقبل بشخص مثله. كان منزل المعلم كبيرًا أيضًا، لكنّه ليس مجرّد صياد بسيط، بل الشخص الأكثر أهمية في الجزيرة، لذلك كانت هناك ستائر مسدلةً على نوافذ منزله. اعتاد الناس أن ينقروا على بابه بأصابعهم قبل الدخول.

لكنّ حُبَّ "مارسيليوس" كان حقيقيًّا وأعمى، فقد زار منزل المعلم العام الماضي وكرر الزيارة هذا العام أيضًا. ذهب إلى باب المطبخ وقال: "مساء الخير. هل يمكنني التحدث إليك قليلًا، يا "فريدريكه"؟"

"ماذا تريد؟" تجيبه الفتاة، مع أنّها تعرف ما يريده تمام المعرفة.

"هل ستفعلين ما طلبته منك؟".

"كلا"، تقول "فريدريكه"، "لا أستطيع. كفّ عن التفكير بي، يا "مارسيليوس". ولا أريد أن أراك بقربي مجدّدًا".

"بكلّ تأكيد، أعلم أن المعلّم الجديد يحاول الظفر بك"، يجيب "مارسيليوس". "يا ترى، هل ستحقّق لك تصرفاتك الراقية وأساليبك المنمّقة مبتغاك؟".

كان ذلك صحيحًا، فالمعلم الجديد - "سيمون رَست" Simon Rust - يحاول الظفر بقلب "فريدريكه". أتى "سيمون" من جزيرة الكنيسة وقد تخرّج من المدرسة اللاهوتية. يعمل والده في الصيد مثل أي شخص آخر، لكنه كان غنيًا ورجلًا بارزًا، ودائمًا ما تجد سمك القد وسمك الفحم معلّقًا في غرفة الأسماك الخاصة به، أمّا في غرفة المؤن فتجد الزبدة ولحم الخنزير والأسماك المجففة. عندما انتهى ابنه من دراسة اللاهوت وعاد للمنزل، كان أنيقًا مثل ابن الكاهن المتخرّج حديثًا، بسوالف طويلة ومنديل في جيبه، كما كان دائمًا يربط أنشوطة مطاطية بقبعته لتتدلى إلى أسفل، ظنًّا منه أنّها ستمنحه مظهرًا مرموقًا. ضحك الناس سخريةً منه بسبب ذلك المنديل في جيبه، حتى أنّ بعضهم قال: "يا له من رجل حريص، حتّى أنّه صار يحتفظ بالسوائل التي تخرج من أنفه".

يتابع "مارسيليوس": "لقد طلب منا "سيمون رَست" أن نصنع له قاربًا جديدًا. أدعو الله أن يكون هذا القارب مصدر سعادة له".

"ماذا تقصد بذلك؟" تسأل "فريدريكه".

"ماذا عساني أن أقول؟ يريد طلاء حوافّه العلويّة باللون الأخضر... حسنًا، سأطليها باللون الأخضر، لكنّه أطلق اسمًا على القارب، وطلب منّا أن نكتبه عليه أيضًا. لن نفعل ذلك طبعًا. سيتعين عليه أن يكتبه بنفسه".

"يريد أن يطلق اسمًا على قاربه؟"

"إنّه ضربٌ من الجنون. ليس في قاربه غرفة قيادة حتّى، إنه مجرد قارب عادي بأربعة مجاديف ... لذا ربّما يجب عليك إعادة النظر

في هذا الرجل؛ ما رأيك أن تعاملي شخصًا مثلي على قدم المساواة وتتزوّجي مني، يا "فريدريكه"؟"

"كلّا. لا أستطيع. ألا تفهم؟ لقد ظفر بقلبي".

"ظفر بقلبك؟ أكاد لا أصدّق ما أسمعه"، قال "مارسيليوس" وغادر منزل المعلم. قبل عيد الميلاد ببضعة أيام، جاء "سيمون رَست" إلى جزيرة الرجل الأزرق لكي يكتب ذلك الاسم على قاربه الجديد. مكث في منزل المعلم القديم، وطوال فترة إقامته هناك كانت "فريدريكه" ترتدي ثوب يوم الأحد وشريطًا من حرير المورايه حول عنقها. أخيرًا، كتب "سيمون" الاسم على القارب، وكان قد اختار كلمة لاتينيّة منمّقة، لكن ما من أحد في هذه الجزيرة يتكلّم اللاتينية، لذا لم يستطع أحدٌ قراءة الاسم.

في الليلة السابقة لعشية عيد الميلاد، ذهب "مارسيليوس" إلى منزل المعلم وطلب أن يتحدّث قليلًا إلى "سيمون رَست". كانت ليلةً داكنة ومليئةً بالنجوم.

"لقد جفّ الطلاء"، قال "مارسيليوس".

"إذن سننزل القارب إلى سطح المياه غدًا"، أجاب "سيمون رَست".

تابع "مارسيليوس":

"هل صحيح أنك خطيب "فريدريكه"؟"

"هذا ليس من شأنك"، قال "سيمون".

"حسنًا، كما تشاء. لكن إذا أخبرتني بحقيقة خطوبتك من "فريدريكه"، يمكنك الحصول على القارب بالمجّان".

فكر "سيمون" قليلًا. كان حريصًا جدًّا على أمواله مثل والده تمامًا. ثمّ نادى على "فريدريكه" وسألها:

"هل أنت خطيبتي؟"

"نعم"، قالت "فريدريكه"، مؤكدة أنّه ظفر بحبّها.

في تلك الليلة التي اكتظّت سماؤها بالنجوم، بدا وكأنّ عينيْ "فريدريكه" تلمعان من شدة الفرح بعد أن قالت ما قالته.

في طريقه إلى المنزل، شعر "مارسيليوس" بالندم على إعطاء "سيمون" القارب مقابل لا شيء. كيف له أن يهدر المال بهذه الطريقة؟ "على أيّ حال، سأكون في القارب أثناء إنزاله وسأحرص على تحطيمه قبل أن يصبح في الأسفل".

تجول "مارسيليوس" بين المنازل، تحت شفق الشمال وبريق النجوم، ولم يتوقف في أي مكان. ثم سار إلى أن وصل إلى الجانب الشمالي من الجزيرة حيث كان قد نصب حباله وبكراته استعدادًا لإنزال القارب الجديد إلى الماء. جلس هناك بينما تلاطمت أمواج المحيط الأطلسي وضربت الصخور في الأسفل.

هناك وسط المحيط، برزت سفينة شراعية فيها مصباحان صغيران، ثمّ ظهر في الأفق البعيد مصباحان آخران على متن باخرة هائلة سوداء اللون تشقّ طريقها شرقًا. قال "مارسيليوس" في نفسه عندما رآها: "أتمنى لو كان بإمكاني الإبحار بعيدًا على متن سفينة كهذه. قد يكون هذا الخيار الأفضل بالنسبة لي". فهو يعلم أنّه خسر

"فريدريكه"، وسيجد صعوبةً كبيرةً في العيش على هذه الجزيرة بعد أن تغادرها محبوبته. "يا الله، أتوسّل إليك: اعتنِ بها وساعدها على الدوام! واغفر لي ما دار في ذهني عن تحطيم قارب "سيمون". إنّها فكرة لئيمة." ثمّ قرر أن يفعل كل ما في وسعه لمنع القارب من الارتطام بالصخور في طريقه إلى الأسفل، فهو يريد أن يكون رجلًا نزيهًا.

نهض "مارسيليوس" وكان على وشك العودة إلى المنزل عندما سمع نداء أحدهم. أنصت للصوت، ثمّ رأى جسدًا يقترب منه.

""فريدريكه"، هل هذا أنت؟".

"نعم. أردت التأكد من أنك لن تؤذي نفسك، يا "مارسيليوس"".

"لقد خرجتُ بهدف المشي فحسب"، أجاب "مارسيليوس". فأمسكت بذراعه وتابعت:

"حقيقةً، لا داعي لأن تأخذ ما جرى على محمل الجد. على أي حال، أنا لم أحزم أمري بعد".

"هل أنت جادة؟"

"نعم! لا آبه لما قد يحصل"، قالت بجدّية. "حتّى أنه أساء معاملتي منذ قليل. أعتقد أنّك أفضل من "سيمون". كما أنّه يحاول التنصّل من زواجنا: "لننتظرْ وسوف نرى ما سيحدث". هذا ما قاله لي صباح هذا اليوم".

لم يقل "مارسيليوس" أي شيء، ثم مشى الاثنان.

ظلّت "فريدريكه" مرفوعة الرأس على الرغم من حزنها، ثم قالت فجأة:

"لا تعطه القارب بالمجّان".

"نعم، نعم. أنت محقّة"، أجاب "مارسيليوس".

عند مفترق الطرق، وضعت يدها في يده وقالت:

"من الأفضل أن أعود إلى المنزل وإلّا غضب مني. أعتقد أنّه رآني ويعرف إلى أين ذهبت".

تمنّى لها "ليلة سعيدة"، وبادلته الأمنية ذاتها، ثم مضى كلٌّ في سبيله.

في اليوم التالي، غابت الرياح وكان البحر هادئًا. قبل بزوغ الفجر بعدّة ساعات، وضع "يواكيم" العجوز وابنيه القاربَ الجديد في موقعه المخصّص على الجانب الشمالي من الجزيرة. ساعدهم في ذلك عدّة رجالٍ لئلّا يتضرر القارب الجديد الجيد أثناء نقله. والآن، أصبح القارب الأنيق على أهبة الاستعداد.

في تلك الأثناء، أقنع المعلّم المسنّ* زميله "سيمون رست" بتأجيل عودته إلى جزيرة الكنيسة إلى ما بعد وجبة الغداء، وعندما حان وقت مغادرته، كان واضحًا أنّ الخلاف الذي دار بين الخطيبين يوم أمس ما زال يعكر صفو علاقتهما، لا بل إنّهما لم يمشيا على مقربةً من بعضهما بعضًا في الطريق، كما أنّ قلب "فريدريكه" - بدل أنّ يكون قد شغِف بحبّ "سيمون" - كان مليئًا بالشك. عندما وصل الثلاثة إلى مكان إنزال القارب، كان "يواكيم" ورجاله قد تجمعوا هناك لتوّهم. رفع الجميع رؤوسهم ونظروا إلى معلّمي المدرسة و"فريدريكه".

* أي والد فريدريكه. (المترجم).

"كلّ شيء جاهز؟" سأل "سيمون".

يجيب "يواكيم": "كل شيء جاهز، نعم، آمل ذلك".

فجأةً -مدفوعةً بشكوكها المؤلمة- قالت "فريدريكه" بصوت عالٍ:

"كن حذرًا، يا "مارسيليوس". ألا يستطيع شخص آخر الصعود على متن القارب بدلًا منك اليوم؟"

سمعها جميع الحاضرين.

ثم قال "يواكيم"، والد "سيمون": "لا تقلقي، إنه بارعٌ في عمله".

"يا لبشاعة هذا القارب وهذا الاسم المطليّ عليه".

"على العكس، إنه اسم ممتاز"، قال والدها بصوتٍ متسامح. "لا يمكنك فهم هذه الأمور، يا "فريدريكه"".

ثم قال "سيمون رست" دون مقدّمات: "سأصعد أنا على متن القارب".

حاول الجميع إقناعه بالعدول عن ذلك، لكنّه جلس في القارب وانتهى الأمر. توسّلوا إليه لعدّة دقائق لكي يغيّر رأيه، فقال لهم بكل فخر:

"لا بدّ أن تنعم "فريدريكه" براحة البال".

"حسنًا، لكن اربط نفسك بالحبل، من باب الاطمئنان فحسب"، قال "يواكيم"، وأعطاه حبلًا.

شعر "سيمون" بالاستفزاز، فصاح قائلًا: "هيّا! فلتبدأ عملية الإنزال".

ويشرع الرجال في إنزال القارب. أمسك "سيمون" أنشوطته المرنة المتدلية من قبعته وربط نهايتها بأحد أزرار قميصه.

صاح "يواكيم" مناديًا على "سيمون" الذي أجابه بدوره، لكنّهما لم يستطيعا رؤية بعضها بعضًا. أصبح "سيمون" واثقًا جدًّا من نفسه لدرجة أنّ ردوده على "يواكيم" صارت أقصر فأقصر مع مرور الثواني؛ فقد كانت هذه مهمة سهلة ولا داعي لأن يثير "يواكيم" كل هذه الجلبة بشأنها، ثمّ صمت كلّيًا. كان "مارسيليوس" واقفًا بمفرده غير مشارك في عملية الإنزال.

"لا بدّ أنّه تجاوز منتصف الطريق"، يقول "يواكيم". "أعتقد أنّه رجلٌ حقيقي وأهلٌ لهذه المهمّة".

ثم سمعوا صيحة من الأسفل، لكن لم يفهم أحد منهم ما قاله لهم، فبدلًا من أن يقول: "توقّفوا قليلًا" و"حسنًا لقد وصلت إلى الأسفل" -كما جرت العادة- صاح "سيمون": "هيييه! هيييه!" ثم شدّ الحبال بقوة. هناك على قمة التلة، اعتقد الرجال أنّه أشار إليهم أن يرفعوه إلى أعلى قليلًا، فقام "يواكيم" ورجاله بسحب الحبال. فجأةً، سُمعتْ صرخةٌ حادّةٌ مدويّةٌ من الأسفل، ثم اصطدم القارب بالصخور، مصدرًا صوتًا قويًا وكأنّ الجزيرة بأكملها كانت تسعل.

شحبت جميع الوجوه بينما ارتخت الحبال قليلًا. وسط الصياح والأسئلة صرخ "يواكيم": "أنزلوه!"، ثم قال بعد ثوانٍ قليلة: "اسحبوه!" لكنّ الجميع يعلم أنّه لا فائدة من هذه الإجراءات، فقد أصبح القارب فارغًا وسقط "سيمون" في البحر.

دقّت أجراس الكنيسة معلنةً حلول عيد الميلاد، وطغت على المشهد أعلى التل. تساءل الجميع في أنفسهم: كيف سيكون حال العيد هذا العام؟

لكن "فريدريكه" لم تفقد صوابها. أمسكت بـ"مارسيليوس" وقالت: "فليسامحني الله، لكنّني أشعر بالسعادة لأنّك لم تصعد على متن القارب. ما الذي تنتظرونه؟ ألن تسرعوا إلى الجانب الجنوبي وتحضروا قاربًا لكي تبحثوا عنه؟".

أدرك الجميع أنها كانت على حق، وركض الرجال إلى الجانب الآخر من الجزيرة، باستثناء "يواكيم"، صانع القوارب العجوز، فقد قرر أن يبقى مكانه.

***

"لا أستطيع الوقوف هنا والتمسّك بالقارب إلى الأبد"، قال "يواكيم" في نفسه. "هل أسحبه مرة أخرى؟... لكن الرجال ليسوا هنا لكي يمدّوا لي يد العون... هل أتركه يسقط في البحر؟" فكّر مليًّا في الأمر، ثم قرّر إفلات الحبل.

الغريب في الأمر أنّ الحبل ارتخى كليًّا بين يديه خلال أقل من نصف دقيقة. كان القارب قد وصل إلى البحر بالفعل.

لم يستطع "يواكيم" فهم ذلك. قام بسحبه مرة أخرى بمقدار قامةٍ* واحدة، ثمّ أرخى الحبل مجدّدًا، فوصل القارب إلى البحر مرة ثانية. شعر "يواكيم" بسعادة كبيرة ونظر حوله بحثًا عن شخص ما ليزفّ له

* وحدة قياس خاصة بأعماق المياه تعادل 1.83 متر. (المترجم).

الخبر. بما أنّ القارب على بعد بضع قامات فقط فوق سطح البحر، فلا يمكن أن يكون قد سَحَقَ "سيمون رست". لكنّ السؤال الذي فرض نفسه: هل غرق "سيمون"؟

"أسرعوا، يا شباب!" صاح "يواكيم" مخاطبًا الرجال في الجانب الجنوبي. "قد يكون على ما يرام!".

ما زال "يواكيم" يمسك بالحبل. فجأةً شعر أنّ أحدهم قد شدّه قليلًا، كما لو أنّ شخصًا ما قد سيطر على القارب في الأسفل. "أعتقد أنّ التيارات التحتيّة تحرّك القارب"، قال في نفسه ثم صاح:

"هل أنت بخير؟"

لم يلق "يواكيم" أيّ رد. الصوت الوحيد الذي سمعه كان أنين المحيط الأطلسي.

إلا أنّه أصرّ على الإمساك بالحبل. كان بإمكانه إفلاته وانتظار ما سيحصل دون أيّ عناء، لكنّه شعر أنّ ادّخار قوته في لحظة كهذه لم يكن واردًا. هناك، أمام عينيه، رجلٌ عظيم متعلّمٌ ذو بصيرة عميقة قد يصبح في عداد الموتى. هكذا تَطْمِسُ قيمة الحياة جميعَ الأمور البديهية.

مرّت ربع ساعة. كانت الريح تهبّ في اتجاه جزيرة الكنيسة، فسافرت دقّات الأجراس من تلك الجزيرة إلى أذن "يواكيم"، مما زاد من غموض وخطورة الحالة التي كان يعيشها، ثم سمع أصوات الرجال الذين جاؤوا للبحث عن "سيمون". كان أولاده يجدّفون القارب، فعرف أنّهما سيصلان قريبًا إلى مكان الحادث. حبس "يواكيم" أنفاسه وأنصت.

"ها هو!" قال "مارسيليوس".

انحنى "يواكيم" ناظرًا إلى أسفل الهاوية وقال: "هل وجدتموه؟"

بعد بضع ثوانٍ، شعر أنّ الحبل لم يعد مربوطًا بالقارب، فانحنى مجدّدًا وصاح:

"هل هو على قيد الحياة؟"

"نعم إنّه على قيد الحياة!" أجاب "مارسيليوس". "يمكنك سحب الحبل الآن".

"الحمد لله على ذلك!" تمتم "يواكيم" وهو يسحب الحبل إلى أعلى. ثمّ وضع حفنةً من التبغ في فمه وشق طريقه إلى مرسى القوارب على الجانب الجنوبي. بينما كان "يواكيم" يمشي، أخذ يفكّر مليًّا بما حصل مع "سيمون رست". لقد نجى من الموت بأعجوبة. "إنّ "سيمون" رجلٌ ذكيّ ومحتالٌ بارع: ربما قلب القارب عمدًا ثم قفز في البحر قبل أن يرسو ببضعة قامات. يا للعار!"

وصل إلى الشاطئ والتقى بالمعلم وابنته عند المرسى وقال:

"لقد نجى".

"نجى؟" قالت "فريدريكه". "هل أنت جاد؟"

"نعم. لقد نجى".

"الحمد لله على ذلك"، قال المعلم وقد غمرته السعادة. لكن "فريدريكه" حافظت على هدوئها واستغرقت في التفكير.

عندما وصل قارب الإنقاذ إلى المرسى، كان "سيمون رست" - مبلّلًا بالكامل، مرتجفًا من البرد- يجدّف بكلّ ما أوتي من قوة.

"هل تأذّيت؟" سألته "فريدريكه". "أين هي قبعتك؟"

"لم نعثر عليها"، قال "مارسيليوس".

"حسنًا، إذن سوف يستعير قبّعتك ريثما يشترى قبّعةً جديدة"، قالت "فريدريكه". من الواضح أنّها أظهرت اهتمامها بأمر "سيمون".

"لا أعتقد أنّه سيقبل بذلك"، أجاب "مارسيليوس".

"نعم. لقد أصبت. سامحني، لكنّني لا يمكن أن أرتدي قبّعتك"، قال "سيمون" بنبرةٍ فخورة جدًّا، على الرغم من أنه كان يرتعد من البرد.

سأل المعلم المسنّ زميله "سيمون" عن الحادث، وقصّ "سيمون" عليه ما جرى. بالنسبة لـ"يواكيم"، كلّما تحدّث هذان الاثنان، كانت لغتهما نادرةً وبليغة. أوضح "سيمون رست" أنّه تعلم السباحة في المدرسة اللاهوتية، ولذلك نجى من الغرق، لكنّه شعر بعذاب يشبه عذاب "تانتالوس"* Tantalus قبل وصول قارب الإنقاذ بقليل. ثمّ أكّد "سيمون" أنّه سيروي قصته للناس بأكملها تمامًا كما حدثت، لئلّا يكون هناك تضارب في الروايات لاحقًا.

"أود أن أعرف حقيقةَ شيء واحد"، قال مخاطبًا "فريدريكه". "كيف كانت ردة فعلك عندما انقلب القارب؟".

---

* في الميثولوجيا الإغريقية، تانتالوس هو ملك سيبلوس Sipylus الذي حاول تقديم ابنه كوليمة للآلهة، فأرسله زيوس إلى العالم السفلي حاكمًا عليه بالعطش والجوع الأبديين كعقاب له. (المترجم).

"ردّة فعلي؟" أجابت "فريدريكه".

"ما هو أول شيء قلته؟"

سرعان ما استعادت "فريدريكه" رباطة جأشها.

"كنتُ أوّل من حثّ الرجال على الإسراع من أجل إنقاذك".

قال "سيمون": "جيّد جدًا".

ظلّ "مارسيليوس" صامتًا في هذه الأثناء: لقد ظفر "سيمون" رست بقلب "فريدريكه" مرة أخرى.

"لنعد إلى المنزل على الفور لكي ترتدي بدلة جافة"، قال المعلم المسنّ. "إنّ نجاتك من هذه الكارثة معجزة إلهية".

تعاون الجميع على سحب القاربيْن إلى الشاطئ، وتعامل "مارسيليوس" مع الاثنين على حدٍّ سواء، واضعًا الأوتاد تحت قارب "سيمون" بالإضافة إلى قاربه لئلّا تقلبهما الرياح. ثمّ عاد "مارسيليوس" حزينًا إلى المنزل تاركًا الآخرين وراءه.

في المساء، قامت "فريدريكه" بزيارةٍ إلى المنزل المجاور، لكنها لم تذهب لرؤية "مارسيليوس". كان واقفًا على عتبة باب منزله ليراقبها، وعندما اقتربت قال لها:

"مساء الخير. أرى أنّك ذاهبةٌ للمشي تحت شفق الشمال".

فأجابت: "كلّا. هناك مهمّة يجب أن أؤدّيها. ما رأيك في المعجزة التي حصلت اليوم؟".

"إنّ ما حصل اليوم لا يمتّ للمعجزات بأيّ صلة".

"كيف لك أن تقول هذا؟ إذا انقلب القارب فوقك، هل ستتمكن من إنقاذ نفسك بنفسك؟".

"لم يحصل أيّ شيء من هذا القبيل، ولم يقع "سيمون" من القارب، بل قفز متعمّدًا قبل أن يصل إلى الأسفل ببضع قامات. هكذا قال والدي".

"حقًّا؟ هكذا قال والدك إذن؟ أوليس القفز من القارب بهذا الشكل آخر ما يمكن أن يفكّر به المرء؟"

لم يقل "مارسيليوس" شيئًا.

فتابعت "فريدريكه": "لستَ متعلّمًا مثله، ولا يمكنك العزف على الأرغن، كما أنّك لا تستطيع السباحة مثله".

"إذن سوف تتزوّجان في نهاية المطاف. هل هذا ما تقصدينه؟" قال "مارسيليوس".

فأجابت: "لا أستطيع التنبّؤ بالمستقبل، لكن يبدو أنّ هذا ما سيحصل".

قال "مارسيليوس" بحرقة:

"لا يهمني. يمكنكما الحصول على القارب بالمجّان، كما قلت سابقًا".

فكّرت "فريدريكه" قليلًا، ثم أجابت:

"حسنًا، إذا تزوّجنا فعلًا، سنأخذ القارب بالمجّان، كما تريد. ولكن إذا قرر الانفصال عني، فمن المحتمل أن نتزوّج أنا وأنت وعندها سنطلب منه دفع ثمن القارب".

لم يظهر "مارسيليوس" أيّ ردّة فعل تدلّ على شعوره بالمفاجأة. ثم سألها: "متى سأحصل على الجواب النهائي؟"

فأجابت فريدريكه: "سيعود إلى منزله غدًا، لذا لا بد أن يخبرني بقراره قبل أن يغادر. لا يمكنني أن أسأله بشكل مباشر، كما تعلم".

لكن، في الواقع، كان على "مارسيليوس" الانتظار لعدّة أشهر قبل أن يعرف الجواب.

عاد "سيمون رست" إلى منزله للاحتفال بعيد الميلاد، ولم يتوصل إلى أيّ اتفاق مع "فريدريكه" قبل مغادرته. هناك في جزيرة الكنيسة، طلب "سيمون" الزواج من عدّة فتيات، وبحكم ثروة والده، جميعهن قلن له: "نعم". لكنّه لم يلزم نفسه بأيّ منهن، وبقي رجلًا حرًّا. أخيرًا، طلب الزواج من المربية في منزل القساوسة، لكنها رفضته رفضًا قاطعًا، فقد كانت سيدة حقيقيّةً ولا يمكن أن ترضى بشخص مثله.

علمت "فريدريكه" بكلّ هذه التطورات وغضبت كثيرًا.

في ليلة عيد الغطاس*، كانت هناك حفلة راقصة في منزل "يواكيم" صانع القوارب، كما جرت العادة في السنوات السابقة، ولعب "مارسيليوس" دور المضيف أيضًا. كان لاعب الكمان موجودًا، إضافةً إلى "ديدريك" البارع في الدندنة والهزيج وضبط الإيقاع. كان فتية الجزيرة قد دعوا الفتيات إلى الحفل، ووعدت "فريدريكه" "مارسيليوس" بأنها ستأتي أيضًا.

---

* إحياء ذكرى تعميد المسيح في نهر الأردن. (المترجم).

في أحد الأيام، جاء قارب ذو أربعة مجاديف إلى الجزيرة. كان قد أرسله الصياد "رَست" - والد "سيمون"- برسالةٍ مفادها أنّ ابنه قد دعا "فريدريكه" إلى حفل راقص في جزيرة الكنيسة سيقام ذلك المساء.

استعدّت "فريدريكه" للذهاب إلى الحفل على الفور وارتدت أفضل ثوبٍ لديها.

جاء "مارسيليوس" إلى منزلها وقال لها: "حسنًا، لا بدّ أنّك ستتّخذين قرارك اليوم؟"

"نعم، أصبح بمقدوري اتخاذ القرار الآن"، أجابت "فريدريكه".

جلست "فريدريكه" في القارب طوال الطريق وبدت أنها كانت تعرف بالضبط ما ستفعله.

كان "رَست" الأب، الصياد العظيم، في انتظارها عندما وصلت إلى جزيرة الكنيسة. في المساء، عندما بدأ الحفل الراقص، نالت "فريدريكه" إعجاب جميع الفتية في الجزيرة. أما بالنسبة لـ"سيمون"، فراح يلهو كالمعتاد، مغازلًا هذه ومتودّدًا إلى تلك، لكي يجعل "فريدريكه" في حيرةٍ من أمرها.

طوال ذلك المساء، قدّم الصياد "رَست" القهوة والمشروبات للضيوف وكان سخيًّا جدًّا. أمضى معظم الوقت جالسًا في حجرةٍ مقنطرةٍ مع العديد من الصيادين المسنّين الآخرين. تناول "سيمون رست" كأسين من الشراب بصحبة الصيادين لئلّا يعتقدوا أنّه كان يترفّع على الاختلاط بهم، لكنّه لم يرقص مع أيٍّ مع بنات الصيادين، فهو رجل متعلّم ومدرّسٌ معروف.

بعد منتصف الليل، غادر الجميع، وبقيت "فريدريكه" مع "سيمون" لأنّها ستقضي الليلة في منزل عائلته. لكنّ "سيمون"، حتى هذه اللحظة، كان مجافيًا لها بشكل واضح، كما في السابق، وإذا اعتقدتْ أنّ وكزاته اللطيفة في وركها كانت دليلًا على حبّه الأبدي لها فهي فتاةٌ غبية.

كانت "فريدريكه" واقفةً أمام باب المنزل. "وقفت هنا لكي تنخفض حرارة جسدي قليلًا".

فقال لها "سيمون": "لا أنصحك بذلك. قد يكون له عواقب لا تحمد على صحتك".

"لماذا تُرك باب الحظيرة مفتوحًا؟"، قالت "فريدريكه" وهي تشير إلى الحظيرة، "الله أعلم".

لم يعرف "سيمون" السبب أيضًا.

ثم قالت فريدريك: "دعنا نغلقه".

ألقت نظرةً داخل الحظيرة ثم تابعت:

"لنرَ كمّية العلف التي لديكم". دلف الاثنان إلى الداخل.

قال "سيمون": "لدينا تبن في القبو وفي العلّية أيضًا هناك".

"أين؟"

نزل "سيمون" إلى القبو لكي يريها التبن، وتبعته "فريدريكه".

***

انقضت الأشهر، وحافظت "فريدريكه" على الوعد الصغير الذي قطعته على "مارسيليوس"، فظلّ متفائلًا بأنّها قد تكون زوجته في نهاية المطاف، وانتظرها بفارغ الصبر. لكن بحلول مارس، حزمت "فريدريكه" أمرها وقالت ل"مارسيليوس" بأنّها لن تتزوّجه. لقد انتهى كلّ شيء: "سيمون" هو الذي سيظفر بها.

"حسنًا، حسنًأ". قال لها "مارسيليوس"، يمكنهما الحصول على القارب بالمجان الآن، فهو لا يكترث بالمال قط. لم يتحّدث عن القارب بعد ذلك اليوم. خلال الأشهر الماضية، كان "مارسيليوس" قد هيّا نفسه لتلقّي صدمة كهذه، وتابع عمله بشكل طبيعي طوال فصل الربيع. لكنّ مزاجه تغيّر كثيرًا وبات يقضي الكثير من الوقت بمفرده.

أصبحت الأيام طويلة، وذاب الثلج في أشعة الشمس والطقس المعتدل. سرعان ما توقّف الناس عن إنزال القوارب فوق النهر الجليدي في شمال الجزيرة. كان صُنّاع القوارب عاطلين عن العمل لبضعة أسابيع، ولكن بمجرد أن انتهت عواصف الربيع وهدأ المحيط الأطلسي مرة أخرى، بدأوا بصيد الأسماك مجدّدًا في المياه المحلية حول الجزيرة. في إحدى رحلات الصيد هذه، كسب "مارسيليوس" وشقيقه الكثير من المال بعد أن أنقذا سفينةً شراعيّةً فقدت صاريتها وكانت تائهةً في البحر بلا طاقم*.

مما لا شكّ فيه أنّ سمعة "مارسيليوس" توطّدت كثيرًا في الجزيرة بعد ذلك، وبما أنه كان يذهب يوميًا للاعتناء بالسفينة المحطّمة

---

* انظر الحاشية صفحة 271 (قصة: الحياة في بلدة صغيرة). (المترجم).

-التي تم وضعها في مرسى القوارب- أصبح مثل القبطان لهذه السفينة المهجورة. بعث له مالكو السفينة الدنماركيّون ببرقيةٍ ودفعوا له مبلغًا كبيرًا من المال لم يعتدْ عليه أهلُ جزيرة الرّجل الأزرق. أثار الأمرُ ضجّة كبيرة، وأصبح الناس يقولون إن "مارسيليوس" صانعَ القوارب سيتحوّل إلى تاجر ويطلق على نفسه اسم "يواكيمسن" Joachimson* . في أحد الأيام، زار "مارسيليوس" "فريدريكه" وقال لها: "يبدو أنّك ستتزوّجين "سيمون" فعلًا، أليس كذلك؟"

"نعم. سأتزوّجه".

ثم رافقته إلى منزله وهي تحيك قطعة من الثياب أثناء سيرهما.

"لو لم تتبدّل الأحوال لكنت طلبت منك الذهاب إلى جزيرة الكنيسة وإحضار "سيمون" إلى هنا من أجلي. لكنّك أصبحت رجلًا مهمًّا الآن، يا "مارسيليوس"".

فأجاب "مارسيليوس":

"سأريك أنّني لم أتغيّر قط. ما زلت كما عهدتِني من قبل"، ثم ركب قاربه وذهب لكي يحضر "سيمون".

مكث هذا الأخير بضعة ساعات ثم عاد إلى منزله. مرة أخرى، سأل "مارسيليوس" "فريدريكه" وقد أعماه الحبّ:

"هل ما زلتما واثقين تمامًا من رغبتكما؟"

---

* كما في الإنكليزية، معنى كلمة son هو "ابن" في السويدية والنرويجية والدنماركية. إضافة لاحقة son إلى الأسماء هو تقليد شائع وقديم جدًّا في اللغات الإسكندنافية. Joachimson يعني حرفيا "ابن يواكيم"، أي أنه قد يطلق على نفسه هذا الاسم تقديرًا لوالده.(المترجم).

فأجابت: "نعم. ولا بدّ أن يتم زواجنا في أقرب وقت ممكن".

"إذن ليس هناك جدوى من إلحاحي".

"أنت تعرف كيف يفكّر القلب"، قالت "فريدريكه". "ما أحببت أحدًا في حياتي بقدر ما أحبّه".

التزم "مارسيليوس" الصمت بعد أن سمع ما سمعه. بالنسبة له، كان كلامها أشبه بالقصص الخيالية التي نجدها في الكتب. دعاها لتناول القهوة، لكنها رفضت قائلةً إنّها لا تريد أن يتكبّد أي متاعب من أجلها. عندما كانت "فريدريكه" على وشك المغادرة تذكّرت القارب.

"أعتقد انّك لا تريد أي شيء مقابل القارب، أليس كذلك؟ بما أنّك أصبحت غنيًا. لكن قال لي "سيمون" أن أسألك على أيّ حال".

"كلا، لا يعنيني ثمن القارب بشيء. لدي ما يكفي من المال والشهرة، والحمد لله على ذلك. متى ستعلنون عن الزواج؟"

"في غضون أسبوعين".

"هل فكرتِ في خراف الجزيرة هذا العام؟" سألها "مارسيليوس"، فأجابت:

"سأنتظر أسبوعين قبل أن أقرر. لا يزال الوقت مبكّرًا جدًا، ولم تذب كلّ الثلوج بعد".

"حسنًا. أردت الاستفسار فحسب".

كانت خراف الجزيرة خرافًا أيسلندية ذات فراء خشن ثخين، وقد تم نقلُها إلى جزيرةٍ صغيرة لكي تعيش فيها على مدار السنة. وفي

كلّ عام، عندما يعتدل الطقس في فصل الربيع، يقوم سكان جزيرة الرجل الأزرق بقصّ فرائها.

بعد مرور أسبوعين، تم الإعلان عن عقد قران "فريدريكه" و"سيمون رست" في جزيرة الكنيسة. لقد انتظر الناس ذلك الإعلان مطوّلًا: وأخيرًا، تزوّج هذان الاثنان. في المساء ذاته، زارت "فريدريكه" منزل "يواكيم" صانع القوارب وكان مزاجها جيّدًا.

"حظًّا سعيدًا وبارك الله لكم!" قالت زوجة صانع القوارب، "سمعت القسيس يقول اسمك من على المنبر اليوم".

"هل أنت متأكدة؟" قالت "فريدريكه" ممازحةً.

"حظًّا سعيدًا وبارك الله لكم!" قال "مارسيليوس" أيضًا. "هل فكّرتِ في خراف الجزيرة بعد؟"

ضحكت "فريدريكه" وأجابت:

"أنت في عجلة من أمرك بشأن خراف الجزيرة هذا العام. ما خطبك؟ لقد تحدّثت عنها في وقت مبكر من شهر مايو أيضًا".

فأجاب: "إنّه سؤالٌ بسيط. أردت الاستفسار فحسب".

قالت "فريدريكه": "في الواقع، إنّ سبب مجيئي إلى هنا اليوم هو أنّني أردت إخبارك بأنه يمكنك اختيار شخص ما للذهاب معك إلى جزيرة الخراف غدًا".

فسأل بسرعة:

"ماذا تقصدين بـ"اختيار شخص ما للذهاب معي"؟ هل يعني هذا أنّك لا تريدين تكبّد العناء هذا العام؟".

في الواقع، لم ترغب "فريدريكه" في الذهاب إلى جزيرة الخراف هذا الربيع. لكنّ أسئلة "مارسيليوس" الماكر أحرجتها قليلًا. فأجابت:

"لا أريد تكبّد العناء؟ هلّا أخبرتني ماذا تقصد بذلك؟"

ثم تابعت قائلةً إنّها ليست تلك الفتاة التي تلزم سريرها في كل مرة تعاني فيها من غثيان الصباح، ولن يختلف شيء هذا العام. سوف تذهب إلى جزيرة الخراف وتساعد البقية في قص الفراء.

بمجرد أن سمعها "مارسيليوس" تتحدّث بهذا الشكل، خرج ولم يعد حتى غادرت.

ذهب إلى ساحة صناعة القوارب حيث كانت هناك حفرة مجوّفةٌ طويلة تلعب دور المِزلقة، ممهّدةٌ بالأخشاب لجميع أنواع القوارب، الصغيرة والمتوسطة والضخمة. رتّب "مارسيليوس" المكان ونظّف الأرضية. بما أنّ الفصل كان ربيعًا، ظلّ ضوء النهار واضحًا حتى بعد الحادية عشرة ليلًا. مشى إلى المرسى. كان قاربه ذو المجاذيف الأربعة راقدًا هناك على الأوتاد، كما لو كان ينظر إليه. لم يرجع "مارسيليوس" إلى المنزل حتى منتصف الليل.

ظلّ مرتديًا ملابسه وجلس على جانب السرير. كان شقيقه الأكبر نائمًا. مشى "مارسيليوس" إلى النافذة ونظر إلى الخارج لفترة طويلة. "حسنًا... حسنًا... حسنًا"، غمغم بصوت منخفض، "يا الله، يا الله". ثم عاد إلى السرير واستلقى بكامل ملابسه، ملتفًا على نفسه، آخذًا وضعية الجنين. لكنّه لم ينم طوال الليل. بمجرد أن سمع والدته تشعل النار في الطابق السفلي، نهض من الفراش وأيقظ شقيقه ونزل. كانت الساعة الرابعة صباحًا.

"ما سبب استيقاظك باكرًا؟"، قالت والدته.

فأجاب: "أفكر في خراف الجزيرة. إذا أردنا جردها جميعها اليوم، فلا بدّ أن نشرع في العمل بأسرع وقت".

استعدّ الإخوة والأم للذهاب، ثم ساروا إلى منزل المعلّم وانتظروا "فريدريكه" في الخارج. عندما خرجت "فريدريكه" كان معها الخادمة فحسب.

صعد الخمسة على متن القارب وقام الأَخَوَانِ بالتجديف بقوة وثبات، بينما تحدثت النساء معًا. أشرقت الشمس، وبرزت أمامهم جزيرة الأغنام بهدوئها وثقلها في البحر. رأى قطيع الخراف القارب قادمًا من مسافة بعيدة، فتوقّف عن المضغ ووقف في مكانه كما لو كان مندهشًا وهو يحدّق في ركاب القارب. لئلّا تخاف تلك المخلوقات الضعيفة، حاول الجميع عدم إصدار الكثير من الضوضاء في القارب.

لكنّ هذا القطيع كان قد نسي أنّ قاربًا مماثلًا زاره في العام السابق، فبدا الأمر وكأنّه لم يرَ هذا المشهد من قبل قط. انتظر وصول القارب دون أن يفعل أفراده أيّ شيء، واكتفى كلّ خروفٍ منهم بالتحديق بنظرات مشدوهة. لكن بمجرد أنّ رسى القارب، ارتعش تيس كبير أشعث مخصيّ ونظر بسرعة إلى سائر الخراف، ثم نظر إلى القارب مرة أخرى. فجأةً، عندما وقف الركاب الخمسة في القارب، شعر التيس أنّهم يمثّلون خطرًا استثنائيًّا عليه، فاستدار وركض بسرعة كبيرة إلى داخل الجزيرة، وتبعته جميع الخراف الأخرى.

"لن يكون الإمساك بهذه الخراف سهلًا هذا العام أيضًا"، قالت النساء فيما بينهنّ.

سارت المجموعة بأكملها إلى الجزيرة. أوّل شيء كان عليهم القيام به هو الإمساك بحمَلٍ صغير، وبهذه الطريقة سيسهل الإمساك بالأمّ. عمل الجميع حتى الصباح قبل أن يتمكنوا من الإمساك بخروف واحد فقط، ثم أجبروا القطيع على التوجّه نحو القارب، لكنّه ركض مذعورًا نحو البحر مباشرة، فاضطرّ "مارسيليوس" إلى النزول إلى الماء والإمساك بالخراف التي نزلت واحدةً تلو الأخرى.

"لقد تبللت، يا "مارسيليوس""، قالت "فريدريكه".

بينما جلست النساءُ الثلاث وقمنَ بجرد بعض الخراف، أمسك الأخوان بثلاثة خراف أخرى كانا قد وضعا على رقابها الأطواق. وقف "مارسيليوس" بالقرب من "فريدريكه"، وأشرقت شمس الربيع الساطعة والدافئة عليهم جميعًا.

"ها قد انتهيت من الخروف الثاني"، قالت "فريدريكه" وهي تحشو الصوف في أحد الأكياس ثم وقفت.

"لنحاول الإمساك بخروف بمفردنا. ما رأيك، يا "فريدريكه"؟"، قال "مارسيليوس" بصوت يرتعش بشكل غريب.

وافقت "فريدريكه"، ومشى الاثنان بعيدًا عن الآخرين.

"أعتقد أن الخراف في مكان آخر"، قالت "فريدريكه". فأجاب "مارسيليوس":

"دعينا نبحث هنا أوّلًا".

اتّجها إلى الجانب الشمالي الذي كان مظلّلًا بالأشجار، لكنّهما لم يجدا الخراف هناك.

"أعتقد أنّنا سنجد باقي القطيع في نهاية الجزيرة"، قال "مارسيليوس" ثم ركض مسرعًا، لكنّ "فريدريكه" لم تعد رشيقةً كما كانت من قبل ولم تستطع مواكبته، فأمسك "مارسيليوس" بيدها وساعدها على الركض وهو يتحدّث بصوت عالٍ جدًّا:

"الآن، يا "فريدريكه"! الآن ستعلمين!"

"لا تصرخ هكذا. سوف تخيف الخراف"، قالت "فريدريكه"، التي كانت ما تزال تفكّر في العمل.

لكنه استمر في سحبها وهو يصرخ بأعلى صوت: "الآن ستعلمين، يا "فريدريكه"! وسوف أعلّمك كيف تعزفين على الأرغن".

"ما هو خطبك؟" سألته وهي تحاول تفسير ملامح وجهه.

لكنّ وجهه كان غريبًا جدًّا لدرجة أنّها لم تتعرّف عليه.

حاولت "فريدريكه" المقاومة؛ حاولتْ أن ترمي بثقل قدميها على الأرض لكي تتوقّف، لكنّها سقطت أرضًا، واستمرّ "مارسيليوس" في جرها. أدركت أنها كانت على وشك أن تلقى حتفها وتلاشت شجاعتها فورًا. من دون أن تنطق بأيّ كلمة أو تتمكن من الصراخ، كان "مارسيليوس" قد جرّها إلى حافة الجرف ورماها إلى أسفل الهاوية. نظرًا لأنّها تخشّبت من شدة الخوف، لم تتمكّن حتى من الإمساك بملابس "مارسيليوس". ظلّ هذا الأخير واقفًا مكانه عند الحافة، مع أنّه كان ينوي أن يقفز معها.

نظر حوله بحذر ليرى ما إذا كان الآخرون قد تبعوه، ثم نظر إلى الأسفل. كان البحر يتنهّد بقوة كبيرة، وقد ابتلع "فريدريكه" وانتهى الأمر. أصلح "مارسيليوس" هندامه واستعد للقفز، لكنّه تخلى عن هذه الفكرة وبدأ يبحث عن طريق للنزول إلى الشاطئ، ومشى بعناية كبيرة خشية أن ينزلق. في منتصف الطريق، قال في نفسه إنّه لا فرق عنده إذا سقط وآذى نفسه، ومع ذلك استمر في البحث عن مواطئ آمنة خشية أن يسقط.

كانت الأمواج تلطم وجه الجرف مباشرةً. عندما أصبح على بعد قامتين فقط من سطح البحر، توقف "مارسيليوس" وخلع سترته وصدريته وتركهما على الصخور حتى يتمكن شخص آخر من استخدامهما. وضع يديه معًا وطلب من الله أن يرحم روحه... "يا رباه... أرجوك".

ثم قفز.

حفلة عيد ميلاد

تسير العربة بسرعةٍ على وقع رنين أجراسها. المشهد من حولها صقيع وثلج متساقط ونجوم.

على متنها زوجان شابّان؛ يحاول الزوج التحدّث إلى زوجته لكنّها لا تتفاعل معه قط. عندما أصبحت العربة عند الجسر، حيث تشتد ضراوة الرياح، سألها إذا كانت تشعر بالبرد، فأجابت باختصارٍ شديد: "نعم". ثم عندما مرّت العربة من أمام الحقول الواسعة قال:

"حسنًا، لقد شارفنا على الوصول".

وهذا صحيح؛ لقد شارفا على الوصول. كانت أضواء الفناء بارزةً أمامهما، كما رَأَيَا العامل واقفًا في ساحة المزرعة.

"مساء الخير يا "بريدا" Brede"، قال الزوجان.

"مساء الخير"، أجاب العامل وأمسك بلجام الأحصنة.

ترجّلت الزوجة الشابة، ثمّ خلعت قفّازها ومدّت يدها الباردة لكي يمسك بها العامل بيده الدافئة، فهما يعرفان بعضهما بعضًا.

لم تدر أيّ محادثة بينها وبين العامل، فيقول الزوج:

"هذه زوجتي، "مارثا"".

ذهبت "مارثا" مباشرة إلى المنزل مع زوجها، بينما أخذ "بريدا" الأحصنة إلى الإسطبل. بعد بضع دقائق، ذهب إلى المطبخ وجلس على المقعد الطويل. "بريدا" شاب قويٌّ، طويل القامة، متين البنية. اخترقت الضوضاء وأصوات الضحك في غرفة المعيشة جدران المطبخ. من الواضح أن هناك حفلة ما هناك، فالخادمات منهمكات بتحضير الطعام.

فتحت "مارثا" الباب ودخلت.

حيّت جميع الخدم وربّتتْ على الكلب ثم التفتت إلى "بريدا" وطلبت منه البحث عن قفازها الذي تركته في العربة. بينما كانت تتحدث، ظهر وجهها بوضوح تحت ضوء المصباح: فتاة شقراء شابة جميلة. نظر إليها "بريدا" قليلًا ثم خرج من دون أن يقول أيّ كلمة.

بعد ذلك بوقت قصير، خرجت "مارثا" أيضًا، والتقت بـ"بريدا" قرب العربة.

"هل وجدت القفاز؟" سألته الزوجة.

فأجاب: "كلا".

فراح الاثنان يبحثان عنه لبضع دقائق.

""لم تتغير كثيرًا هذا العام، يا "بريدا"." قالت "مارثا".

"نعم. يا له من عامٍ طويلٍ".

"نعم"، توافقه "مارثا" الرأي. "لقد كان عامًا طويلًا. ولم تقم بزيارتنا ولا مرّة، يا "بريدا""".

لم يتمكنا من العثور على القفاز.

وقف "مارثا" و"بريدا" أسفل درج العربة.

"من الواضح أنّك تشعرين بالبرد، يا "مارثا". كان عليك أن ترتدي المزيد من الملابس".

"لا يهمني"، أجابت بهدوء.

خرج زوجها وكان وجهه مفعمًا بالحيوية، فقد تناول الكثير من المشروبات اللذيذة. نظرت إليه "مارثا" نظرة خاطفةً ثم دخلت إلى المنزل.

"تعال وتناول المشروب بصحبتي، يا "بريدا""، قال زوجها بصوت مرح.

دخل الرجلان إلى المطبخ وجلب "بريدا" المشروب. بعد أن تناولا الكأس الثالثة، قال "بريدا" إنّه لا يرغب بشرب المزيد، لكن الزوج أصر على ذلك. فشرب كأسًا آخر ثم وقف وغادر المطبخ، متّجهًا إلى مهجع الخدم في تمام الساعة الثامنة. كان هناك اثنان من العمال يلعبان الورق على ضوء الشموع.

جلس "بريدا" بمفرده. فجأةً، سمع خطوات في الردهة، فاعتقد أنّه الصبي يحمل معه الطعام، لكنّها كانت "مارثا".

"ألا تريد لعب الورق؟" سألته.

"كلا".

"إذن هلّا مددت لي يد العون؟ أحتاج مساعدتك". ثم خرجت، وتبعها "بريدا".

سألها "ما القصة؟" لكنّها لم تجب.

الظلام دامسٌ في الردهة. أمسكت "مارثا" بيده، وكانت قريبة جدًّا منه لدرجة أنّه سمع نبضات قلبها. قالت له:

"انتابني شعور غريب لدى رؤيتك مرة أخرى".

لزم "بريدا" الصمت. فسألته:

"يبدو أنّك لم تعد تهتّم لأمري، أليس كذلك؟"

"نعم. والآن دعينا نذهب إلى الداخل، يا "مارثا"".

مرّت دقيقة على هذا الحال. فجأة تركت يده وأبعدتها عنها وقالت في غضب:

"حسنًا، ابتعد عن طريقي إذن، دعني أمر".

فتنحّى جانبًا، مرتبكًا مصعوقًا من تصرّفها. نظر إلى الفناء لكنّها كانت قد اختفت.

عندما أصبح الطعام جاهزًا، ذهب "بريدا" إلى المطبخ وجلس مع الخدم الآخرين عند الطاولة الطويلة. دخل زوج "مارثا" مرة أخرى بينما كان الخدم يأكلون، حاملًا معه زجاجة شراب أخرى. كان وجهه أكثر حيوية وقد اكتسب حمرة شديدة. ملأ كؤوس جميع الخدم، لكنّه أظهر اهتمامًا خاصًّا ب"بريدا". ثم دخلت "مارثا" وهي تضحك بصوت مرتفع. وقفت بجانب زوجها.

"املأ كأس "بريدا"".

وفي كلّ مرة شرب "بريدا" كأسه، قام زوج "مارثا" بملئه مجدّدًا. ثم قال "بريدا" فجأةً:

"لماذا تريدني أن أسرف في الشرب؟"

"اشرب، هيا"، يجيب الزوج.

نهض "بريدا" بغضب وأمسك قبعته وغادر المطبخ.

"فلنلحق به!" صاحت "مارثا".

ضحك جميع الخدم.

خرج الزوجان لكي يتبعا "بريدا"، وأخذ الزوج زجاجة الشراب معه وهو يضحك ويهتف بصوت مرح. خرج العديد من الناس من المنزل -من بينهم والد "مارثا"، صاحب المزرعة- ليشاهدوا ما سيحدث. أمسك والد "مارثا" ببطنه الذي كان يهتزّ من كثرة الضحك. انطلق "بريدا" راكضًا نحو الحظيرة، ولاحظ أنَ "مارثا" وزوجها قد لحقا به، فبدأ يتسلق السلم الطويل الذي يقود إلى سطح الحظيرة. عندما وصل "بريدا" إلى الأعلى، جلس على الثلج. كان القمر ساطعًا في وسط السماء الصافية المشرقة.

"كن حذرًا. إيّاك والسقوط، فالجلوس هناك خطير"، صاحت "مارثا"، لكنّ "بريدا" لم يجبها.

"تشعر بالخطر، يا "بريدا"، أليس كذلك؟" صاحت مرة أخرى وقد بدا القلق على وجهها.

ما زال "بريدا" صامتًا. أضاء القمر جسده الكبير الذي ألقى بظلّه على السطح.

"اتبعه، يا "بول"!" قالت "مارثا" ببطء وغضب.

بدأ زوجها في تسلق السلم وهو يضحك ويتحدّث إلى الناس المتجمّعين في الأسفل. وصل إلى أعلى درجة، ورفع رأسه وأومأ إلى "بريدا" ثم قال: "يا "بريدا"".

"ماذا تريد؟" أجابه "بريدا" ثم قال: "سأرمي بك فوقها".

صعد "بول" إلى السطح أخيرًا.

"نعم، ارمي بي فوقها، أنت الرجل الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك". قال "بول" بودٍ ولطف ووكزه وكزة خفيفةً على كتفه، ثمّ أعطاه الزجاجة لكي يشرب قليلًا، فقبل "بريدا" لكي يرضيه.

جلس الاثنان هناك لفترة طويلة، وعاد الضيوف إلى الحفلة مرة أخرى وتناولوا الطعام والشراب. تابع "بريدا" وبول الشرب من الزجاجة، ثم تعانق الصديقان وشربا نخب صداقتهما.

"أنت تعرف "مارثا" قبلي"، قال "بول" وهو يرمش ويضحك. "لقد نشأتما سويًا منذ الطفولة".

"ماذا تريد أن أقول لك؟ اسألها بنفسك." قال "بريدا" بصوت مرتاب.

"أعط زجاجة الشراب ل"بريدا""، صاحت "مارثا".

"هل تريدان أن يغمى عليّ من كثرة الشرب؟" سألها "بريدا".

لكنّ الزجاجة أصبحت فارغة.

جلس "بريدا" وأخذ يرجّحُ قدميه على السطح. هناك على الأرض، وقفت "مارثا" وشاهدت كل شيء.

"يأتي عيد الميلاد مرة واحدة في السنة"، قال "بول" ببساطة، ثم نزل ببطء إلى الأسفل.

"مهلًا!" صاح "بريدا". "ألا توجد قطرة واحدة في تلك الزجاجة؟" ولوح بذراعيه وحدّق بـ"بول" بإمعان، ثم راح يغرف الثلج من السطح ويرمي "بول" به، ضاحكًا بأعلى صوته.

عندما وصل "بول" إلى الأسفل قالت له زوجته:

"أبعد السلم عن الحظيرة".

سمعها "بريدا" وقال:

"نعم. خذ السلم بعيدًا. سأنزل قفزًا".

فعلًا، وقف "بريدا" واستعد للقفز، لكنّه انزلق وسقط على السطح. كان مخمورًا وخدرًا جدًّا، فاستلقى هناك ورأى "بول" يبعد السلم عنه.

عمّ الهدوء أرجاء المزرعة.

نظر "بريدا" إلى الأسفل فلم يرَ أحدًا، لذا افترض أنّه كان وحيدًا. بعد لحظات، أعادت "مارثا" السلم إلى مكانه لكنّ "بريدا" لم ينتبه لذلك لأنّه قد أغمض عينيه.

"أعيدوا لي السلم"، قال بصوت منخفض وكأنه كان يخاطب نفسه. بدأت آثار البرد تظهر عليه. غلبه النعاس فجأةً لكنّ جسده انتفض وأيقظه فورًا. "أعد لي السلم وسأعطيك هديّة صغيرة"، قال "بريدا" مخاطبًا الهواء. "أريد إعطاءك شيئًا ما". مرتبكًا، مخمورًا، يائسًا، أمسك بحافة السطح بقوة وانزلق إلى الأسفل.

صرخ أحدهم، ثم تعالت أصوات الرجال. في غضون بضع ثوان كانوا قد تجمهروا حوله.

"لكنّ السلم هناك"، تقول "مارثا" بصوت خائف. "لقد أعدته بنفسي. ها هو ذا".

تدحرج "بريدا" عدة مرات على الثلج ثم وقف على قدميه. كانت جبهته تنزف، لكنّه أفاق من سكرته على أثر سقوطه بهذا الشكل وراح يضحك في دهشة من أمره. مسح الدم الذي ملأ جبهته وقد علت وجهَه تعابيرُ فكاهيّة. لم يكن قادرًا على الوقوف بثبات، فترنّح يمنة ويسرة حتّى أمسك أحد العمال بذراعه كي يكفّ عن الحركة. خلع "بريدا" سترته وإذ بقفّازٍ يسقط من جيبها.

جحظت عينا "مارثا" وأضاء وجهها نشوةً. اقتربت منه والتقطت القفاز ووضعته في جيبها. "طوال هذا الوقت... كان قفّازي بحوزته"، قالت بهدوء. "طوال هذا الوقت...".

ثمّ دخلت مع "بريدا" إلى المنزل وضمّدته. شيئًا فشيئًا، ذهبت آثار الخمر واستعاد "بريدا" رباطة جأشه، لكنّه كان يعاني من نوبات الهذيان بين الحين والآخر. عندما تفحّصت "مارثا" ساقيه اتّضح أن إحداهما قد كُسرت، فانحنت أمامه وساعدته على خلع حذائه...

بعد تلك الحادثة بعامين، توفّي زوج "مارثا"؛ وبعد ذلك بعام، تزوّجت من "بريدا" ذي الساق المصابة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رجلٌ وضيعٌ للغاية!

التقيت به في مقبرة، ومنذ ذلك الحين تمسّك بي كما تتمسك العلقة بالجلد، مع أنّني لم أرحّب به ولم أشجعه على التعلّق بي. جلست على مقعد كان يجلس عليه هو وقلت:

"هل يزعجك وجودي هنا؟" هكذا بدأت علاقتنا بكل بساطة.

أجاب: "كلا. على الإطلاق"، وأفسح المجال لي. "جلست هنا لكي أفكر في مملكة الموتى"، قال مشيرًا بيده إلى القبور.

كان ذلك في مقبرةٍ اسمها "مقبرة المسيح" Christ's Cemetery.

مع مرور الساعات في الصباح، امتلأ المكان بالناس شيئًا فشيئًا. وصل عمال البناء واحدًا تلو الآخر، إضافةً إلى بعض العمال الآخرين. كان الحارس العجوز جالسًا في غرفته الصغيرة يقرأ الصحف. انشغلت النساء بملابسهن السوداء بزراعة الأزهار وسقايتها وتقليم العشب الطويل، بينما غنت الطيور في أعالي أشجار الكستناء.

لقد كان هذا الشخص -هذا الشاب ضخم البنية، عريض الكتفين، غير الحليق، بملابسه المهترئة المتهالكة- غريبًا عنّي تمامًا؛ في جبينه أخاديد متجعّدة، وفي صوته نبرة سلطوية، وكلّما

تحدّث رَمَشَ بشكل مدروس؛ بسبب كل هذه السمات، شعرت أنّه كان أكبر مما هو عليه.

"هل أنت غريب عن هذه المدينة؟" سألته.

فأجاب: "لقد رحلت عن موطني منذ تسع سنوات ولم أعد إليه بعد".

أرجع ظهره إلى الوراء مسترخيًا، ومد ساقيه ونظر إلى القبور. لاحظتُ أنّ صحيفتين باللغة الألمانية والفرنسية تدلّيتا من جيوب بنطاله. "يا لهذا المكان الكئيب. بقعة واحدة من الأرض فيها الكثير من الموت والكثير من الطاقات المبدّدة، مقابل القليل من الإنجازات".

"ما الذي يجعلك تقول هذا؟"

"هذه مقبرة عسكرية"، أجابني الرجل الغريب.

قلت في نفسي: آها! إنه من أحد دعاة السلام.

وتابع: "لكنّ أقبح ما في هذا الأمر هو الاحتفال بالموتى: طقوس الحزن هذه".

أومأ مشيرًا إلى القبور بسرعة ثم جلس منتصبًا.

"هل تدرك حجم الثروة الكامنة في أحجار الغرانيت هنا؟ فكّر أيضًا في باقات الأزهار باهظة الثمن التي ألقاها الزوّار على الأرض القذرة للتو. نشتري مقاعدَ مريحة لكي نجلس ونبكي عليها، ونستحضر الصور الوثنية العظيمة، مستمدّين الوحي من محاجر الغرانيت على تلة "غريفسن" Grefsen Hill... إنّ هذه المقبرة

ليست إلّا كنزًا متحجّرًا؛ كما أنّها أقل المناطق تهدّمًا في المدينة ... ألا يستدعينا هذا الأمر للتأمّل قليلًا؟" صمت لوهلةٍ ثم تابع: "بمجرد أن تمّ بناء هذه المقبرة، بكل ما فيها من ثروة، أصبح من الممنوع المساس بها، لأنها ميتة. كل ما يتطلبه الأمر بعد ذلك هو إدارتها، والعناية بها على أكمل وجه؛ ولا ننسَ الدموع والأزهار التي تذبل وتموت دائمًا على أكوام الرمل، تلك الأكاليل التي تكلّف 50 كرونة تقريبًا".

إنّه مناصرٌ للاشتراكية! -قلت في نفسي- تاجرٌ رحّال قد تعلّم مناهضة الرأسمالية!

"هل أنت غريب عن هذه المدينة أيضًا؟" سألني.

"نعم".

مرة أخرى، استرخى على المقعد وراح يفكّر ويرمش بعينيه، مرارًا وتكرارًا.

يمر من أمامنا رجل وامرأة مسنّان، كلاهما يتوكّأ على عكازه، وكلاهما ظهره محدودب، وقد بدا الوقار عليهما. كانا يتحدثان بصوتٍ منخفض أقرب إلى الهمس. لا بدّ أنّهما والدان لشخص ميّت وكانا في طريقهما لزيارة قبره. تهبّ الرياح ناثرةً الغبار وبقايا الأزهار المسحوقة في الهواء، كما حفّت أوراق الشجر الجافة المنتشرة على طول ممر المشاة.

"انظر!" قال لي فجأة، محافظًا على وضعية جلوسه، وهو يشير إلى الاتجاه بعينيه بدلًا من يده. "هل ترى تلك السيدة قادمةً نحونا؟ راقبها عندما تمر بنا".

حسنًا، قلت في نفسي، ليس هناك أسهل من المراقبة.

كادت تلمسنا بثوبها الأسود، كما أنّ طرحتها الطويلة احتكّت بعض الشيء بقبّعتيْنا. تبعتها فتاة صغيرة تحمل بعض الأزهار، وامرأةٌ تحمل مكنسةً ومِرشَّةَ مياه.

اختفى الثلاثة عند المنعطف الذي يؤدي إلى نهاية المقبرة.

قال لي الرجل: "حسنًا. ما رأيك؟"

"رأيي بماذا؟"

"ألم تلاحظ أيّ شيء غريب؟"

"كلّا. لم أرَ أيّ شيء خارقٍ للعادة. كل ما في الأمر أنّها نظرتْ إلينا".

"أستميحك عذرًا، لكنّها نظرت إليَّ أنا. بما أنّك تبتسم، فهذا يعني أنّك تريد أن تطمئنني بأنّه لن يكون هناك أيّ جدال بيننا حول هذا الشأن. الحقيقةُ هي أنّها مرت من أمامي قبل بضعة أيام. كنت جالسًا هنا أتحدّث إلى حفّار القبور، محاولًا زرع القليل من الشك في قلبه حول وظيفته المحترمة للغاية...".

"لماذا فعلت ذلك؟"

"لأنه يعكّر سلام التربة من دون أيّ سبب مقنع ويخلق صعوبات لا توصف لجميع أشكال الحياة التي تعيش فيها".

يا له من زنديقٍ مسكينٍ مرتبك! وهل يقول الكتاب المقدس إنّه علينا ألّا ندفن الموتى في الأرض؟ في هذه اللحظة، بدأت أشعر بالضجر منه.

تابع الرجل: "كنت جالسًا هنا أتحدث إلى حفار القبور. عندما قلت له: إنّ ما تفعله خطيئة، كانت تلك السيدة قد مرّت بقربي للتو؛ سمعتْني ونظرت إليّ، لأنني كنت أتحدث عن الخطيئة في مكان مقدسٍ بالنسبة لها. آه، بالمناسبة، هل لاحظت المرأة العجوز وهي تحملُ المكنسة ومرشّة المياه في يديها المهترئتين الباليتين؟ وهل رأيت ظهرها؟ هل لاحظت كم كان محدودبًا؟ لقد أرهقت هذه المخلوقة المسكينة نفسها وهي تحفر الأرض وتدمّرها... لقد دمّرت مصدر الحياة. وهل رأيتَ تلك السيدة التي كانت تمشي خلفها ببضع خطوات وهي في طريقها للحزن على أحد القبور؟ على أيّ حال، ليس هذا ما أردت قوله. هل رأيت ما كانت تحمله الفتاة الصغيرة؟"

"نعم. كانت تحمل الأزهار".

"أزهار الكاميليا: كلّ واحدةٍ منها تكلف 1 كرونة. أزهار جميلةٌ حساسّةٌ مرهفة إلى أبعد الحدود. ما إن تتعرض للقليل من أشعة الشمس حتى تموت. في غضون أربعة أيام، سيقذفون بها فوق السياج لكي تقع في تلك الحديقة، ثم سيستبدلونها بباقات جديدة".

أخيرًا، عندما نفذ صبري من الزنديق، قلت له: "لكنّ تكلفتها لا تُقارن بتكلفة بناء الأهرامات!"

إلّا أنّ إجابتي هذه لم تترك فيه الأثر الذي كنت أتوقّعه. يبدو أنه سمع هذه الحجة من قبل.

قال لي: "لم يكن الناس في تلك الأيّام بحاجة إلى القبور. كانت مصر القديمة بمثابة مخزن الحبوب للإمبراطورية الرومانية، ولم يكن العالم صغيرًا في ذلك الوقت كما هو الآن -صدّقني عندما أقول

لك إنّني أعرف كم هو صغير عالمنا اليوم، أو بالأحرى، ليس أنا شخصيًا، بل أحد معارفي- على أي حال، هناك الفرقُ كلّ الفرقِ بين هرم في الصحراء وقبرٍ حديثٍ يتمّ الاعتناء به كلّ يوم. انظر حولك! انظر إلى مئات القبور والصروح باهظة الثمن، كلّها لم تكن إلّا صخورًا من الغرانيت على الأرض، في تلة "غريفسن" بسعر 3 كرونات و60 أورة للذراعِ* الواحدة، وانظر إلى هذه الأرضية العشبيّة التي جاؤوا بها من "إيكَبيرغ" Ekeberg بتكلفة 2 كرونة و50 أورة لكل 3.62 متر مكعب، ناهيك عن النقوش الفاخرة على الحجارة نفسها، مصقولة كانت أم غير مصقولة، منحوتة أم محفورة، حمراء أم بيضاء أم خضراء. وفكر في كلّ هذا العشب! تحدّثتُ إلى حفار القبور حول هذا الموضوع. إنّه يتطلّب جهدًا كبيرًا والكثير من الأموال. لا تنسَ أن تمعن التفكير في أهمية العشب على هذه الأرض: العشب هو الحياة بذاتها".

اعترضتُ على حجّته قائلًا إنَه لا يمكننا -ولا ينبغي لنا- تجريد الحياة من المثاليات. وأضفت أنّ هنالك جانبًا أخلاقيًا في تخصيص كمّيات معينة من العشب لموتانا. في الواقع، ما زلت أؤمن بذلك حتى يومنا هذا.

قال الرجل بصوتٍ محتدم: "اسمع ما سأقوله لك، إنّ الأموال التي تصرف على هذه المقبرة تكفي لأن تكون قوتَ عائلاتٍ بأكملها، ناهيك عن الأطفال والمعوزين الذين يمكننا مساعدتهم بهذه الأموال. هل تعلم أنّ ثمن الكاميليا التي تزرعها تلك الشابة

* يقصد وحدة القياس. (المترجم).

يعادل ثمن رداءين جديدين لطفل صغير؟ عندما يصبح الحزن قادرًا على الانغماس في هذه الأمور يتحوّل إلى ضرب من ضروب الشراهة والنهم".

لا شك في أنّه اشتراكيّ، وربما أناركيٌّ* يستمتع بتحدّي القضايا الجادّة وقلبها رأسًا على عقب. قلّ اهتمامي تدريجيًا بما كان يقوله.

"وانظر إلى الحارس هناك"، تابع الرجل، "هل تعرف ما هي وظيفته، بصرف النظر عن قراءة الصحف؟ إنه حارسٌ لهذه القبور، يحرس الموتى مثلما تحرس الشرطة المدينة. قلت له عندما وصلت إلى هنا اليوم إنّني إذا رأيتُ طفلةً تسرق الأزهار من أحد القبور لكي تدفع ثمن كتبها المدرسية، أو فتاة صغيرة خائفة ونحيلة تسرق باقة من أزهار الكاميليا من أجل أن تقايضها بالطعام، فلن أخبرك بما رأيته، وسأمدّ لها يد العون. "هذه هي الخطيئة بعينها"، قال الحارس العجوز. أكاد لا أصدّق أنّه وصف ذلك بالـ"خطيئة". تصور معي هذا الموقف: يوقفك رجل يتضور جوعًا في الشارع ذات يوم ويسألك "كم الساعة؟". تخرج ساعتك من جيبك، وتنظر إلى عينيه! وإذ به يمسك بالساعة بسرعة البرق ويلوذ بالفرار. تجد نفسك أمام خيارين الآن: يمكنك الإبلاغ عن الحادثة، وفي غضون يومين ستستعيد ساعتك بعد أن يعثر عليها شرطيّ ما عند أحد مكاتب الرهونات. وفي غضون أربع وعشرين ساعة أخرى، قد يلقون القبض على اللص أيضًا. الخيار الثاني هو ألّا تقول أيّ شيء للشرطة... يمكنك أن تلزم الصمت ... على أيّ حال، أشعر بالإرهاق، فأنا لم أنم طوال الليل".

* الأناركية Anarchy أو اللاسلطوية. (المترجم).

"حقًّا؟ حسنًا، لقد تأخر الوقت. من الأفضل أن أذهب إلى العمل".

عندما هممت بالذهاب، أشار بيده باتجاه البحر والميناء.

"لقد ذهبت إلى هناك، ومشيت بين مداخل المتاجر وفي الأزقة الخلفية لكي أعرف كيف ينام الجياع والمحتاجون في الليل. أتعلم أنّ هذا العالم مليء بالأشياء الغريبة؟ في أحد الأيام، قبل تسع سنوات، كنت جالسًا هنا -على هذا المقعد بالضبط، على ما أعتقد- حين حدث شيء لم أتمكن من نسيانه قط. كان الوقت متأخرًا وقد عاد معظم الناس إلى منازلهم. أذكر أنّ أحد النحّاتين كان مستلقيًا على الرخام هناك بعد انتهائه من صنع بعض النقوش. ارتدى سترته وحشر أدوات النقش في جيوبه وغادر. هبت الريح بقوة هنا بعد أن عصفت في أشجار الكستناء، كما كان هناك صليب حديدي طويل -لم يعد موجودًا اليوم- يتمايل قليلًا. زرّرتُ سترتي وكنت على وشك الذهاب حين جاء حفار القبور مسرعًا عند ذلك المنعطف هناك، بلا معطف ولا قبعة، وسألني عمّا إذا رأيت فتاة صغيرة ترتدي فستانا أصفر وتحمل حقيبة.

فقلت إنّني لا أتذكر إن كنت رأيتها أم لا. ثم سألته: "ما المشكلة؟" فأجابني حفار القبور: ""لقد سرقتْ بعض الأزهار"". ثم ركض مسرعًا، فجلست هنا حتّى عاد مرة أخرى.

"هل وجدتها؟"

""كلا. لكنّني أغلقت البوابة."" والآن سوف يبحث عنها بدقة، فلا بد أن تكون الفتاة الصغيرة داخل المقبرة. سوف يعثر عليها.

كانت تلك ثالث حادثة سرقة في ذلك اليوم. ""هؤلاء الصغيرات الذكيّات يعرفن جيّدًا أنّ هذا تصرّف خاطئ. هل تعرف ماذا يفعلن بها؟ يصنعن باقات منها ثم يبعنها! يا لطافتهن! أليس كذلك؟"" قال حفار القبور.

ذهبت مع حفار القبور وساعدته قليلًا في بحثه عن الطفلة، لكنّها أجادت التخفّي. كان معنا الحارس أيضًا، وبحثنا نحن الثلاثة في كل مكان بلا طائل. لم نتمكّن من العثور عليها. مع حلول الغسق، توقّفنا عن البحث كلّيًا.

"من أي قبر سرقت الأزهار؟"

""ذلك القبر، هناك. إنّه قبر طفلة. تصوّر أنّها سرقت قبر طفلة"!"

مشيت باتجاهه، وتعرفت عليه فورًا. كنت أعرف الفتاة الصغيرة المدفونة فيه أيضًا. في الواقع، كنا قد دفناها في وقت سابق من ذلك اليوم. اختفت جميع الأزهار، حتى تلك التي وضعتها أنا. لم أجد لها أيّ أثر.

"علينا أن نعثر عليها"، قلت للآخرين. "يا لها من فعلةٍ مشينة".

لم يكن البحث عن السارقة مسؤولية حفار القبور، لكنه بحث عنها من حيث المبدأ. استأنفنا ثلاثتنا البحث. فجأةً، رأيت جسدًا صغيرًا عند المنعطف: طفلة صغيرة تجلس منحنيةً على الأرض، خلف قبر الدكتور "ويث" Dr. With الكبير المصقول. كانت تحدق بي وقد خبأت رقبتها الصغيرة بين لوحي كتفيها.

عرفتها على الفور أيضًا: كانت أخت الفتاة الميتة. "ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل، يا صديقتي الصغيرة؟"

لم تقل حرفًا واحدًا ولم تحرّك ساكنًا. ساعدتها على النهوض، والتقطت حقيبتها. قلت لها إنّني سأصطحبها إلى منزلها ثم أضفت: "أتعلمين أن "حنّة" Hanna الصغيرة كانت لِتشعر بالاستياء لو علمتْ أنك جلستِ هنا كل هذا الوقت من أجلها؟" فَقَبِلتْ أن تمشي معي. سألتها:

"لقد سرقت فتاة صغيرة شقية الأزهار من قبر "حنّة": قيل لي إنّها ترتدي ثوبًا أصفر، هل رأيتها، يا ترى؟ لا يهمّ، سنقبض عليها لاحقًا".

وسارت بجانبي من دون أن تجيبني.

"أها، لقد قبضتَ عليها!" صاح حفار القبور. "لقد قبضتَ على اللصّة"!

"ماذا تقول؟" قلت له.

"ماذا دهاك. ها أنت تمسك بيدها". ابتسمت في وجهه مضطرًا، ثم قلت:

"كلا، أنت مخطئ، يا عزيزي. هذه ليس اللصة، بل الأخت الصغيرة للفتاة التي دفنت اليوم. اسمها "إلينا" Elina، أنا أعرفها جيّدًا".

لكن حفار القبور كان مقتنعًا بأنه على حق، وتعرّف عليها الحارس أيضًا، إذ كان لديها ندبة حمراء على ذقنها. لقد سرقت الأزهار من قبر أختها ولم تستطع المسكينة الصغيرة حتى أن تعبّر عن أسفها.

والآن، أطلب منك أن تفكّر فيما سأقوله لك: لقد عرفت هاتين الشقيقتين لفترة طويلة. كنا نعيش في المبنى المتهالك نفسه، وكثيرًا ما رأيتهما تلعبان تحت نافذة شقتي. بين الحين والآخر، كانتا تتجادلان بشراسة وتضربان بعضهما بعضًا، لكنهما كانا طفلتين طيبتين، ودائمًا ما تكاتفتا ضد الغرباء؛ كلّي ثقة بأنّهما لم تتعلّما هذا الأمر في المنزل، لأن والدتهما كانت عاهرةً لم تتواجد في البيت كثيرًا، إضافةً إلى أنهما لم تعرفا من هو والدهما. شخصيًّا، أعتقد أنّ لكلٍّ منهما والدًا مختلفًا. عاشت هاتان الطفلتان في غرفةٍ صغيرة جدًّا بحجم ذلك القبر تقريبًا، وبما أنّ غرفتي كانت مقابل غرفتهما مباشرة، استطعت رؤيتهما كلّما وقفت عند نافذتي. كانت "حنّة" هي القائدة، فهي الأكبر سنًّا، وأظهرت النضج في الكثير من تصرّفاتها. كانت هي دائمًا التي تُخرج علبة الخبز القصديرية كلّما أرادتا تناول الطعام، وعندما اشتدّ حرّ الصيف، بادرت "حنّة" إلى إلصاق ورقة من أوراق الجرائد على النافذة لئلّا يدخل الهواء الساخن إلى الغرفة. في كثير من الأحيان، سمعتها تساعد أختها الصغيرة في مراجعة واجباتها المدرسية قبل مغادرتهما إلى المدرسة. كان "حنّة" إنسانًا مسنًّا في جسد فتاة صغيرة، لكنّها فارقت الحياة قبل أوانها.

"دعونا نفتّش حقيبتها"، قال حفار القبور.

طبعًا، وجدنا الأزهار في حقيبتها، حتى أنّني تعرفت على ثلاثةٍ منها.

كنت في حيرةٍ من أمري. اكتفت "إلينا" بالوقوف هناك، تلك المذنبة الصغيرة، ولم توحِ تعابير وجهها بأنّها شعرت بالندم. وبّختُها قليلًا وطلبت منها أن تفسرَ سبب وجود الأزهار في حقيبتها، لكنّها لم تقل شيئًا. ثم قال حفار القبور إنّه سوف يأخذها إلى مخفر الشرطة.

عندما وصلا إلى البوابة، أدركت "إلينا" ما كان يحدث وقالت بغضب:

"مهلًا، إلى أين أنت ذاهب بي؟" أجاب حفار القبور:

"إلى مخفر الشرطة".

"لم أسرق هذه الأزهار". أصرّت "إلينا" على براءتها.

"لم تسرقيها؟ لقد وجدناها في حقيبتك. رأيناها بأمّ أعيننا". لكنها أصرّت بكل حزمٍ على أنها لم تسرقها.

لدى وقوف "إلينا" الصغيرة عند البوابة، عَلِقَ كمّ فستانها وتمزّق بعض الشيء، فبرزت منه ذراعها البيضاء الصغيرة النحيلة.

فعلًا، ذهبتْ إلى مخفر الشرطة مع حفار القبور، حيث حصل عناصر الشرطة على المعلومات اللازمة عن الحادثة، لكنهم لم يتّخذوا أيّ إجراء ضدّ "إلينا"، على حد علمي. لم أرها مرة أخرى بعد ذلك، لأنني سافرت بعيدًا وغبت عن هذه المدينة لمدة تسع سنوات.

لكنّني اكتشفت المزيد من المعلومات عن هذه الحادثة. لقد كنا مخطئين تمامًا عندما عاملناها كسارقة، فهي لم تسرق تلك الأزهار. ولكن لنفترض أنّها سرقتها فعلًا؛ أين هي المشكلة في ذلك؟ ما

الذي يمنعها من سرقتها؟ لقد تعاملنا معها بطريقة مخزية جدًّا، ألا تتفق؟ ومع ذلك، لم يكن هناك قاضٍ ليصدر أيّ حكم ضدنا جرّاء ما فعلناه. لقد اعتقلناها وقدمناها إلى العدالة بكل بساطة. التقيت بها بعد أن عدت إلى هذا المكان. يمكنني أن أعرّفك عليها إذا أردت".

هنا صمت الرجل قليلًا، ثم تابع.

"اسمع ما سأقوله لك وأنصت جيّدًا لعلّك تفهم ما أرمي إليه. في يومٍ من الأيام، قالت "حنّة" على فراش احتضارها: "بعد موتي، ستجدون الأزهار على قبري؛ قد يكون هناك الكثير منها، لا أدري، لأن المعلّمة سترسل زهرة على الأرجح، وأعتقد أنّ السيدة اللطيفة "بينديشه" Bendiche سترسل إكليلًا كاملًا من الأزهار"".

"في الحقيقة، كانت تلك الطفلة المريضة واعيةً تمامًا مثل أيّ شخص بالغ. أعتقد أنها نَمَتْ بسرعة كبيرة ولم تتمكن من التعايش مع ذلك، كما زادها المرض حدّةً في الذكاء. عندما كانت تتحدث إلى أختها الصغيرة، تصمت هذه الأخيرة وتحاول جاهدةً فهم كلام أختها. عاشت الأختان بمفردهما، فقد غابت أمهما عن المنزل بصورةٍ دائمة. لكن بين الحين والآخر، كانت السيدة "بينديشه" ترسل لهما الطعام لئلّا تتضوّرا جوعًا حتى الموت. في تلك المرحلة من حياتهما سويًّا، توقّفت الأختان عن المشاجرة وعمّ السلام بينهما، حتّى أنّهما نسيتا آخر مشاجرةٍ عرضية جرت بينهما في الحديقة".

"أعلم أن الأزهار لطيفة، لكنها تذبل بسرعة أيضًا"، قالت الفتاة المحتضرة. وأضافت متسائلةً: "ما الهدف من وجود الأزهار الذابلة على القبور؟ إذ لا يستطيع الموتى رؤيتها، ولن تشعرهم بالدّفء

أبدًا". ثم سألت "إلينا" إن كانت تتذكّر الحذاء الذي رأتاه في السوق في يوم من الأيّام، وقالت: "الأحذية تلك هي التي تشعرنا بالدفء الحقيقي"".

تذكرت "إلينا" الحذاء. ولكي تظهر لأختها أنّها ذكية جدًّا، وصفته لها بجميع تفاصيله.

سرعان ما حلّ الشتاء، ودخلت تيارات الهواء الباردة إلى غرفتهما من الأرضية أسفل النافذة، وتجمدت قماشة التنظيف المعلّقة على الحائط.

قالت "حنّة": ""بإمكانك شراء حذاء مثل ذلك الذي رأيناه سابقًا"". ثم نظرت الشقيقتان إلى بعضهما بعضًا.

"هل تعتقدين أنّني غبية جدًّا لدرجة أن أصدّق ذلك؟""قالت "إلينا".

فأكّدت "حنّة" أنّها لا تمانع أن تأخذ "إلينا" الأزهار التي سيضعونها على قبرها لكي تبيعها. نعم. يمكنها أن تعثر على من يرغب بشراء الأزهار في الشوارع في كلّ يوم أحد. لطالما رأتهم "حنّة" يقودون عرباتهم إلى الريف وهم يضعون الأزهار في عرواتهم، كما رأت بعض السادة يركبون عربات الأجرة ويفعلون الشيء ذاته.

سألت "إلينا" عما إذا كان بإمكانها شراء قبعة صغيرة.

"نعم، إذا تبقّى ما يكفي من المال. عليك أن تشتري الحذاء أوّلًا". قالت "حنّة".

هكذا تم الاتفاق بين الطفلتين. كان اتفاقًا خاصّا بهما، ولا علاقة لأي شخص آخر به. لكن على "إلينا" أن تأخذ الأزهار في اليوم ذاته، قبل أن تبدأ في التلاشي.

هل تعلم كم كان عمر "حنّة" المريضة؟ حوالي 12 أو 13 عامًا. لكن لا علاقة للعمر بوعي الإنسان. عندما كانت أختي طفلةً صغيرة استطاعت تعلّم اليونانية.

على أي حال، لقد فشلت "إلينا" في تنفيذ الخطة. لم يعاقبها رئيس الشرطة، واكتفى بإخافتها من تكرار الفعلة. يمكن القول أنّها كانت محظوظةً في ذلك. لكن معلّمتها في المدرسة جعلتها شغلها الشاغل. أصبحت تراقبها على الدوام وتنظر إليها من زاوية عينها، وصارت تطلب من "إلينا" أن تبقى في الصف وقت الاستراحة: "إلينا، من فضلك ابقي هنا قليلًا. أود التحدث إليك". كانت توبّخها بحزم ولطف في آنٍ معًا. ذكّرتها بما قامتْ به كلّ يوم وقالت لها أن تسأل الله المغفرة.

فجأةً تغيّر حال "إلينا" إلى الأسوأ.

أصبحت تأتي إلى المدرسة بثياب قذرة، ولم تعد تغسل وجهها في الصباح، كما توقّفت عن إحضار كتبها إلى المدرسة. وبما أنّها أصبحت موضع شك الجميع، صارت تتجنب نظرات المعلمة، ولا تنظر إلى أي شخص بشكل مباشر، بل تسرق نظرات سريعة وسرية إلى الأشخاص الذين كانوا يُشعرونها ببعض الأمان. عندما حان موعد تثبيتها*، أعطاها الكاهن كتيّبًا حول خطيئةٍ خاصة من دون

* انظر الحاشية صفحة 258 (قصة: عيد الميلاد على التل). (المترجم).

غيرها، وشاع بين جميع ساكني الحيّ كلامٌ حول المستقبل الذي ينتظرها. غادرت "إلينا" الحي وتلك الغرفة الصغيرة.

في أحد الصباحات المشرقة، بينما كان الناس يتجولون في الشوارع واضعين الأزهار في عرواتهم، اتجهت "إلينا" إلى الريف على متن عربة الأجرة.

التقيت بها مجدّدًا في منزلها الليلة الماضية (حينها علمتُ أنّها انتقلت للعيش في الريف)، فقد تعرّفتْ عليّ مباشرةً ولم يكن بوسعها إلّا أن تتحدّث إليّ. سمعت صوتها، ورأيت تلك الندبة الحمراء على ذقنها. لكن، يا إلهي... لقد أصبحت بدينةً جدًّا!

نادت عليّ وقالت همسًا: "إنّها أنا، "إلينا".

فقلت: "نعم، عرفتك. لقد ازدادَ حجمك يا "إلينا".

"ازداد حجمي؟ ليس من اللائقِ أن تخاطبني بهذه الطريقة".

وقفنا عند مدخل منزلها. ذكّرتها باسمي وبالبناء الذي عشنا فيه ذات مرة. تحدثتُ عن "حنّة" الصغيرة وسردت جميع الذكريات التي استدعتها ذاكرتي حينها. لكنها قالت إنّه لا وقت لديها للدردشة عند الباب، وإنّ علينا الدخول إلى المنزل لئلّا نخيف الآخرين بوقوفنا هكذا.

فقلت: "حسنًا. دعينا نذهب إلى الداخل عسى أن تدور بيننا محادثة حقيقية!"

بمجرد أن دخلنا، سألتني:

"هل بحوزتك بطحة نبيذ؟" هكذا أصبح حالها اليوم.

"لو كانت "حنّة" على قيد الحياة... لَجلسنا نحن الثلاثة ودردشنا سويًّا عن كل شيء".

وإذ بـ"إلينا" تنفجر ضحكًا، ثم قالت لي: "ماذا دهاك؟ تتحدّث وكأنك طفل".

سألتها: "هل توقّفت عن التفكير في "حنّة"؟" فبصقتْ على الأرض وبدا عليها الانزعاج.

""حنّة"! "حنّة"! وكأنّ "حنّة" شغله الشاغل! هل تعتقد أنّني ما زلت طفلة؟ لقد رحلت "حنّة" منذ فترة طويلة. ما كل هذا الهراء الذي يجوب في بالك؟ سأجلب شيئًا نشربه".

"نعم، من فضلك!"

نهضتْ وغادرت الغرفة.

سمعتُ شتّى الأصوات من الغرف المجاورة: أحدهم يفتح زجاجة نبيذ، وموسيقى، وصراخ متقطّع، كما كانت الأبواب تُفتح وتُغلق باستمرار. بين الحين والآخر، نادى صوت في الممر على الخادمة وأملى عليها بعض الأوامر.

عادت "إلينا". أشعلت سيجارة وقالت إنّها ترغب في الجلوس في حضني، فرفضت ذلك.

"لماذا ترفض أن أجلس في حضنك؟"

"لأنّ ليس هذا ما أريده منك"، أجبت.

"حسنًا. سدّد ثمن النبيذ وارحل إذن." فقلت:

"اجلسي بهدوء ودعينا نتحدّث. لا تقلقي، سأدفع لك مقابل هذا الوقت". وأعطيتها بعض المال. لا أعرف كم أعطيتها بالضبط، لكنّه كان مبلغًا جيّدًا.

فهدأتْ حالًا وجلست باعتدال، لكنّها رفضت أن نتحدّث عن الأيّام الخوالي. كلّما سألتها عن شيء ما، غنّت أو أشعلت سيكارة أخرى. لم ترغب أن تتحدّث عن الذكريات القديمة وعن ذلك الفناء القذر أمام المبنى. في رأيها، لا تستحقّ تلك الأيام أن نتذكّرها. "هل تسمح لي أن آخذ كأسًا من النبيذ إلى الخادمة في الممر؟"

"بالطبع".

"دعني أخبرك بالحقيقة، الخادمة هي في الواقع والدتي. لقد حصلتْ على هذه الوظيفة بفضلي، وهي تبلي بلاءً حسنًا".

أخذت كأس النبيذ إلى الممر وعادت إلى الغرفة. "بصحّتك، يا صديقي العزيز!" قالت "إلينا".

وشربنا النبيذ.

مرة أخرى، قالت إنها تريد الجلوس في حضني.

"ألا تشعرين بالملل في الريف؟" سألتها.

"كلا، لا أشعر بالملل. قل لي لماذا لا تسمح لي بالجلوس في حضنك؟"

"متى انتقلت إلى هنا؟"

"لا أذكر. لماذا تهتم بهذا الأمر؟" أجابت "إلينا" ثم قالت: "بصحّتك".

وشربنا النبيذ. مرة أخرى راحت تغني أغنية تافهة من عرض مسرحيٍّ جديد، وكان صوتها نشازًا.

سألتها: "أين سمعتِ هذه الأغنية؟"

"في مسرح "تيـڤـولي".

"هل ترتادينه كثيرًا؟"

"نعم، عندما يكون لدي ما يكفي من المال. لكنّي ما عدت قادرةً على ذلك اليوم، لأنّ صاحبة المنزل تفعل ما بوسعها للحصول على أموالي؛ تأخذ قسمًا كبيرًا منها ولا تترك لنا سوى الفتات. بالمناسبة، هل لديك فائض من المال يمكنك إعطائي إياه؟".

لحسن الحظ كان لديّ ما يكفي، فأعطيتها المزيد من المال.

أخذتْ المبلغ من يدي من دون أن تشكرني، لا بل لم تبدِ أيّ ردة فعل على الإطلاق، لكنّها ربّما شعرتْ بالسعادة قليلًا. ثم طلبت مني أن أشتري زجاجة نبيذ أخرى. كان واضحًا أنّها أرادت استغلالي إلى أقصى حدٍّ ممكن.

وصل النبيذ.

والآن، أرادت "إلينا" أن تتباهى بي أمام الفتيات الأخريات. أدخلتهنّ وسمحت لهنّ بشرب النبيذ. ارتدت الفتيات ذوات الشعر القصير تنانير قصيرة منشّاة أصدرت صوتَ حفيفٍ كلّما تحركن، وكانت أذرعهن مكشوفة بالكامل.

عندما قدمتني "إلينا" للفتيات، تذكّرتْ اسمي بسهولة مدهشة. ثم قالت لهنّ بغرورٍ إنّني أعطيتها الكثير من المال وإنّني صديق قديمٌ عزيزٌ عليها، وإنّني مستعدٌّ لتلبية حاجاتها دائمًا مهما طلبت من مال. "هذا هو حاله منذ أن عرفته. لطالما كان غنيًّا".

شربت الفتيات وشعرن بالبهجة، وتنافسن مع بعضهن بعضًا في الغناء وتوجيه الملاحظات ذات الطابع الجنسي لي. شعرت "إلينا" بالغيرة عندما وجّهتُ ملاحظةً إلى إحداهن، وتغير مزاجها وأصبحت فظّة.

لكنني فعلت ذلك عن قصد، لكي تصارحني أكثر وتخبرني قليلًا عن حالتها الذهنية، إلّا أنّ حيلتي باءت بالفشل. رفعت رأسها مشيحةً بنظرها عني وقالت إن لديها موعدًا مع أحدهم، ثم أمسكتْ بمعطفها واستعدت للمغادرة.

سألتها: "هل أنت ذاهبةٌ للخارج؟".

نظرت إليّ نظرةً استعلائية وهمهمت بدلًا من أن تجيبني إجابةً كاملة، ثم ارتدت قبعتها، وفجأةً فتحت الباب الذي يقود إلى الممر وصاحت: "يا "جينا" Gina!".

جينا هو اسم والدتها.

جاءت "جينا" مرتدية الخفّافات. طرقت الباب ووقفت تنتظر عند العتبة.

"ألم أقل لك إنّ عليك أن تنفضي الغبار عن الجوارير كل يوم!" قالت "إلينا" بغطرسة. "انظري إلى هذه القذارة! لا يمكنني تحمّل

هذا الإهمال قط؛ هل تفهمين ما أقوله؟ وعليك أن تمسحي هذه الصور كل يوم أيضًا".

فقالت والدتها "حاضر!" كان وجهها كتلةً من التجاعيد وقد تجوّف خدّاها بشكل واضح. استمعت بطاعة إلى ابنتها حتى لا تنسَ تعليماتها. عندما كانت على وشك العودة إلى المطبخ، قالت "إلينا": "إيّاك أن تنسي ما قلته لك!"

"أعدك بألّا أنسَ شيئًا!" قالت والدتها ثم غادرت الغرفة وأغلقت الباب بهدوء حتّى لا تحدث أي ضجة. لكن بعيدًا عمّا جرى بينهما، بدا لي أنّ الوالدة امرأة خشنة جدًّا.

وقفت "إلينا" مكانها مرتديةً ملابس الخروج وقد استعدّت لمغادرة المنزل. التفتت إليّ وقالت:

"حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل أن تدفع ثمن النبيذ وتغادر".

"شكرًا لكَ"، قالت لي الفتيات وشربن النبيذ المتبّقي في كؤوسهن.

شعرتُ بالصدمة إلى حدٍ ما.

قلتُ لها: "ثمن النبيذ؟ ماذا تقصدين؟ المال الذي أعطيتك إياه منذ قليل كان مقابل النبيذ. لحظةً، أعتقد أنّ لدي المزيد"، ثمّ فتشتُ جيوبي مرة أخرى، وإذ بالفتيات يضحكن.

"يا له من رجل ثريّ حقًّا! لقد أخذت كل المال الذي كان بحوزته، يا "إلينا"، ولم يعد بإمكانه تسديد ثمن النبيذ! ها ها ها!"

استشاطت "إلينا" نيابةً عني وصرخت:

"اخرجن من هنا! لا أريدك أن أراكنّ هنا بعد اليوم. إنَّ المال الذي يملكه هذا الرجل لا يعد ولا يحصى. انظرن إلى ما أعطاني إياه! ثم رمت على الطاولةِ الأوراق النقدية والعملات المعدنية التي أخذتها مني وتابعت: "لقد دفع ثمن النبيذ وثمن الوقت الذي قضاه بصحبتي. انظرن! أراهن أنّكن لم ترين يومًا كل هذا المال دفعةً واحدة، أليس كذلك؟ يمكنني أن أدفع لمالكة المنزل أجرة شهرين الآن. ما قلته له كان من باب المزاح فحسب. أردت إغاظته قليلًا. والآن اخرجن من هنا!" وغادرت الفتيات فعلًا. ضحكت "إلينا" بصوتٍ مهتزٍّ متوتّرٍ وهي تغلق الباب وراءهن.

"لا أحبّ تواجدّهن في منزلي"، قالت "إلينا" معتذرةً. "لسن سوى عاهرات مملات. لا أعتبر أنّهن صديقات لي. ألا تعتقد أنّهن مملات أيضًا؟".

قلت لها: "كلا" لكي تخجل من نفسها. "لقد أجبن على كلّ سؤالٍ طرحته عليهن، وأخبرنني بكلّ ما أريد معرفته عنهن. لقد كنَّ فتيات محترمات".

"تفضّل بالخروج من منزلي أنت أيضًا!" صرخت "إلينا". "هيّا. اركض وراءهن إذا كان هذا ما تريده. لا مانع لديّ". ثمّ جمعت المال الذي ألقته على الطاولة ووضعته في جيبها لئلّا آخذه منها.

فقلت لها: "حقيقةً، أودّ أن أسألك سؤالًا واحدًا لو تكرّمت. أرجوك، اهدأي قليلًا وأنصتي لي".

"تريد أن تسألني سؤالًا!" أجابت بذهول. "لا تربطني بك أيّ علاقة! أعتقد أنّ سؤالك يتعلق بـ"حنّة"، أليس كذلك؟ كل هذه

الأسئلة التافهة حول "حنّة" تجعلني أرغب في التقيؤ. لا أستطيع تحمّل الضغوط هذه".

فسألتها: "لكن ألا تتمنين أن تبتعدي عن الحياة هذه؟"

تظاهرت بأنها لم تسمعني، ثم اشتكت من الفوضى التي حلّت بالغرفة ونهضت لترتّبها وهي تصفّر لكي ترفع من معنوياتها.

ثم وقفت أمامي مباشرة وقالت فجأةً: "بعيدًا عن هذه الحياة؟ لماذا؟ وإلى أين سأذهب؟ هل تعتقد أنّ هناك من يرغب بالزواج بي؟ من هو الشخص الذي سيرضى بفتاةٍ مثلي؟ واعلم أيضًا أنّني أرفض أن أعمل كخادمة."

"غادري الريف وافتحي صفحة جديدة".

"عن أيّ هراء تتحدّث! دعك من هذه الترهات! هل تخال نفسك مُبشّرًا؟ لماذا تريدني أن أغادر الريف؟ أنا بخير هنا ولا ينقصني شيء. ما رأيك بتناول المزيد من النبيذ؟ أنا وأنت من دون هؤلاء الفتيات"، ثم أدارت رأسها نحو الباب وصاحت: "جينا!".

حضرت زجاجة النبيذ. بعد أن شربت "إلينا" خفّت حدّة نبرتها الاتهامية تجاهي. لكنّني لم أستطع إجراء أي محادثة مثمرة معها. جلستْ هناك تدندن مقتطفات من أحدث الأغاني وتفكر. شربتْ أكثر وأكثر، وتعالت ضحكاتها بشكل بغيض جدًا، وسألتني مرارًا وتكرارًا عمّا إذا كان بإمكانها الجلوس في حضني، وهزت رأس لسانها في وجهي وقالت لي: "انظر!"

أخيرا سألتني مباشرة:

"هل ستقضي الليلة هنا؟"

"كّلا"، أجبتها.

فقالت: "حسنًا، عليّ المغادرة إذن...".

توقّف الرجل عن سرد القصة، فسألته:

"ماذا حصل بعد ذلك؟"

"لو كنتَ مكاني، ماذا كنت ستفعل في مواجهة خيار كهذا؟ هل كنت ستبقى أم تغادر؟ هذا هو السؤال... هل تريد أن تعرف ماذا فعلت؟"

ثم نظر إليّ وقال: "لقد قضيت الليلة".

"قضيتَ الليلة؟" شهقتُ مشدوه الفم. "قضيتَ الليلة؟ مع الفتاة؟"

فقال: "أشعر بالعار".

"ولكن بحق السماء، أين كان عقلك؟ هل كنت مخمورًا؟"

"نعم. صحيحٌ أنّني أثير الاشمئزاز والنفور، لكنّني لا أختلف عن سائر الناس في هذا العالم. فأنا أعرف خلفية هذه المرأة جيّدًا، وأعرف قصتها المؤثرة والمؤلمة. إضافةً إلى أنّني شعرت برغبة غريبة في أن أكون عديم الحياء تمامًا. هل تفهم قصدي؟ هذا ما حصل، وشعرت بذلك. ويا لبحر قلة الحياء الذي غرقنا فيه سويًّا!".

هز الرجل السفيه عديم المبادئ رأسه محاولًا تذكّر سلوكه تلك الليلة. ثم تابع:

"على أيّ حال، أنا ذاهب لرؤيتها مرة أخرى لم يفت الأوان بعد. أعتقد أنّك ستقول إنّه لا يحق لي أن أراها. لكن هل فكرت بأنّني

ربما لست شخصًا مشينًا كما تظن؟ ضع في عين الاعتبار أنّني لو لم أقضِ الليلة بصحبتها، لَفَعل ذلك رجلٌ آخر، وكلّي ثقةٌ بأنّ شيئًا كهذا لا يصب في مصلحتها. لو كان باستطاعتها اختيار الرجال الذين يقضون الوقت معها، أعتقد أنها كانت ستشعر بالأمان معي. فأنا متفهم وأراعي شعورها وأحرص دائمًا على مقاومة المغريات التي تقدمها لي؛ الغريب في الأمر هو أن هذا الجانب من شخصيتي أثارها بشدة. قالت لي بالحرف الواحد: "مقاومتك لي أمرٌ ظريف جدًّا". ماذا عسى المرء أن يفعل في صحبة امرأة كهذه؟ تذكّر أيضًا أن قلبها قد فسد مباشرةً بعد حادثة الأزهار تلك. تغيّرت حياتها بالكامل في ذلك اليوم بالذات. لو كان المجتمع يسمح للناس بأخذ الأزهار من القبور لكانت ظلّت امرأة شريفة حتى هذا اليوم. لكنّنا طاردناها وقبضنا عليها. وأنا ساعدتهم في ذلك! لقد ساعدتهم في إلقاء القبض عليها!"

مرة أخرى هز رأسه في يأس شديد. فجأةً بدا وكأنّه استفاق كما لو كان غارقًا في حالة نوم مغناطيسي.

"على أيّ حال. لقد أخّرتك كثيرًا. أشعر بالإرهاق. كم الساعة يا ترى؟".

وضعت يدي في جيبي بحثًا عن ساعتي لكنّي لم أجدها. لا بدّ أنّني تركتها في المنزل. "حسنًا، شكرًا لك، لا فرق عندي حقًّا"، قال لي ثم نهض ومدّد ساقيه. "انظر، ها قد أتت تلك السيدة مرة أخرى. انتهت من الحزن والبكاء، ولم تعد الفتاة الصغيرة تحمل الأزهار... أزهار الكاميليا... لقد وضعتها فوق القبر. في غضون أربعة أيام

ستذبل جميعها. لذلك إذا أرادت فتاة صغيرة أن تأخذها لكي تشتري حذاءً فلن أعتبر ذلك الأمر سرقة...".

نظر الرجل إليّ مباشرة وظلّ على هذا الحال لمدة دقيقة كاملة. ثم اقترب مني خطوة وبدأ يضحك بصوتٍ خافت وفمه مفتوح على مصراعيه.

ثم قال: "هذه هي القصص التي يحب الناس سماعها، لا بل إنّ هناك سوقًا كاملة مخصصة لبيع هذه القصص. شكرًا على اهتمامك وإنصاتك، عزيزي المستمع!".

حيّاني بقبعته وانحنى إلى الأمام، ثم غادر المقبرة.

بقيت مكاني في حيرة مطلقة. لقد أربكني تمامًا وملأ رأسي بشتى الأفكار. لقد خدعني. هل قضى هذا اللقيط الليلة مع الفتاة؟ لكن عن أيّ فتاة يتحدّث؟ يا له من كاذب. كانت حكايته المفجعة من نسج خياله، من البداية إلى النهاية. لكن من هو ذلك الوغد إذن؟ إذا صادفته مرة أخرى سأوبّخه. لا بدّ أنه قرأ تلك القصة في مكان ما وحفظها عن ظهر قلب. كان ملفتًا للانتباه. نعم، يا له من رجل موهوب. ها ها ها! يا إلهي، اللعنة عليّ. لقد صدّقته فعلًا!

عدت إلى المنزل وأنا في حالة الإرباك ذاتها. بحثت عن ساعتي من فور وصولي لكنها لم تكن على الطاولة. فجأةً صفعت جبهتي: لقد سُرقتْ الساعة! طبعًا! لقد سرق ساعتي بينما كان جالسًا بجانبي! يا إلهي! اللعنة عليه! اللعنة عليه! يا له من رجل وضيع!

وجدت نفسي أمام خيارين: يمكنني الإبلاغ عن السرقة واستعادة ساعتي بعد يوم أو يومين من مكاتب الرهونات، كما سيتم إلقاء القبض على السارق بعد وقت وجيز.

أو يمكنني أن ألزم الصمت؛ يمكنني ألّا أبلغ عن الحادثة. هذا هو خياري الثاني...

قرّرت أن ألزم الصمت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

حدائق "تيڤولي" والشابة	13
محاضرة مهمة	27
قصّة شبح	56
انتصار امرأة	67
"جون ترو"	78
حزنٌ دفين	93
ملكة سبأ	109
نداء الحياة	142
فاتِنُ النساء	149
ثورةٌ في الشوارع	160
أبٌ وابنه: قصة مقامر	172
في سهوب القمح	207
"زاكيوس"	220
على الضفاف	239
ليلةُ عيد الميلاد على التل	250
الحياة في بلدة صغيرة	261
"ريرسن" قبطان نجمة الجنوب	289
جزيرة الرجل الأزرق	307
حفلة عيد ميلاد	335
رجلٌ وضيعٌ للغاية!	343

رجلٌ وضيع للغاية

كنت في طريقي لإلقاء محاضرة عن الأدب الحديث في «درامن». لم يكن بحوزتي ما يكفي من المال، وبدا لي أنّه يمكنني الحصول على القليل منه بإلقاء المحاضرات، كما اعتقدت أنّ الأمر لن يكون صعبًا للغاية. لذا، في أحد الأيّام من نهاية صيف 1886، ركبت قطارًا متّجهًا نحو تلك المدينة الرائعة.

لم أكن أعرف أحدًا في «درامن»، ولا أحد هناك يعرف من أنا أيضًا، كما أنّني لم أعلن عن محاضرتي في الصحف، على الرغم من أنّني قمت بطباعة 500 بطاقة في وقت سابق من ذلك الصيف، في لحظةٍ شعرت فيها بالنشوة، وكنت أنوي توزيعها في الفنادق والحانات والمتاجر الكبيرة، لكي يعرف الناس ماذا تخبّئه محاضرتي لهم. لكنّني لم أكن راضيًا تمامًا عن البطاقات تلك لأنّها احتوت على خطأ مطبعيٍّ في تهجئة اسمي. ومع ذلك، كنت مجهولًا كليًّا في «درامن» لدرجة أنّ أحدهم لم ينتبه إلى ذلك الخطأ المطبعي بتاتًا.

***

هذه إحدى المحاولات القصصية القليلة للأديب النرويجي الحائز على جائز نوبل، كنوت هامسون، والذي أشتهر بكونه روائيًّا في المقام الأول، لكنّ النقاد انتبهوا إلى أنّ هذه النصوص شكّلت النواة الأساسية لرواياته ذائعة الصيت مثل «جوع» و «بان» و «أسرار»، وغيرها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING